البندول

نصر سليمان

رواية

يتم تخصيص ٥% من جميع إصدارات دار ضاد لصالح مستشفى سرطان الأطفال ٥٧٣٥٧ و مركز مجدي يعقوب للقلب .

البندول

نصر سليمان

تصميم الغلاف : محمد حواس

المراجعة اللغوية: ابتسام أبو سعدة

الطبعة الأولى ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: رواية

رقم الإيداع :

ISBN 5-01-5191-977-978

دار ضـــــاد ©

جمهورية مصر العربية

القاهرة – ٦ اكتوبر

سوهاج – طهطا

تليفون ٠١١٢٠٨٠١٧٨٠

www.daadpub.com

نصر سليمان

البندول

دار ضَـــــــادّ ©

إهداء

إلى الأرواح المعذبة، المثقلة بما تحمله النفوس من آمال وآلام، والتي تسعى دوما للارتقاء والارتفاع، وحينما يتهيء لها الاكتمال، وتظن أنها طالت السحاب، تفاجئها الأقدار بما لم يكن في الحسبان، وتقذف بها إلى الهاوية، لتجد نفسها في بئر بلا قرار،ربما يحمل في أعماقه كلمة النهاية.

"١"

منذ نعومة أظافري وأنا أكره هذا الحي الذي ولدت به وشهد طفولتي وجزءا كبيرا من شبابي، وكم سألت نفسي عن سر هذه الكراهية الدفينة لهذا المكان مخالفاً شعور الكثير من أقراني ممن يتمسكون بمنطقة ميلادهم ويجدوا في المكان الذي نشأوا به وترعرعوا بين أحضانه ذكريات الطفولة وبراءتها وحنين الأهل والجيران وتربطهم بأركانه و حواريه ذكريات جل أن ينسوها بعدما حفرتها الأيام والسنون في عقولهم وجعلت من الفترة التي قضوها على أرضه جنة الماضي وذكريات الأيام السعيدة، غير أني لم أكن هكذا ولم يخالجني هذا الشعور قط، بل كنت دائما ناقما على " حى الملاعين " وهذا أسم الحي الذي ولدت على أرضه ونشأت في أحضانه وقد وعيت على الدنيا أعرفه بهذا الاسم ولا أجد له تفسيرا، و كم حاولت كثيرا معرفة سبب هذه التسمية ومن الذي لعننا قبل أن نولد حتى تلتصق بنا هذه اللعنة ما حيينا، غير أنه لم يجيبني أحد إجابة شافية وإن كانت التفسيرات والتحليلات كثيرة ولكن كلها مجرد تخمينات وأقاويل موروثة ضاعت بينها الحقيقة وذهب من أطلق هذا الاسم وبقى الحي مع اللعنة التي أصابته في أسمه والصفة التي التصقت بقاطنيه،ويبدو أن هذه التسمية تركت أثرها في عقلي ووجداني حتى أنه كثيرا ما شعرت أن أهل هذا الحي قد أصابتهم اللعنة وتملكت منهم فكنت أراهم مغضوب عليهم تلاحقهم اللعنات أينما ذهبوا أو ولو.

وحي الملاعين ليس بالسوء الذي أراه به،فهو حي مثله مثل الكثير من أحياء محافظة الشرقية، تلك المحافظة العريقة التي سكنتها عائلات كبيرة ذات جذور ممتدة عبر التاريخ،وتميزت هذه المحافظة بالطابع الريفي نظرا لما بها من أراضي

زراعية شاسعة، والكثير من أهلها يعملون بالزراعة والفلاحة منذ قديم الزمن، ولذلك فأهلها يغلب عليهم الطيبة والعيش معا في تلاحم وتوافق فرضتها عليهم طبيعة المدينة، وقد توغلت وأنا في أواخر طفولتي في قراها ونجوعها الكثيرة وزرت الكثير من الكفور والنجوع النائية التي تنتشر على مساحات واسعة من أرض المحافظة ، وعلى قدر طيبة أهل هذه الأحياء الفقيرة وما تتمتع به حياتهم من بساطة وعيشة قانعة إلا أني كنت دوما أجد في نفسي رفضاً لهذه الحياة وتمردا عليها وأراها واقعاً مملا وحياة رتيبة، وبقدر منظر الخضرة البديع وهى تكسو الأرض وتمتد على مرمى البصر تداعبها نسمات الهواء العليل وتميل بها يمينا ويسار، وتحلق العصافير والطيور المغردة في سماءها وتغزوها بين الفينة والأخرى تلتقط بعض الحبوب التي قارب وقت حصادها وسواها النضج، في منظر طبيعي بديع يخلب العقول ويطلقها من الروؤس لتحلق في إبداع تلك اللوحة الجمالية للطبيعة ،برغم سحر هذا المنظر وروعته إلا انه لم يروق لي يوما ولم أشعر معه بارتياح،بل كان يضيق به صدري ولا أكاد استنشق معه الهواء وكأن ماردا بداخلي يأخذ بعنقي ويكاد يطبق على نفسي ليأخذني بعيدا عن هذا العالم الذي لم أحبه يوما ولم يداعب وجداني .

كانت زياراتي لقرى وأحياء المحافظة نابعة من وجود زملاء لي من الدراسة يقطنون بها، فالمدارس في الشرقية تبعد كثيرا عن تلك القرى والأماكن النائية وكان التلاميذ يضطرون لقطع المسافات الطويلة للوصول لمدارسهم خاصة في المرحلة الثانوية أو ما يعادلها .

وعلى الرغم من أن حى الملاعين الذي ولدت وترعرت به لم يكن منطقة زراعية، بل على العكس تماما فقد كان أبعد ما يكون عن الزراعة، و يمكن القول انه منطقة صناعية بدائية حيث يوجد به بعض ورش إصلاح السيارات، وكذلك يعج بالعديد من محلات الأدوات الكهربائية وأدوات السباكة ومحلات إصلاح الدراجات،وكثيرا ما كان يلفت نظري مصنعا صغيرا يقوم بتصنيع السجاد وكنت أراقب العمال بالساعات الطويلة وهم يضعون القماش والخيوط في ماكيناتهم ثم يخرجونها سجادا وبساطا ذو ألوان مختلفة وفقا لما يحويه من أقمشة مختلفة الألوان كان نساء الحى والمناطق المجاورة يحضرونها في كرات كبيرة ملفوفة من بقايا ملابسهم وملابس أولادهم ويتم لفها على هيئة كرة بحجم البطيخة الكبيرة ثم يسلمونها لمصنع السجاد الذي يردها لهم سجادا مختلف الألوان والأحجام .

وعلى قدر ما كرهت المناطق الريفية التي كنت ارتادها بين الحين والأخر، بقدر ما تعاظم الكره داخلي لحى الملاعين الذي أعيش فيه، واقضي حياتي وأيام عمري بين أروقته وشوارعه ألعب مع أطفاله ثم بعد ذلك أصاحب شبابه،غير أن الإحساس بداخلي لم يتغير يوما ولم أعرف له سببا،ودائما ما ينتابني هذا الشعور القاتل بالاختناق وضيق الصدر وكأني أريد أن أغادر نفسي و انطلق إلى لا شيء مبتعدا عن هذا المكان وعن تلك الحياة التي ضاقت بها نفسي، وكثيرا ما حاولت أن اكتم هذا الشعور داخلي واجعل حدوده جدران صدري وضلوعه بحيث لا يتعداني إلى الخارج حتى لا يشعر به أحد أفراد أسرتي أو أصدقائي ويبدأ سيل من النصائح والأسئلة عن السبب وعدم القناعة وضرورة الحمد والشكر لنعم الله، وغير ذلك من الأحاديث التي تؤجج النيران وتُضيق الصدر

وتجعلني على وشك الانفجار، ولكن في بعض الأحيان يتغلب التمرد الداخلي ليطفح على السطح ويقرأه من حولي، حتى أنني عرفت في البيت وحى الملاعين بالنمرود، وصاحبتني تلك الصفة طوال إقامتي في الحى ، ولك أن تتخيل صفتان يلتصقان بي وكلاهما مصيبة من مصائب الزمن فأنا وبلا فخر نمرود وملعون من حى الملاعيين، و كثيرا ما تندرت بهذه الصفات مع أصدقائي وأقراني ولم أكن أدري أنه سيكون لى جزء من هذه الصفات يرتبط بي وبحياتي القادمة كلها .

أدركت وأنا في المرحلة الثانوية أن بداخلي طاقات أكبر مما يتحمله صدري، وأحلاما تتملكني لا يتسع لها فضاء مدينتي، وانه لابد لي من أن انطلق، ويكون انطلاقا بلا حدود فأنا أريد أن استوعب العالم كله بين ذراعي،وأتملك الحقائق كلها،واحلق في سماء الكون كالنسر الذي يجوب البحار والجبال لا يمنعه مانع أو يحد من سباحته في الفضاء شىء،أدركت أن تمردي لم يكن على الحي أو المدينة بقدر ما هو ضيق يتملكني وإحساس بالقيد يدمي نفسي ويجعلها تضيق بما حولها وتتطلع دائما للخلاص .

وبقدر ماكان هذا الشعور يسبب لي الأرق في طفولتي،وكثيرا ما اعتبرت كلمة نمرود سُبة تثير غضبي، بل وأحيانا تدفعني للشجار مع قائلها ، إلا انه وبعد أن أدركت حقيقة نفسي، وجدت أن ما كنت أظنه قدحاً هو في الأصل مدح ولكن يجب استغلاله الاستغلال الأمثل حتى لا يكون سهما أطلقه ويرتد الى صدري، وهذا هو ما قاله لى مدرس اللغة العربية وأنا في الصف الثالث الإعدادي عندما لاحظ تمردي وشقاوتي الزائدة عن الحد ورفض كل ماهو قائم حتى ضاق بي

جميع المدرسين ،حاول الأستاذ عطية أن يكتشف سر هذا التمرد ويجد لي العلاج بصفته مدرس مادة العربي والدين ومسئول الخدمة الاجتماعية في المدرسة، وخلص بعد عدة جلسات استماع وسؤال وجواب إلى اكتشاف طاقاتي الزائدة وأفكاري المتمردة، وكان أول من نبهني إلى ذلك ووضع يده على العلة كما يقولون،ولكنه حذرني تحذير شديد اللهجة لازلت أجد رنينه في أذني من الانجراف بكل هذه الطاقات إلى طريق أعوج أو صحبة فاسدة وطالبني بضرورة توظيف هذه الطاقة في المفيد من الأفعال والأعمال حتى اجني ثمارها خيرا بدلا أن تتحول الثمار إلى شر وسوء عاقبة .

كانت هذه الكلمات أول توصيف حقيقي لما أعانية، ورسخت كلمات الأستاذ عطية في عقلي ووجداني حتى انه كثيرا ما ارددها في فترات كثيرة من حياتي ومع كل حدث ناتج من النمردة التي أعانيها،وكأن ما قاله حكمة من حكم الزمان التي نتداولها ونستدعيها لتجد مكانها في كثير من الأحداث .

عندما أدركت تلك الحقيقة أصبحت كالطائر حبيس القفص الذي يريد القفز ويجد أسوارا عالية ضربت حوله تمنعه من الانطلاق،ويحاول ويحاول مجددا وفي كل مرة تضربه جدران القفص ليعود إلى مكانه محطما خائب الرجا، غير أنه قد أخذ قراره بضرورة التحرر من سجنه والانطلاق من أحد شبابيك هذا القفص الذي يقبض على روحه ونفسه ويتركه بقايا عصفور يقضي يومه بين مأكل ومشرب،وليل ونهار يتعاقبان لتبدأ دورة أخرى من دورات الحياة دون أن يجد لروحة منطلقا ولنفسه مخرجا .

لاحظ والداي آثار ما أعانيه ويضيق به صدري وحاولا مرارا وتكرارا الحديث معي ومحاولة الوصول إلى لب المشكلة التي تؤزم حياتي، وكثيرا ما جلس والدي معي وحاول مناقشتي والغور في أعماق نفسي عله يستطيع أن يصل إلى مكنون ذاتي، غير أن مقدار علمه وثقافته لم تؤهله للحصول على مايريد ولم تمكنه من الغوص في بواطن الأمور النفسية المعقدة ، وأنا بدوري لم استطع أن أترجم له معاناتي أو أضع يده على الجرح الذي أعانيه، فكلانا أراد أن يستطلع الأخر غير أننا لم نتمكن من اللقاء والالتقاء فكنا كقطارين يسيران معا وكلما وجدا أنهما على طريق واحد صادفهما منعطف فينحرف كل قطار مبتعدا عن الأخر، يتم يلتقيان ثانية ثم يفترقان، حتى يجدا أنفسهما في النهاية وقد سار كل منهما في طريق وابتعد الطريقان وضاعا من بعضهما.

غير أنى كثيرا ما أشفقت على والدي هذا الموظف البسيط الذي يعمل بإحدى المصالح الحكومية وهو يحمل الشهادة الإعدادية القديمة والتي كانت حلما في زمانها وكان حاملها يعد أحد مثقفي زمانه ومطمع لبنات العائلات والطبقات المتوسطة، غير أن الزمان أضاع كل هذه الميزات بل وأضاع أصحاب تلك الشهادات بعدما انتشرت الجامعات وخريجيها وكثرت الشهادات الجامعية بل وأصبح من يحملها بلا عمل ووقف في صفوف البطالة أو العمالة الزائدة .

والدي مثله مثل معظم الآباء يعيش حياته لعمله وأبناءه ويقضي الشهر كله في عمل دؤوب حتى إذا ما انتهت أيام الشهر صرف راتبه الضئيل، وكنا ننتظر هذا اليوم ونحن أطفال وكأنه العيد بالنسبة لنا، فكان والدنا يأتي لنا بلفة من ورق خشن نحفظ ما بها ونعرفه جيدا، حيث تحوي اللحم والعظم الذي يأتينا به

كل شهر ونستعد لهذه الطبخة العزيزة على قلوبنا،حيث نتناول الثريد المصنوع من شربة العظام ونقوم "بمصمصة" ما تبقي من لحم يكسو قطع العظام التي قام الجزار بتكسيرها قطعا قطع، و الكل يصبو إلى الفوز بماسورة من هذه العظام نحاول أن نمتص ما بداخلها من "بهاريز"كما كنا نطلق على محتواها ، وربما استعصى علينا كأطفال استخلاص هذه "البهاريز"، فنحاول إخراجها بكافة الطرق مستخدمين في ذلك الملاعق والسكاكين وما يتاح لنا من أدوات المائدة ، وربما تمكنا من الحصول عليها بعد ضرب العظم بخشب "الطبلية " التي وضع عليها الطعام حتى أذا ما ظهر ما بداخله نسارع إلى التهامه وكأننا قد عثرنا على صيد ثمين أجهدنا محاولة اللحاق به واصطياده .

وكان بجانب ورقة اللحم، يحمل أبي كيسا أو اثنين من الفاكهة، نسرع نحن الصغار نقفز سلالم البيت قفزا لملاقاته أسفل البيت أو على السلم لحمل هذه الأكياس والإسراع بها إلى البيت وتسليمها لوالدتي التي تنفرج أساريرها وتزداد ابتسامتها لإدراكها أن أبي قد صرف الراتب،واليوم موعدها لترتيب الميزانية وتسديد المديونيات التي استدانت بها لتكمل أيام الشهر.

غالبا ما تكون نهاية هذا اليوم مغايرة تماما لبدايته، حيث يتنامى إلى سمعنا الشجار بين والدي ووالدتي وتعلو الأصوات ونستطيع أن ندرك أن هناك خلاف في توزيع الميزانية أو أن الراتب لن يكفى احتياجات البيت بعد محاولة إعادة توزيعه أكثر من مرة ليصلوا في النهاية إلى النتيجة المحتومة وهى أن الراتب غير كاف وان الأمور لن تنصلح على هذا النحو، وتبدأ موجة من العتاب والاتهام متبادلة بين أبى وأمي، فهو يتهمها بسوء تصريف الأمور الشهر الماضي مما أظهر

هذا العجز الكبير في ميزانية هذا الشهر، وأمي تبادله الاتهام انه مقصر في حقها وحق أولادها بقناعته بالعمل الذي يعمل به وعدم محاولته العثور على عمل إضافي مثل جارنا الأستاذ عبد الفتاح، أو زميله الأستاذ سيد منصور الذي وجد أحدى الفرص في شركة قريبة يعمل بها طوال الليل حارس خاص ويتقاضي منها راتبا كبيرا يعينه على الأيام ويساعد على مصاريف الأولاد، وسرعان ما يحتدم بينهما الشجار فيقوم والدي مسرعا خارج من المنزل ضاربا بابه بقوة، ويتجه إلى المقهى القريب حيث يلتقي مع بعض أصدقائه ليخرج غضباً أحتبس في صدره مع دخان " الجوزة" ويستمتع بكركرة مياهها مع كل نفس يأخذه ويرتشف خلفه رشفة كبيرة من كوب الشاي الساخن الذي احضره النادل بناءا على طلبه، ليقضى ساعة أو ساعتين يريح أعصابه ويتناسى عجز الراتب ومشاكل البيت، ثم يعود في المساء ليتناول عشاءه ويتحاشى أن يتبادل الحديث مع احد وخاصة والدتي وكأنما أراد أن يحافظ على قسط السعادة الوهمية التي حصل عليها مع دخان الجوزة وسخونة الشاي، ثم يذهب إلى فراشه ويخلد إلى نوم عميق، بينما تظل والدتي تضرب أخماساً في أسداس وتحسب وتعيد حساباتها وتوزع الجنيهات القليلة، ثم تعيد توزيعها مرة ومرات إلى أن تيأس من سد هذا العجز وكأنه نتاج هذا الشهر فقط ولم تعتاده قط قبل ذلك، مع إننا نعلم جيدا أن كل شهر تتكرر هذه القصة بحذافيرها حتى بتنا نحفظها ونحن مازلنا أطفالا، غير أني كنت أتعجب كيف أن والداي يتعاملا مع هذه المشكلة المعتادة وكأنها وليدة اللحظة أو أنهم فوجئوا بها مع أنهم قد اعتادوها طوال الشهور الماضية .

شببنا على الطوق أنا وإخوتي واجتزنا مرحلة الطفولة وأشرفت على أعتاب مرحلة الشباب واجتزت المرحلة الثانوية وأهلني مجموع درجاتي للالتحاق بكلية الحقوق، والتحق شقيقي أحمد بمدرسة تجارية في صفها الأول،. معرباً عن رغبته في عدم الالتحاق بالتعليم الجامعي ومحاولة شق طريقه سريعا في سوق العمل لتخفيف العبء عن والدي في المصاريف خاصة أني انتقلت للجامعة و مصاريفها الباهظة التي تقتطع جزءا كبيرا من مصاريف الأسرة ، وكانت شقيقاتي البنات أكبرهن حنان في الصف الثاني من المرحلة الإعدادية، حيث جاءت ولادتهن متعاقبة خلال أربع سنوات فكانت أصغرهن سحر في الصف الخامس من المرحلة الابتدائية، تسبقها صفاء في الصف الأول الإعدادي .

وشقيقتي حنان هى الأقرب لي من أخوتي على الإطلاق، فعلى الرغم من حداثة عمرها كنت أجد نفسي فيها، فهى تمتلك نفس الروح المتمردة، وقوة الشخصية ونفاذ البصيرة، ولها الكثير من الأفكار والآراء الصائبة التي نستمع إليها وكثيرا ما تجد صدى لدى والدي ووالدتي وأن كانوا في بعض الأحيان يأخذهم الكِبر عن الانصياع لهذه الآراء، وسرعان ما يعودوا أدراجهما للأخذ برأيها لما فيه الصواب، وكانت تربطني بحنان قوة خافية تتيح لكل منا أن يقرأ الآخر ويدرك ما يجيش بصدره فتتكامل آرائنا وتتوحد مقاصدنا، ولا أنسى يوما أن نظرت حنان في عيني بقوة وقالت إن نظراتك حادة وقوية ووجهك به من الجمود ما يخيف، وهى صفات جل أن توجد وإن امتلكها قائد فهو لامحالة قائد صارم نافذ الكلمة وسديد الرأي، يومها أخذت كلامها على محمل المزاح ولم التفت إليه كثيرا، غير أن الأيام بدأت تحفر كلماتها في عقلي بعدما أدركت صدق رؤيتها، وكانت البداية عندما رحل والدي ووافته المنية وهو يصلي الفجر

في مسجد الحي، وجاء به أصدقاءه محمولا فوق الأعناق، والجميع يحاول تخفيف وقع الصدمة علينا، وتنطلق الصرخات تشق عنان الليل ويستيقظ الجميع وتشارك نسوة الحي أمي وأخوتي مصابنا الكبير لتنطلق وصلة من الندب والبكاء والنواح وصرخات متواصلة لاتكاد تنقطع وتَخفُت حتى تُحييها إحدى الجارات وكأنه إعلان لمن ثقل سمعه بوجود مصيبة الموت ترقد في بيتنا .

يومها أخذني الموقف بعض الوقت ولكن سرعان ما أفقت على الحادث الجلل وأدركت أني أصبحت امتلك زمام الأمور و الجميع ينتظر مني تصريف الحياة وإنهاء الإجراءات المتبعة في مثل هذه الحالات ،وكم دهشت يومها من قدرتي على تصريف الأمور، بل وإدارة هذه المحنة بكل اقتدار وحنكة وكأني عليم ببواطن الأمور ومساراتها، ولم أتعمد ذلك ولم أسعى إليه ولكنني فعلته بفطرتي وعفويتي دون أن أخطط أو أفتعل شيء ، وقد كانت لحظة فاصلة في حياتي عندما أراد أعمامي مواراة جثمان أبي في مقابر العائلة التي تجمع كل أفرادها، وكنت استمعت من والدي رحمه الله رغبته في أن يدفن في المقبرة الجديدة التي أشترى أرضها بالتقسيط وقام ببنائها منذ زمنا ليس بالقصير وأوصى بدفنه بعيدا عن مقابر العائلة وذلك إثر خلاف كان قد حدث منذ سنوات عديدة بينه وبين أقاربه وعائلته .

تذكرت وصية أبي بينما أعمامي وأخوالي مستغرقين في تجهيزه للصلاة عليه ثم موارته التراب ودفنه في مقابر العائلة، فما كان مني إلا أن ذكَرتهم برغبة أبي ووصيته، غير أنهم لم يستمعوا لحديثي ولم يبالي أحدا برأيي، فما كان مني إلا

أن وقفت على رأس جثمان والدي ونظرت في الجميع نظرة ثاقبة متحدية وقلت لهم إن أبي لن يدفن إلا حسب وصيته ومن أراد منهم أن يتبعنا فليأتي،ومن لم يرد فليرحل عن مجلسنا وعزاءنا، وانتظرت ردة الفعل على وجوههم بعدما سرت بعض الهمهمة بين الأعمام والأقارب، وكلما نظر أحدهم نحوي وجدني أسدد له نظرات حادة ملتهبة فيكتفي بوضع نظره في الأرض أو النظر لمن يقف بجواره دون أن ينبس أحدهم بكلمة، ونفذت وصية أبي وواريت جثمانه حسب وصيته في المقبرة الجديدة، وغادر الجميع العزاء دون أن يحاول أحد مناقشة الأمر أو التعقيب وإن كنت أرى نظرات الغضب والحنق تملئ أعينهم ولكنه الخوف يسيطر على قلوبهم ونفوسهم من ردة فعلي .

تحدثت معي شقيقتي حنان بعد أن هدأت الأمور ومرت بعض الأسابيع وتقبلنا موت والدي واستطعنا أن نتمالك أنفسنا بعض الشيء ونحاول العودة إلى الحياة ولكن بدون عماد العائلة ورب البيت،وذكَرتني بمقولتها القديمة عن نظراتي الثاقبة ووجهي القاسي، وقالت لي لقد خشيناك جميعا وليس أعمامك وأخوالك فقط، وأن عليك أن تتجنب تلك المعاملة القاسية التي ربما تفسد علاقاتك بالكثيرين، وطلبت مني محاولة السيطرة على انفعالاتي وإدراك قوتي في حالة الغضب حتى لايتمكن مني ويسيطر على أفعالي ويضعني في مواقف ربما تسبب لي بعض المتاعب .

أخذت كلام حنان هذه المرة مأخذ الجد بعدما أدركت أني أقف على مفارق طرق وان ما كان يعتمل في رأسي وقلبي منذ زمن بات أثره ظاهرا على وجهي

ويبدو أن التمرد إذا ما صاحب ظروف أو مواقف صعبة انقلب إلى قوة وتحدي وصار مثله مثل إعصار اشتدت ريحه فأخذت في طريقها الأخضر واليابس .

تغيرت حياتنا كثيرا بعد وفاة والدي وأدركت أن تعليمي بالجامعة قد انتهت أيامه وأنه يجب أن أخوض غمار الحياة باحثا عن عمل لتحمل مسئولية إخوتي ووالدتي،ولم يقابل قراري أي تعليق أو رفض من أحد في البيت، بل أنى شعرت أن الجميع كان ينتظر تلك الخطوة خاصة والدتي لإدراكهم عظم المسئولية الملقاة على عاتقها، وبالفعل تركت كلية الحقوق وأنا في بداية عامها الثاني وحاولت الالتحاق بعدد من الأشغال في المنطقة أو بالقرب من الحي الذي اقطن به، غير أن جميع من التحقت بالعمل معهم لم يتحملوني ولم استطع التكيف معهم ومع أعمالهم فقد كانت لي آرائي وتوجهاتي التي كانت تقابل منهم بالرفض ومحاولة وئد تمردي حتى كرهت جميع هذه الأعمال التي لا تتناسب مع تكويني ولا تحقق طموحاتي .

"٢ "

بينما أنا غارق في دوامة لا تنتهي من الأعمال الفاشلة تقابلها ثورة داخلية تكاد أن تحطم كل ما يعتريها، جاءني صديقي أيمن ذات يوم بفكرة جديدة ورأيي وجدته سديد، وسارعت إلى محاولة وضعه موضع التنفيذ واللحاق بركابه قبل أن تفوتني الفرصة،التي ربما اندم عليها كثيرا إن لم استغلها واعمل على تحقيقها، فقد أسر لي أيمن أن القوات المسلحة تطلب دفعة جديدة من المتطوعين للعمل بين صفوفها في رتب صف ضابط على أن يتم ترقيتهم بعد عدة سنوات يقضونها في الخدمة إلى ضباط يخدمون في صفوفها ويكون لهم ما للضباط من حقوق وعليهم ذات الواجبات، أخذتني الفكرة وطرت بها بعيدا وحلقت في سماء الحرية فها هو شباك أمل جديدا يفتح لي ويأخذني من هذا القيد الذي يكبلني ويضعني حيث يجب أن يكون مكاني،فجميع من يعرفني يدرك أني خلقت لأكون قائد نافذ للرأي مسموع الكلمة، رتبت حاجياتي ونظمت أوراقي وذهبت مع أيمن إلى مكان تقديم الأوراق واجتزنا سويا جميع الاختبارات المطلوبة بعدما تقدمنا بجميع الطلبات والمستندات وانتظرنا حتى تظهر النتيجة التي أودعتها آمالي وأحلامي وأعددتها بداية الحياة بالنسبة لي والفرصة التي سوف تنقذني وتعوضني عن ضياع مستقبلي وترك كلية الحقوق.

لم انتظر طويلا فسرعان ما أن ظهرت النتيجة وكنت أنا وصديقي أيمن من المقبولين للالتحاق بوحدات الجيش بعد تدريبات نقضيها في معسكر للتدريب والدراسة العسكرية .

كدت أطير فرحاً فمنذ وفاة والدي لم اشعر بسعادة كتلك التي اشعر بها، أخيرا اهتديت إلى الطريق السليم وسوف تفتح لي شبابيك الحرية انطلق منها إلى حيث أريد لأحقق آمالي وطموحاتي.

انتظرت صديقي أيمن في صباح اليوم الأول للالتحاق بمعهد التدريب، وجاءني مبكرا مرحا كعادته منذ أن وعيت عليه، فقد نشأنا سويا في حى الملاعين، حيث تتقارب منازلنا، ويربط بيننا علاقة جيرة قوية، وكم من مرات كثيرة تزاورنا وقضينا أنا وأسرتي أوقات طويلة في بيتهم، وفعلوا هم نفس الشيء، ففي تلك الأماكن الشعبية تربط علاقات الجيرة الأسر بعضها ببعض حتى يصيروا وكأنهم عائلة واحدة يجمع بينهم الحب والتآلف .

زاد من ارتباطي بصديقي أيمن تزاملنا سويا في مراحل التعليم المختلفة بداية من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الثانوية حيث افترقنا بعدها وذهبت إلى كلية الحقوق بينما اكتفى أيمن بالتعليم الثانوي، وعمل في ورشة زجاج يمتلكها والده ولكن طموحة كان أكبر من عمله فأخذ يتتبع إعلانات الصحف عن الوظائف ويتتبع أخبار التعيينات في كل مكان حتى كان هذا اليوم الذي جاءني فيه بهذه البشرى وحاجة الجيش إلى متطوعين.

صديقي أيمن شخصية لطيفة محبوبة له من الأصدقاء الكثير بما يمتلكه من حلاوة اللسان وطرافة الحديث وليونة الشخصية، فنحن شخصيتان مختلفتان تماما في جميع الصفات،فبقدر ما عرف عني العبوس والنمردة و بدا الكثير من الأصدقاء يتحاشى الحديث معي ومصاحبتي خاصة في الفترة الأخيرة بعدما تعقدت معي الأمور وازدادت خشونتي، بدا أيمن عكس ذلك تماما حتى أنى

كنت أغار أحيانا من الأصدقاء الكثيرين اللذين يحيطون به، ومن قدرته على مجاراتهم في الحديث بنفس سمحة وضحكة لا تفارق شفتيه حتى وهو في أصعب المواقف، ولكننا مع هذا الاختلاف لم نفارق بعضنا يوما ولم نسمح للظروف أن تفرق بيننا وعشنا معا أصدقاء طفولة وعمر ممتد في هذا الحى الملعون .

نزلت مسرعا لمقابلة أيمن حتى لا نتأخر كثيرا عن موعدنا في اليوم الأول لنا في معسكر التدريب، وبادرني أيمن قائلا:

هل أحضرت معك كافة الأوراق والمستندات المطلوبة.

أجبته بنعم.

-وهل جهزت كل متطلباتك فربما طالت الفترة قبل أن ننزل أجازة أو نخرج من المعسكر.

قلت له:

نعم في حدود ما استطعت.

ركبنا القطار من محطة الزقازيق وبدأ بنا رحلة جديدة وطريق جديد خطيناه سويا ونحن لا نعلم عنه شيء، وبدا كل منا شارد يفكر في المصير المجهول الذي ينتظره والحياة الجديدة التي سوف نحياها منذ الآن بعد أن سعينا بإرادتنا لتغيير حياتنا إلى حياة أخرى تختلف تماما عن سابقتها .

وللمرة الأولى اشعر بدقات قلبي تتسارع بينما القطار يسرع خطاه ويزمجر على قضبان السكة الحديد يسابق الريح تاركا كل الأشياء خلفه وكأنه مارد ضخم قام باختطافنا ويحاول أن ينهي رحلته ويتخلص من حمولته إلى حيث مصيرها المحتوم .

لم أدرى لما يراودني هذا الشعور وكأن قلبي به خواء وقبضة في صدري ورعب بدا يتملكني كلما اقترب القطار من محطة مصر، فقد كانت الفرحة طاغية في الأيام الماضية مع علمي بيوم التدريب وكنت أجد في نفسي الزهو والفخر وتتملكني العظمة وأنا انقل للناس خبر قبولي في الجيش وتطوعي للخدمة بين صفوفه .

وكم كانت فرحة من في البيت وسعادتهم كبيرة جدا ولا انسي شقيقتي حنان عندما جاءتني بعد ظهور النتيجة وقالت لي،هكذا تحقق حلمك، وهذا هو مكانك المناسب، فقد خُلقت قائدا، والجيش سوف يؤكد فيك هذه الصفة وسوف تكون من أشجع القادة وأنجحهم، وسوف تنال ترقياتك سريعا وتصل إلى أعلى المراتب في مدة وجيزة،يومها رددت عليها بكل زهو،نعم حنان وهذا ما كنت أسعى إليه والحمد لله أنى وجدت الطريق السليم الذي يمكنني من خلاله أن أحقق طموحاتي وأمنياتي،ولا تخشين شيء حبيبتي سأواصل معكِ ومع أخوتي الطريق وسوف تنالين شهادتكِ الجامعية وتعملين صحفية كما أردتِ دائما، ولن أبخل عليكم بشيء فالجميع لابد أن يحصل على تعليمه وترتاح والدتنا من حسابات المعاش القليل ومصاريف الحياة الصعبة .

نعم يا أخي إن حلم حياتي أن أمارس هوايتي في الكتابة واضعها موضع التنفيذ وتنشر لي مقالاتي وأخباري الصحفية في كبريات الصحف المصرية، انه حلم من الأحلام ربما يتحقق وربما لا يجد النور.

إنشاء الله سوف تتحقق أمانينا جميعا ونصل إلى ما نبغاه وماكان والدنا يتمناه لنا،أنى اشعر بالتفاؤل وأن الأيام القادمة تحمل لنا الخير والهناء .

ولا انسي في هذا السياق فرحة والدتي وشقيقتاي صفاء وسحر، وكيف أخذن يضربن لى تعظيم سلام بأيديهن الصغيرة وهن يدرن حولي ويقدمون لي طلباتهم المتواضعة "حلاوة قبولي بالجيش "،وكذلك فرحة شقيقي احمد وهو ينظر لي بكل فخر وإكبار و يمسك بذراعي ويقول لي آن الأوان أن نفتخر بك ونزهو أمام الأهل والأقارب خاصة عندما ترتدي الزى العسكري وتسير به في الحي والجميع يقف ينظر إليك وأنت في هذه الهيئة المهيبة .

وصل بنا القطار إلى محطة "باب الحديد "في القاهرة،غادرناها وسرنا مسرعين إلى مكان الباص الذي سوف يقلنا إلى المعسكر وهو لا يبتعد كثيرا عن محطة القطار، انتظرنا حوالي نصف الساعة حتى وصل الباص وبدا مزدحما بالناس من مختلف الأعمار والفئات، وكان أكثر ركابه من جنود الجيش بالزى الخاص بهم، وأدركت على الفور أنهم ذاهبون إلى احد المعسكرات في المنطقة التي نقصدها حيث ينتشر بها عدد من مراكز التدريب،انحشرت أنا وأيمن بين الركاب وسار بنا الباص أكثر من نصف ساعة من الزمن حتى وصل بنا إلى مكان المعسكر،

ترجلنا سوياً للوصول إلى بوابة المعسكر ومع كل خطوة تقربنا منه تزداد دقات قلبي وأكاد اسمع دقات قلب أيمن وكأنه يستعد للقفز من صدره، ويسيطر علينا خوف مجهول لا نستطيع دفعه عن أنفسنا .

ما أن وصلنا إلى المعسكر وسلمنا أنفسنا حتى تلقفتنا الأيدي بسرعة كبيرة لم تترك لنا مجالا حتى أن نستكشف المكان والعنابر الكثيرة المتواجدة على أرضه،

صدرت إلينا أوامر نافذة بالجمع في طوابير طويلة وأعقبها عدة أوامر متلاحقة لحلاقة رؤوسنا حلاقة "زيرو"، ثم تسليمنا الصرفية الخاصة بنا من سترات و بيادات ميرى وملابس داخلية وغير ذلك من مستلزماتنا اليومية .

بعد حوالي نصف الساعة تم النداء علينا وجُمعنا في صفوف وصدرت لنا التعليمات ببرنامج عمل اليوم و مواعيد الإفطار والغداء والبرنامج التدريبي الخاص بكل مجموعة بعد تقسيمنا إلى عدة مجموعات، واسم المُعلم الخاص بكل مجموعة وعنبر النوم الخاص بهم، الخ الخ.

تم ذلك كله بسرعة كبيرة وخطوات متلاحقة لم تعطينا الوقت أو الفرصة حتى لاستيعاب ما نحن فيه وكأننا تروس في آلة تدار حتى تنجز العمل المكلفة بها دون أن يكون لها حق الاستفسار أو الاختيار .

أدركت منذ اللحظة الأولى أني اخترت المكان الخطأ بالنسبة لي وأن أيامي لن يستقيم حالها ولن استطيع التكيف مع هذا الوضع العسكري المتشدد الذي لا يتيح للفرد مجرد التفكير فيما آل إليه حاله .

ذهبنا إلى المبيت بعد عشاء يوما صعب قاسية أحداثه على نفوسنا بأحكام وتعليمات لم نعتادها في حياتنا الملكية، وما أن التقيت بصديقي أيمن حتى أمسكت به وكأني التقيت أهلي جميعا وكادت العبرات تقفز من عيني وأنا اشد على يديه وأقول له، ما الذي فعلناه بأنفسنا يا أيمن وهل كنت تتوقع هذا الأمر ؟

كنت اعرف القليل عن العسكرية والضبط والربط ولكني لم أكن أتخيل أن الأمور قاسية هكذا.

وماذا سوف نفعل الآن أنى لن استطيع أن استمر في هذا الوضع ؟

ليس أمامنا خيار فسوف نستمر إلى أن نرى الأمور إلى أين تسير بنا .

لقد القينا بأنفسنا إلى التهلكة يا أيمن،اشعر أنه قد ألقي بنا في بحر الظلمات وأننا فقدنا هويتنا وحياتنا وأصبحنا مجرد هياكل تحركها أوامر وقواعد لا نستطيع أن نحيد عنها، وبينما هما يتناجيان سمعا صوتا جهورياً في أول العنبر يأمر الجميع بالكف عن الحديث والنوم حتى يمكنهم الاستيقاظ قبل الفجر لبداية يومهم وتدريباته، ويأمر الجميع بالاستجابة الفورية للأمر وإلا،

سكت الجميع وأغلقوا عيونهم ليستغرقوا في سبات عميق ويخلدوا إلى النوم بعد ما أصابهم في يومهم هذا جهد وشقاء لم يعتادوه في حياتهم السابقة .

قبل أن يشقشق الفجر قام طارق مفزوعا على صوت بوق يعلن نوبة الصحيان ليجد جميع زملاءه وقد هبوا مذعورين كلاً يحاول أن يرتدي ملابسه بأسرع

مـايمكن ويسـتعد للخـروج مـن العنبر والانتظـام في طـابور الإفطـار الصـباحي، ومـاهي إلا دقـائق معـدودة حتى كـان الجميـع متراص في صـفوف أمـام "مـيس "الإفطار، استعدادا للدخول صفا وراء صف والتراص حول طاولات الإفطار، وبسـرعة انتهى الجميع مـن تنـاول إفطـارهم واصـطفوا مـرة أخـرى في صـفوف استعدادا للقيـام بريـاضـة الجـري التي اسـتغرقت أكثر من سـاعة من الوقت، ليعودوا مرة أخرى للانتظام في طوابير الخطوة المعتادة والسير واللف في أرض المعسكر لمدة تماثل ما قضوه في رياضة الجري،ثم يحصلوا بعد ذلك على راحة قصـيرة يسـتريحوا فيهـا مـن عنـاء مـا بـذلوه مـن جهـد،و تبـدأ التـدريبات والمحاضرات العسكرية ويتلقفهم معلمون من ضباط وصف ضباط يعلمونهم ويدربونهم ويغرسـون في أنفسـهم الخشـونة والقـوة والحيـاة العسـكرية الجامـدة حتى يحولـوهم تـدريجيا عـن حيـاتهم الملكيـة التي اعتادوهـا إلى حيـاة عسـكرية تختلف تماما في جميع جوانبها، ويستمر بهم الحال هكذا من تدريب إلى تدريب ومـن محاضـرة إلى محاضـرة حتى موعـد العشـاء فيـذهب الجميـع إلى النـوم ليعاودوا برنامجهم مع فجر اليوم التالي .

اسـتمر بهـم الحـال هكـذا حتى انتهـت فترة التـدريب وحصـلوا على مـا يـؤهلهم للالتحـاق بكتـائبهم ووحـداتهم التي سـوف يخـدمون بهـا ويبـدأون معهـا حيـاتهم العسـكرية،ولم تمضـي هـذه الفترة بسـلام كامـل مـع طارق،فقـد قـاده تمـرده وشخصيته العنيـدة إلى بعـض المخالفـات والعصيان لـبعض الأوامر ممـا عرضـه لعقوبات نالت منه ووضعت في ملف خدمته .

جلس طارق مع نفسه وهو ينتظر تصريح الخروج للقيام بإجازة قبل التوزيع إلى الفرق التي سوف يلتحقون بها ووضع يده على رأسه وهو لا يكاد يصدق انه سوف يرى "الملكية "مرة أخرى ويجلس بين إخوته وأمه ويرى حي الملاعين الذي افتقده وافتقد كل من فيه، استقبله أهل الحي استقبال الأبطال مع صديقه أيمن، وقد ارتدى كل منهما البذلة الميرى الخاصة بالإجازات وزينت الشارات العسكرية كتفيهما مع تلون وجههما باللون البرونزي من ضربة الشمس لهما أيام التدريبات الصعبة، فبدوا وكأنهما من جنود الفتح بقوتهم وعزيمتهم، وكانت فرحة اللقاء مع أمه وإخوته لا تعادلها فرحة فقد التفوا حوله واخذوا في تقبيله وتلمس جسده وبذلته العسكرية في فرحة غامرة وزهو غير خافي بما صار إليه شقيقهم وهيئته المهيبة التي يشار إليها بالبنان .

مشاعر متباينة بدأت تجتاح طارق، وتملكته الحيرة والتخبط، فهو لايكاد يعي ما هو فيه و يرفض هذا الواقع وقد أخذ قراره منذ أن التحق بالتدريب انه لن يستمر طويلا في هذه الحياة العسكرية التي لا تتواءم معه فطبيعته المتمردة عادت إليه في صورة رافضة لهذه الحياة التي تُسيرها أوامر من الجميع وعليه التنفيذ بلا تخاذل أو بطىء، وهو الذي قد أخذه خياله بعيدا وصوره قائدا مغوارا وأطلق له العنان في رسم الخطط وإعطاء الأوامر وعلى الجميع حق الطاعة والتلبية ، غير انه بعد هذا الاستقبال الحافل من أهل الحى وأسرته وإكبار الجميع له والاحترام الكبير الذي قوبل به بصورة أرضت بعض غروره جعلته يعيد تفكيره مرة أخرى محاولا تقييم الموقف وإرجاء الحكم والقرار الذي سوف يتخذه إلى ما بعد التحاقه بالعمل الذي سوف يوكل إليه داخل الكتيبة أو الوحدة العسكرية، وهذا أيضا هو ما أشار به عليه صديقه أيمن عندما

تحدثا سويا وأعرب له عن قراره بعدم الاستمرار في تلك الحياة الحاكمة والمكبلة للحريات والطاقات .

قضى طارق أسبوعا إجازة بين أهله وعشيرته وكأنه بُعث ودخل جنة رضوان حتى انه عندما حانت ساعة الرحيل عاودته نفس المشاعر والأحاسيس التي تكاد أن تورده الهلاك من الخوف والرعب الذي يجتاحه من تلك الحياة التي لايجد نفسه فيها وتكاد أن تدمي قلبه بقيدها، عاد طارق وأيمن إلى المعسكر واصطفا في صفوفه وبدأ النداء لتوزيع الخريجين على وحداتهم ومناطق خدمتهم، ووضع الجميع أيديهم على قلوبهم خشية بُعد المكان المرشحين إليه أو صعوبة الكتائب التي سوف يلتحقون بها، ووقف الجميع وكأنه يوم الحشر كلاُ مشغول بنفسه وفي انتظار سماع أسمه من بين الناجين أم من أهل النار اقصد الأماكن البعيدة عن العمران أو المتطرفة على الحدود، وقف طارق ينتظر ويكاد قلبه أن يتوقف كلما اقترب النداء على اسمه، وتكاد عينيه أن تخرجا من مقلتيهما وهو يتطلع إلى كشوف الأسماء بيد القائد، وما هى إلا لحظات حتى نودي أسمه ومنطقة خدمته، وسرعان ما شعر بدوار وأن الدماء تكاد تتدفق من رأسه والأرض تميد تحت قدميه وكاد أن يطلق صرخة مدوية غير أنه كتم ما بداخلة من أحزان وآلام وترك للدموع مساحة أن تعبر عما تجيش به نفسه بعد أن علم أن مكان خدمته في أبعد مكان يمكن أن يخدم به جندي مصري وهو على الحدود بيننا وبين دولة عربية أخرى، وكان قد سمع الكثير عن وعورة هذه المنطقة والأيام التعيسة التي تنتظر من يخدم فيها،والحياة العسكرية الصارمة التي يعيشها جميع الجنود هناك،وكذلك ندرة الأجازات التي يحصل عليها العاملون بهذا المكان نظرا لبعد المسافة ولطبيعة

التدريبات المستمرة والمشاريع التي لا تتوقف، نما إلى علم طارق وجهة صديقه أيمن والمكان الذي تم توزيعه إليه، وعرف أنه يقع على مسافة قريبة بالقرب من إحدى المحافظات القريبة من القاهرة، ويستطيع أن يكون في بلده في خلال ساعة على الأكثر إذا أراد ذلك، زاد ذلك من حنق طارق واستيقن في نفسه أن السبب الرئيسي الذي جعل قادته يزجون به إلى صحراء الحدود يرجع لعدم انتظامه الكامل خلال فترة التدريب وعدم رضاء المعلمين عليه لما بدر منه من تمرد أحيانا ومحاولة التهرب من الخدمات والطوابير بادعاء المرض أو بغير ذلك من الأعذار الواهية، بل وصل به الأمر في بعض المرات إلى رفض إطاعة الأوامر الصادرة إليه مما عرضه للحبس والحرمان من الإجازات عده مرات وأُخذ عليه سوء خُلقه وعدم انتظامه وإطاعة الأوامر ،استيقن طارق ذلك في نفسه وشعر بمرارة في حلقه من الأيام القاحلة التي تنتظره وبدأ يجد ريحها قبل أن يخطو إليها بمسافات طويلة .

"٣ "

وصلت الكتيبة صباح اليوم التالي بعد رحلة شقاء وعناء عانيت فيها الأمرين وأصابني من الجهد البدني ما أصابني، غير أن ما شق على نفسي هو ما شعرت به من عجز وانكسار وقيد جديد يحيط عنقي ويمنعني من الانطلاق الذي كنت أبغي أن يتحقق بعد فترة تدريب عصيبة عشتها وتمنيت بعدها أن تمحي الأيام القادمة ما قاسيته خلال هذه الفترة خاصة أن مدة خدمتي سوف تستمر في هذا المكان لسنوات طويلة قبل أن انتقل إلى مكان آخر، بل ربما تستمر إلى أن يقضى العمر وأنا في هذه الصحراء القاحلة والحياة البائسة والأوامر المتلاحقة،يا له من حظ بائس ذلك الذي يلاحقني ولا أجد من قسوته فرار.

استقبلني قائد الكتيبة في مكتبه قائلاً:

- إن ملفك أمامي ويتضح منه عدم انضباطك وبه تقارير عن عدم إطاعتك الأوامر وسوء سلوكك العسكري الذي عرضك لبعض الجزاءات في معسكر التدريب .

أجبته:

- تمام يا فندم

لك أن تعلم أن كتيبتنا هى كتيبة الإصلاح والتهذيب ولا يأتينا أحد إلا ويتعلم الانضباط والانقياد للأوامر.

- تمام يافندم

- أن كنت لاتعلم من هو الرائد لبيب فلك أن تسأل عني حتى تدرك أى حظ أسود رمى بك هنا،

- تمام يافندم

- تعودت دائما أن أُنحي التقارير جانبا وأجرب الرجال الجدد اللذين يأتون إلى كتيبتي لأرى بنفسي مدى انضباطهم من عدمه فإن صلحوا كان خيرا لهم، وإن لم يصلحوا فعلى أنفسهم جنوا ولا يلومن غير أنفسهم.

- تمام يافندم

نظر نظرة حادة إلى الضابط الذي جاء بي إليه وأصدر له أمرا قاطعا:

- ملازم على

- تمام يا فندم

- يلحق بالسرية الأولى مع الملازم أول عبد العظيم

- تمام يا فندم .

أدينا سويا التحية العسكرية لقائد الكتيبة واستدرنا للخلف وانطلقنا إلى السرية الأولى دون أن ينبس الملازم على ببنت كلمة .

أدركت من فوري أي مستقبل ينتظرني في هذه الكتيبة، ومن نبرة صوت قائد الكتيبة استطعت أن أميز لماذا السرية الأولى والضابط عبد العظيم،وقد صدق حدسي بعدما علمت أن هذه السرية لا يلتحق بها إلا المغضوب عليهم لما

يتميز به الضابط عبد العظيم من قسوة في التعامل وانضباط كامل، وقد علمت لاحقاً أن الضابط عبد العظيم قد تخطته الترقية أكثر من مرة لاندفاعه وتهوره في تعامله مع الصف ضباط والجنود وتمرده الدائم وحنقه على الوضع الذي يوجد به مما يجعله دائما في حالة مزاجية صعبة يحاول أن يتخلص منها بالقسوة المبالغة والتشدد في المعاملة وإصدار الأوامر والعقاب الجماعي لأقل خطأ يحدث بين أفراد سريته .

نظر لي النقيب عبد العظيم وهذا ما كان يناديه به الجنود وصف الضباط عوضا عن تأخر ترقيته حيث أن زملائه قاربوا على الترقية إلى رتبه رائد وما زال هو قابع في رتبته الصغيرة،نظر نظرة طويلة وتأملني جيدا وأمر الملازم أحمد أن يصطحبني لمكان خدمتي ويقوم معي بدور الدليل لمعرفة الأعمال المكلف بها والمناطق المطلوب حراستها وكيفية أداء العمل، واستلام السلاح الخاص وغير ذلك من المعلومات المطلوبة لبدء العمل بصورة فورية فلا مجال هنا للراحة أو التسويف .

علمت فيما بعد أن الضابط أحمد من ضباط الاحتياط وهم خريجي الجامعة اللذين يلتحقون بالجيش فيقضون مدة تجنيدهم ضباط يتم توزيعهم على وحدات الجيش المختلفة للخدمة بها،وعادة ما نفرق بين الضابط العامل خريج الكلية الحربية الذي التحق بها ليصير ضابط بالقوات المسلحة،وبين ضابط الاحتياط، فالثاني عادة يحاول أن يقضي مدة خدمته على خير ولا يحدوه أمل في ترقية أو منصب ولا يشغل باله أن يبني تاريخا في مكانه فهو يدرك أنها فترة من الزمن يقضيها ويترك مكانه ليلتحق بعمله المدني بعد ذلك،ولذلك غالبا ما

ينجذب إليه الجنود ويجدوا فيه الصديق والأخ خاصة وان كان بهم حملة مؤهلات عليا فهم يرونه زميلا لهم وصديقا قاده حظه إلى موقع المسئولية فيحاولون التقرب والتودد إليه عله يخدمهم في بعض الأمور الصغيرة أو يزيح عنهم عقاب أوقعتهم فيه الظروف .

حاول الملازم أحمد أن يكون لطيف معي بعض الشيء ويتبادل معي الحديث بطريقة ودية، أخذ يشرح لي ويوضح ماخفي على وما التبس فهمه في طبيعة عمل الكتيبة وما يقع على عاتق سريتنا وطبيعة التعامل بين أفرادها والضباط القائمين على رأسها وكذلك صف الضباط ومهامهم وأعداد الجنود ووظائف كل منهم بطريقة تفصيلية،وبقدر ما شعرت في نبرة صوته بشيء من التفاؤل بعد عدة أيام لم أتذوق فيها سوى مرارة اليأس، إلا أنى أدركت على الفور لمحة الحزن واليأس في عينيه عندما سألته عن الإجازات ونظام الخدمات و التشدد في تنفيذ الأوامر العسكرية ، لم أكن بحاجة إلى أن يجيبني، فقد كنت من الذكاء بحيث أدرك الإجابة وأن لم ينطق بها .

منذ اليوم الأول لالتحاقي بالكتيبة ظهرت بوادر التمردة على شخصيتي وأدركت أنني لن استمر طويلا فأنا لم أخلق لهذه الحياة، فالجيش له رجاله وضباطه وجنوده ولكنى لم أخلق لهذه الحياة متسلسلة الأوامر، وطبيعتي تجافي تلك الحياة التي لن استطيع التأقلم معها، ولذلك تركت نفسي على سجيتها ولم أشاء أن أتقيد بشيء وتمردت كثيرا على القادة وكسرت كثير من الأوامر التي وجهت إلى، وكنت أهرب من نفسي كثيرا بالقسوة على الجنود الذين تحت

إمرتي حتى باتوا يخشون مجرد رؤيتي وتجنب الجميع الخدمة معي والتعرض لأوامري .

حاولت أن انشغل وأتناسى آمالي وطموحاتي واندمج في حياة العسكرية فتقمصت دور القائد وصار صوتي مسموع في الكتيبة واسمي يرعد الكثيرين حتى أن بعض الضباط كانوا يخشون إصدار الأوامر لي أو محاولة تكليفي ببعض المهام .

زاد الاحتقان بيني وبين قائد السرية النقيب عبد العظيم فقد كان هو الأخر ممن يمتلكون روح التمرد وله من قوة الشخصية والقسوة الكثير فكنا على خلاف دائم ويحاول كلانا فرض سطوته وإظهار أنه الأقوى والأشد شكيمة،وكان له الغلبة دائما لما يميزه من رتبة أعلى وقيادة السرية وكلمته المسموعة عند قائد الكتيبة، ودائما ما كنت أكظم غيظي وأخضع لأوامره واستجيب لمطالبه واشعر بانكسار داخلي، فكلانا قائد في ذاته ونمتلك ذات المقومات وروح التحدي تتملكنا سويا غير أن الجيش أعطى له الغلبة بالرتب التي تزين أكتافه .

حاولت في بداية خدمتي أن أتقدم باستقالتي أكثر من مرة، غير أنى علمت مؤخرا أنه لا يحق لي ذلك إلا بعد الخدمة عدد من السنين يحددها القانون العسكري وهو ما لم يتاح لي بعد، فاستسلمت لقدري وحاولت أن أتعايش مع هذا الوضع بقدر المستطاع .

ذاع صيتي بين الكتائب المجاورة وأصبح مجرد ذكر اسمي "بعبع "يخيف القاصي والداني، ويعمل الجميع على تحاشي مواجهتي أو الوقوف في طريقي،وكانت نتيجة ذلك أن امتلأ الملف الخاص بي بالجزاءات وتقارير ليست في صالحي .

ازدادت المواجهات بيني وبين الضابط عبد العظيم واشتد النفور بيننا، وعمد أن يبعدني دائما عن الكتيبة بأن يوكل لي الحراسة في أماكن تبعد كثيرا عن حدودها، مما أتاح لي التعامل مع المهربين من عتاة الإجرام ممن يحاولون تهريب المخدرات والسلاح من الدول المجاورة عبر حدودنا، وكم من مرات قبضنا على الكثير منهم، وتبادلنا إطلاق النار في عدة مواقع وأسقطنا منهم الكثير بين قتيل وجريح، حتى أنه نما إلى علمي أنى أصبحت مطلوب بالاسم من زعمائهم بضرورة تصفيتي والخلاص مني لما عانوه من بأس وشدة في مقاومة صبيانهم ورجالهم مما سبب لهم خسائر جمة في الأموال والرجال على مدار السنوات السبع التي قضيتها في الكتيبة حتى صرت أحفظ برامجهم ومحاولاتهم رأسا على عقب وكلما أرادوا القيام بإحدى عملياتهم يجدوني في طريقهم أغلق عليهم الأبواب وأفشل مخططهم حتى تملكهم اليأس وبت هدفا ثمينا لهم على استعداد أن يدفعوا الغالي والنفيس للخلاص منه .

زادت الثقة في نفسي خلال مدة خدمتي في الكتيبة وتملكني الغرور مع النجاحات التي أحققها في مواجهة عصابات التهريب وتململت نفسي المتمردة وتشبعت بروح القيادة حتى أنى كنت أجد في نفسي القائد الذي لا يبارى، مع مرور الأيام امتلأ ملف خدمتي بالجزاءات بعد تعمدي عدم تنفيذ الأوامر خاصة

الصادرة من الرائد عبد العظيم بعد أن حصل على ترقيته خلال هذه الفترة، وتصادمنا كثيرا وشهدت الكتيبة بيننا مشاحنات وصل الكثير منها إلى قائد الفرقة حتى جاء اليوم الذي رفضت فيه تنفيذ أمر من أوامره،فاستشاط غضبا وحاول دفعي بيديه، ومع ما أحمله له من كره وضغينة طوال السنوات الماضية لم أدري بنفسي إلا وأنا أرفع عليه السلاح وأهدده بالسلاح الأبيض بالبندقية، بل أنى قد اندفعت نحوه محاولا تنفيذ تهديدي لولا تدخل الضباط والجنود اللذين حالوا بيني وبينه .

وكانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير حيث تم إحالتي لمحاكمة عسكرية أصدرت حكمها بإنهاء خدمتي من الجيش، وهكذا في يوم وليلة وجدت نفسي وقد سُرحت من الجيش وسريعا سريعا أنهيت الإجراءات وعدت مرة أخرى إلى حى الملاعين .

" ٤ "

تغيرت أحوال أسرة طارق كثيرا خلال السنوات التي قضاها في خدمة الجيش، فقد استطاعت حنان اجتياز سنوات الدراسة بكلية الإعلام بنجاح وفضلت الالتحاق بالعمل صحفية في إحدى الصحف الإقليمية الصغيرة بمحافظتها،واستطاعت بقوة شخصيتها وعملها الدؤوب أن تكون في الصدارة دائما،ونالت مواضيعها الجادة استحسان القارئ وجعلت لها جمهور كبير ينتظر كتابتها ومعالجتها للازمات والأمور التي تهم المجتمع،وقد أعطى لها هذا النجاح ثقة كبيرة في عملها وجعلها تحاول جاهدة اقتناص المواضيع الهامة التي تخدم أكبر عدد في مجتمع محافظتها حتى أنها في بضع سنين قليلة أصبحت إحدى علامات الصحافة المحلية، وأصبح قلمها سلاح الضعفاء والمغبونين،وبات يخشاه كبار المسئولين ويعملون له ألف حساب .

استمرت حنان تدافع عن الفقراء والمحتاجين، وتهاجم أصحاب الصفوة ممن لايهمهم سوى مصلحتهم حتى وإن كانت على حساب المواطن المسكين،وبعد عدة تحقيقات صحفية وجدت حنان نفسها في كتابة المقالات التحليلية التي عن طريقها تستطيع أن تقول كلمتها وتعبر عن اتجاهاتها بكل حرية دون خوف أو رهبة .

كان لهذه المقالات صدى حسن عند أصحاب الرأي والكلمة، وقد أتاحت لها الظروف فرصة أن تنتقل إلى كبرى الصحف العاملة في القاهرة، وذلك عندما زار رئيس تحرير هذه الصحيفة مقر صحيفتها الإقليمية التي تعمل بها، وطلب لقاء الكاتبة التي كتبت عدة مقالات كان يحتفظ بعنوانيها معه،وبعد لقاء قصير

طلب منها إن لم تمانع في الانضمام لصحيفته الكبرى ضمن طاقم المحررين ووعدها بالمكانة المميزة والنجاح الذي تستحقه .

كان هذا العرض بمثابة الحلم الذي تحقق دون أن تسعى له وإن كانت تتمنى حدوثه، فقد تلقفت هذا العرض وأعدت حالها للسفر إلى القاهرة للعمل في هذه الصحيفة العريقة التي تعد الحلم الأكبر لمحرري الأقاليم والانطلاقة الكبرى لمن يعمل في أروقتها، لاقى قرار حنان السفر إلى القاهرة معارضة شديدة من أسرتها خاصة والدتها وأخوها طارق، وكانت هذه المعارضة راجعة لخوفهما عليها ولتجنبها الصعاب التي من المنتظر أن تلاقيها في غربتها وهى وحيدة في العاصمة المزدحمة،ولكن الحلم الذي تملكها أعطاها قوة جعلتها تقف كالجبل تعارض وتفند وتدحض الحجج حتى استطاعت في النهاية أن تنتصر لفكرتها ويستقر لها الأمر وتغادر بلدتها إلى سماء الانطلاق والنجاح والشهرة التي طالما داعبت جفونها وأحلامها .

استطاعت حنان خلال فترة وجيزة من عملها بالصحيفة أن تنال احترام زملائها وتكسب ثقتهم،وأعطتها جرأتها في تناول الموضوعات الصحفية وكتابة التقارير الصحفية ميزة أعلت من قدرها وجعلتها في مصاف الكتاب المميزين اللذين تعتمد الصحيفة على كتاباتهم ومقالاتهم في جذب اكبر عدد من الجمهور والقراء .

ولكن على الجانب الآخر فقد جلبت عليها صراحتها وخوضها في بعض الأمور الوعرة التي ترتبط بأصحاب أعمال ومسئولين بعض المتاعب التي كانت أحيانا تعرقل من مسيرتها، وأحيانا أخرى تجلب لها بعض نصائح رئيس التحرير التي

تصل أحيانا إلى التهديد بإيقاف بعض المقالات التي تتعارض مع مصالح الصحيفة أو يرى ما لاتراه أعين صحفية مازالت على الطريق وربما تأخذها الحماسة دون إدراك العواقب في بعض الأمور .

استمر الحال هكذا مع حنان تتقلب في معارك صاحبة الجلالة الصحفية،وتكتب وتفضح الفساد والمفسدين حتى ذاع صيتها ووثق القارئ في قلمها وأصبح لها جمهور كبير ينتظر مقالاتها التي تقابل بمناقشات كثيرة بين مؤيد وهم الكثرة ومعارض ممن يجدوا في هذه المقالات خطورة على أعمالهم ومشاريعهم فيحاولوا بكل ما أوتوا من قوة مهاجمتها وكسر قلمها، ولكن هيهات هيهات، فقد اشتد عود هذا القلم وأصبح بوق الغلابة من الناس يتكلم باسمهم ويصرخ في وجه من أفسد،وأخذ قلمها قوته من هذا الجمع الكبير الذي لم يجد مدافع عنه وعن قوت أولاده سوي أقلام من وهبوا أنفسهم وكتاباتهم للدفاع عنهم .

أدركت حنان أن قوتها الحقيقة تكمن في جمهورها الذي يلتف حولها ويقف بجانبها ويشد من أزرها في المكائد التي تتعرض لها،غير أنها لم تدرك أن السياسة والثروة لهما مخالب يمكنها أن تمزق بل وتقتل أذا ما شعرت بخطر حقيقي يحدق بهما، وهذا هو ما حاول رئيس التحرير أن يوضحه لها ويلفت نظرها إليه، غير أنها اندفعت بكل قوتها تحارب طيور الظلام التي انتشرت في سماء المجتمع المصري تهدم اقتصاده وتفسد حياته وتُهمش الغالبية العظمى من أهله وتلقي بهم بين أحضان الفقر و براثن الجوع والحرمان .

حتى جاء اليوم الذي طلبها فيه رئيس التحرير وقابلها بوجه متجهم وبكلمات مقتضبة وخاطبها قائلاً:

- حنان لطالما حذرتك من الاندفاع في كتاباتك ومهاجمة أصحاب الثروات وممن يمتلكون في أيديهم السلطة ولهم تأثير ونفوذ واسع، غير انك لم تكترثي لكلامي وأخذتك الحمية حتى انزلقت قدماك إلى مالا يحمد عقباه .

- أستاذ حسين اشتم في كلامك رائحة حادث جلل قد وقع،

- نعم يبدو هذا وهو ما سبق وحذرتك من وقوعه.

. ماذا حدث بالله عليك فأنا قد اعتدت المتاعب والصعاب ولكن يبدو أن ما تخفيه قد فاق ما اعتدته بكثير.

- حنان، لقد تسلمت صباح اليوم هذا التسجيل بصوتك وفيه تطلبين رشوة من أحد الاقتصاديين الكبار في سبيل عدم نشر تحقيق يمس صناعته وأعماله،وهو يهدد أنه سوف يقدم بلاغ للنائب العام بهذا الأمر للتحقيق فيه، وتعلمين ما سوف يترتب على ذلك من آثار سيئة على الصحيفة وما سوف ينال سمعتك وتاريخك وربما يؤدي لسجنك وتكون نهايتك خلف القضبان،

طلبت من الأستاذ حسين سماع نص التسجيل بعد فترة صمت بيننا حاولت فيها استيعاب الأمر.

أسقط في يدي وأنا استمع إلى كلمات نطقت بها في حديث سابق وأجريته مع هذا الاقتصادي الكبير صاحب النفوذ والسطوة لدى الحكومة، غير أنها قد

اجتزأت من السياق وأعيد صياغتها بطريقة احترافية لتشكل حديث غير الذي تحدثت به وطلبات غير التي طلبتها ولينتهي الحال بهذه الكلمات التي تُدينني بكل صراحة وتلف حبل الاتهام حول رقبتي بعد أن تم ترتيبها بإحكام وحرفية عالية .

للمرة الأولى منذ التحاقي بالصحافة أجدني عاجزة عن فعل شيء وقد تملكني خوف حقيقي،نظرت للأستاذ حسين نظرات يملؤها الرعب متسائلة عما يمكن أن يحدث في هذا المأزق الذي من شأنه أن يقضى على مستقبلي المهني والإنساني بل ويزج بي خلف القضبان، نظر لي الأستاذ حسين رئيس التحرير ، وقبل أن أنطق قال لي، أنا أعرف أن هذا الاتهام ملفق وأن هذا ردهم عليكِ بعد نشر المقالات التي حاولتي فيها فضح أعمالهم والتشهير بمفاسدهم، ولكن هذا ما أنا وأنتِ نعلمه، ولكن ماذا عن القراء والنيابة والقانون، أننا حقا أمام مشكلة عويصة، ويجب أن نفكر مليا وبهدوء وتروى حتى نصل إلى حل لهذه المشكلة .

ترقرقت بعض الدموع في عيني بعدما أدركت أنى وقعت فريسة لذئاب مفترسة لا ترحم،وأنهم الآن بيدهم الأمر والنهي في مستقبلي وحياتي،وطلبت من الأستاذ حسين أن يمهلني بعض الوقت لمحاولة استيعاب الموقف ولملمة أفكاري بعد هذه الضربة الموجعة التي لا أعلم إلى أي مدى سوف تصيب وتوجع.

أدرك الأستاذ حسين ما يعتمل في نفسي، فطلب منى التفكير بهدوء ومحاولة إيجاد حل مع هؤلاء المتنمرين، وطمأنني بعض الشيء أن الأمور ربما لاتصل إلى منتهاها إذا ما اتصلنا بهم وحاولنا استرضاؤهم وتسوية الأمر معهم والوصول إلى

حـل يرضـي جميـع الإطراف،وقـال،أنهم مـافعلوا ذلـك إلا اتقـاء قلمـك ومحاولـة أبعـادك عـن ملعبهم حتى يُفسَح المجـال أمام مصالحهم وفسـادهم ليتوغـل دون رادع .

تمتمت ببعض الكلمات التي تعبر عن موافقتي وجهة نظره وخرجت من مكتبه لا أنوي على شيء وقد أصبحت الحياة ضبابية في وجهي .

اتجهت حنان مباشرة إلى محطة "باب الحديد" واستقلت أول قطار واتجهت إلى محافظة الشرقية حيث أسرتها وعائلتها علها تجد عندهم بعض الدفء الذي يعيد لها هدوئها وتماسكها ويزيل عنها تلك البرودة التي اجتاحت جسدها كله بعد استماعها إلى هذا التسجيل المريب، وما أن التقت بوالدتها حتى ألقت بنفسها في أحضانها تلتمس بعض القوة التي تعينها على استيعاب تلك المصيبة الكبرى التي تقف على مشارفها .

أدرك طارق عند رؤيته حنان أن خطب جلل قد وقع لها، فهو يعرفها جيدا ويعلم ردود أفعالها وتربطه بها حاسة خفية تجعله يشعر بها حتى وإن لم تنطق بكلمة،

بادرها طارق متسائلا عن مصابها:

- ماذا حدث حنان، طمئنيني،أراكِ في حالة غير حالتك، وهيئة لم نعتادها

لاشيء يا أخي.

- ولكنى أراكِ في غير أحوالك الطبيعية وأنا أعرفك جيدا، هناك خطب قد حدث لكِ حدثينا عنه.

- نعم يا طارق ولهذا أنا جئت اليوم لأحتمي بكم ونفكر سوياً ماذا عساى أن افعل.

- لا عليكِ حنان أنا معكِ، أسردي لي ما حدث ولا تخفي شيء، وتأكدي أني لن أتركِكِ وحدكِ مهما كلفني الأمر.

- اعلم ذلك تماما يا طارق، وان كنت أشفق عليك فأنا أعلم الحال الذي أنت عليه وفقدانك عملك في الجيش وتأثير ذلك عليك، وما كنت أحب أن أضيف إليك هماً جديداً على همومك الكثيرة.

- لا عليكِ حنان،سأسوي أموري فأنا أعرف ما يمكنني فعله، المهم هو مشكلتك التي جئتي بها الآن، ماذا حدث حنان،تحدثي بالتفصيل.

تغير وجه طارق بعد أن استمع من حنان إلى المشكلة التي تواجهها فقد أدرك أن المصيبة جلل وأطرافها هم من صفوة القوم وتم إحكامها وتدبيرها بإتقان ومهارة كبيرة، فقد كان يظن أن ما أتت به حنان مشكلة مع إحدى زميلاتها أو مع رئيس التحرير يمكن تجاوزها وحلها، أو قد تكون أبعد من ذلك حتى وان كانت ترك العمل بالصحيفة وهو أخر ما قد ذهب إليه فكره، غير انه لم يصل بخياله إلى أن أخته تواجه السجن والإطاحة بمستقبلها وحياتها،

،أشعل طارق سيجارته وأخذ ينفخ دخانها بطريقة عصبية لم تخلوا من ضيق وإحساس بعدم الحيلة،

صرخت الأم وضربت صدرها وهى تستمع إلى حنان وقد أدركت حجم البلاء الذي أحاط بهم، وأخذت تولول بعدما قرأت وقع المصيبة في وجه طارق، وهو ما كانت تعده الصخرة القوية التي تنكسر عليها جميع همومهم، فقد أدركت الآن أن مشكلة حنان فاقت قدرة طارق على الحل وأن الأمور باتت خارج نطاق السيطرة .

قامت سحر الأخت الصغرى باحتضان حنان وأخذت تبكى على صدرها وقد تلعثم لسانها عن نطق كلمات تواسي بها شقيقتها، فقد أدركت أن المواساة ليست هى الحل الأمثل وان هذا الموقف لايتطلب كلمات تطييب الخواطر بقدر ما يتطلب أيجاد حلول سريعة وفعالة .

أخذ طارق ينظر إلى الفراغ، ويدخن سيجارة وراء سيجارة دون أن ينبس بنبت كلمة، حتى أذا ما استجمع قواه وأخذ وجهه هيئته الحادة التي عرفت عنه،وتحولت عيناه إلى قاذف لهب تحرق من ينظر إليها، هب واقفا ممسكا حنان من يدها قائلا لها:

- هيا بنا إلى الرجل الذي لفق لك هذا الاتهام، واقسم بالله إن لم يتراجع عن فعلته لأقبض رقبته ولن اتركه إلا جثة هامدة،هيا بنا ولا عليك من هذا الهراء وهؤلاء المستقويين على فتاة ضعيفة مثلك،

أمسكت حنان بيد أخيها وقد أدركت أنها أوقعت نفسها في مشكلة أخرى مع أسرتها تضاف إلى مشكلتها الحقيقة،وقالت له:

- أجلس يا طارق ما هكذا تحل الأمور، إن المسألة أكبر من ذلك بكثير وأعمق، ولا بد أن نتحاكم للعقل حتى يمكن تجاوز هذه المحنة والوصول لحل لها،فالرجل الذي تتحدث عنه ليس بمفردة بل هو يمثل عصابة رأسمالية تدار على أعلى مستوى ولها من النفوذ والسلطان داخل أروقة الحكومة وفي كل مكان، ولن يسمح لك حتى بمجرد أن تراه أو تتحدث معه فالطريق إلى مكتبه مليء بالحراس الشداد الكفيلين بدق عظام من يفكر في أذيته أو ألحاق الضرر به .

- أهدأ يا أخي ودعنا نعقل الأمور ونستخدم المنطق والفكر الصائب في حل تلك المشكلة .

أدرك طارق أن خوفه على شقيقته أخرجه عن شعوره وقذف به إلى رد فعل أهوج لم يفكر في نتائجه أو يدرسه بعناية، فقد تمكن منه طبعه الحاد ونخوة الإخوة على اندفاع لم يحسب له حساب، لذلك استمع إلى كلام حنان واخذ في مناقشتها ومحاولة إيجاد بعض الحلول التي ربما تفيد في حل تلك المشكلة،سيطر على طارق شعور الخوف على شقيقته وحاول أن يجد طريقة تنهي هذه المشكلة من أساسها، لذلك طلب من حنان في لهجة آمرة أن تنهي هذا الأمر مع هذا الرجل وتبتعد بمقالاتها وكتاباتها عن ملاحقته هو وزبانيته وتتركهم في حالهم حتى يتركوها في حالها، فهي لن تستطيع أن تحارب إمبراطورية فساد بمفردها، وإذا وقعت لن تجد من يقف معها أو يحميها،

فالخوف من السلطة والنفوذ سوف يسيطر على الجميع ولا يترك مجال لأحد لمساندتها،

قالت له حنان:

- نعم إن ما تفكر فيه ربما ينهي المشكلة وهو ما ألمح اليه رئيس التحرير بعدما أخبرني بحجم المشكلة، ولكن على الناحية الأخرى فأنا قد بدأت سلسلة مقالات ولا بد لي من أن أنهيها، خاصة وأنها لاقت صدى ورد فعل واسع وتجاوب معها رجل الشارع وبعض المسئولين، وفي حال إن تخليت عن الكتابة وفضح المستور سوف يثير ذلك تساؤلات كثيرة حولي وربما أتعرض لاتهامات وأفقد مصداقيتي بين الناس،وبذلك تضيع مهنيتي، هذا بخلاف أنى سوف أكون مطالبة بتوضيح موقفي وأعطاء تفسير منطقي للتوقف عن الكتابة في موضوع الفساد الذي بدأته وهيأت القارئ لانتظار المزيد في المقالات القادمة.

اندفع طارق في صوت حاد:

- نحن الآن لا يهمنا القارئ أو غيره، المهم هو مصلحتك وحياتك، فلن يفيدك القراء ولن تنفعك مقالاتك، ولا داعي للعناد وتصلب الرأي في أمور لا تجلب لك سوى المتاعب ولن تفيدك في شيء بل سيكون ضررها حتمي، أنظري إلى والدتك وشقيقتك وشاهدي ما حدث لهن بمجرد سماعهن المشكلة، ما بالك إذا حدث لك مكروه لا قدر الله أو تمت إدانتكِ وسجنك، ألم تفكري في ذلك، وماذا سيكون حالي، هل تظنين أنى سأقف مكتوف الأيدي أمام هذه العصابة مهما بلغت قوتها ونفوذها، لاتكوني أنانية وتنظري إلى مصلحتك المهنية فقط،

ولكن عليكِ أن تنظري للأمور جميعها من جميع الجوانب ثم تأخذي قرارك، وأحذرك أن تفعلي غير ما أقوله لكِ، خذي الأمور بالعقل والحكمة وسوف تدركين أن ما أقوله لك هو الصواب ولا أعني به سوى مصلحتك وفقط.

أطلت النظر إلى والدتي وقد بللت الدموع وجنتيها واحمرت عيناها من كظم الحزن والغيظ ،ثم نظرت إلى سحر التي أومأت برأسها تعبيرا عن موافقتها على كلام شقيقنا طارق،جلست بعض الوقت صامتة، واتجهت إلى غرفتي، والتفت إلى سحر أسألها عن أحوال شقيقتنا صفاء التي تزوجت منذ شهور وسافرت مع زوجها إلى العراق حيث استطاع احد أصدقائه ترتيب عمل له هناك، وكم كانت سعادته بهذا العمل الذي جعله يطير في سماء الأحلام وتسيطر عليه خيالات الثروة والغنى التي تنتظره في هذا البلد الغني، طمأنتني سحر على صفاء وعلمت منها أنها تحدثت معهم تليفونيا منذ أسبوع واطمئنوا على أحوالها وحياتها هناك،مكثت في حجرتي بعض الوقت استجمع أفكاري وأحاول أن أصل إلى حل في ضوء المعطيات التي أمامي من كلام طارق وردة فعل أسرتي، ووضعت أمامي تلميحات رئيس التحرير الذي ألتمس له العذر في خوفه على مستقبلي وسمعة الصحيفة التي يترأسها .

ظللت على هذا الحال من الفكر حتى غلبني النعاس ثم استيقظت في الصباح الباكر وذهبت إلى محطة القطار وغادرت محافظتنا إلى القاهرة وذهبت مباشرة إلى مكتبي في الصحيفة وشرعت في كتابة مقال هجومي فضحت فيه هذا الرأسمالي المستقوي بنفوذه وأمواله، وأوردت في المقال تفاصيل ما تعرضت له من ابتزاز ومحاولة شراء صمتي عن كشف الفساد ومحاولة التهديد بهذا

التسجيل المفبرك، وجعلت من المقال بلاغ للنائب العام، كان هذا المقال بمثابة قنبلة قلبت الموازين وأطاحت بكراسي كثيرة وبسببه خضعت للتحقيق عدة أشهر في محاولة من النيابة لاستيضاح الحقيقة واكتشاف صدق البلاغ، وكانت صولات وجولات كثيرة، حاول فيها أفراد العصابة الرأسماليين الالتفاف حول صديقهم، ومؤازرته في مواجهتي ومواجهة المؤسسة الصحفية التي أعمل بها بعد أن قرر رئيس التحرير الوقوف بجانبي، وشكل فريق عمل لمتابعة هذا الموضوع وجمع البيانات والإحصائيات وإظهار أوجه الفساد والطرق الملتوية التي يتبعها أصحاب هذه المصالح للوصول إلى مآربهم وكسب ملايين الدولارات على حساب الفقراء والمعدمين من أبناء هذا الشعب، وكانت قضية الموسم التي انبرت فيها الأقلام تكتب وتحاول أن تزيل الغمام عن الحقائق المسكوت عنها،ودارت مناقشات تبارت فيها وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة وأصبحت حديث الساعة،

انتهت القضية بتخلي أصحاب النفوذ عن صديقهم بعدما أدركوا أن مركبه غارقة لا محالة ومن يحاول إنقاذه سوف يغرق معه، واتضحت الحقيقة كاملة واستطعت أن اثبت براءتي من التهمة التي حاولوا تلفيقها لي، وخرجت من هذه القضية منتصرة، تطول رقبتي السحاب، ونلت شهرة وقوة فاقت الحدود، وأصبحت صحفية يشار إليها بالبنان ويعمل لقلمها ألف حساب .

"٥ "

جاء طارق ذات يوما لزيارتي في مكتبي في الصحيفة، ولاحظت في عينيه نظرة انكسار، فلم تكن تلك لمعتها ولا هى القوة التي تميزها والحدة التي تدخل الرعب في القلوب ، حاولت التلطف معه في الحديث علني أدرك الحالة التي أوصلته إلى ما هو عليه، وعلى علمي أنه يمر بفترة عصيبة بعد ترك الخدمة في الجيش والالتحاق بالعمل في إحدى شركات الأمن الخاصة، وكنت قد ظننت أنه اجتاز مشاكله بعد تعيينه واستقراره في العمل ويمكنه الانطلاق في الحياة لتحقيق أحلامه وآماله خاصة وأنه قد تجاوز الخامسة والثلاثين من العمر ولم اسمع منه يوما نيته في الاستقرار والزواج وفتح بيت جديد،ويبدو أن مشاغل العمل والصحافة قد أخذتني كثيرا عن عائلتي حتى أنى لم أكلف نفسي متابعة أخبارهم ومشاكلهم والعمل على حل تلك المشاكل، وقد عاتبت نفسي كثيرا لهذا الجفاء الذي أصابني والاكتفاء ببعض الأموال التي أرسلها لهم للمساعدة في مصاريف البيت وإعالة شقيقتي ووالدتي،غير أن الحنين دائما ما يشدني إلى كل أفراد أسرتي واشعر الآن كم أنا مقصرة في حقهم خاصة عندما رأيت تلك النظرة البائسة في عين طارق، وهو الذي اعتدت منه القوة والكبرياء في أحلك الظروف وأقساها .

حاولت مرارا وتكرارا أن أصل إلى أغوار نفسه حتى اعرف مصابها فربما أمكنني الحل أو إيجاد طريقة تخفف عنه بعض ما تجيش به نفسه،ولكن يبدو أن عزة نفسه أبت عليه أن يظهر ضعفه أمامي،أو أن يبوح بمكنونها،فبعد أن جلس بعض الوقت سرعان ما طلب الانصراف وغادر المكتب دون أن أصل إلى شيء مما يعانيه، وان كنت أدركت عن طريق الرابط الروحي الذي يصلني به انه

يعاني معاناة شديدة ويشعر أنه حبيس جدران عالية تحيطه من كل مكان ولا يكاد يجد لنفسه مخرجا ينطلق من خلاله إلى حيث الفضاء الذي يبغيه ويشدو إليه،خرجت وراءه مسرعة وأنا أمسك بيديه أشدد عليها علني التمس منها القوة والمدد لأيامي القادمة وأبثها الدفيء والأمل في حياة أفضل، وطلبت منه الحضور مرة أخرى على أن يسمح لنفسه بالحديث والانطلاق حتى تعود بنا الأيام إلى سابق عهدها ونحاول أن نجد الحلول لتلك المتاعب التي تجتاحنا بين الفينة والأخرى،أومأ طارق برأسه موافقا على حديثي ثم غادر الصحيفة مسرعا ليتوه وسط جحافل البشر في المدينة ويبتلعه طوفان من الازدحام، وأعود مرة أخرى إلى مقالاتي وكتاباتي التي أعدُها للنشر، وتستمر الحياة تبتسم حينا وتكشر عن أنيابها كثيرا من الأحيان تجرفنا في طياتها وتجري بنا مسرعة لتلقي بنا إلى حيث أرادت، عاد طارق إلى مدينته مرة أخري وكم كانت سعادته كبيرة عندما التقي مع صديق طفولته أيمن الذي كان يقضي إجازة قصيرة بين أهله وأسرته، وكان يزين كتفه نجمة ذهبية اللون بعد أن رقى إلى رتبة ملازم ثاني وأصبح له شأن في الجيش وينظر له الجميع بكل احترام وتقدير في حى الملاعين،

بادرني أيمن قائلاً:

- كيف حالك طارق لقد اشتقت للجلوس معك واستعادة ذكريات الماضي بأيامه الجميلة.

- نعم وأنا أيضا يا أيمن لقد كانت أجمل أيام، حتى السيئ منها نراه الآن وكأنه اسعد وأحب الأيام إلى قلوبنا..

- نعم يا طارق لك أن تتخيل أنه لايذهب عن ذاكرتي بعض المواقف التي جمعتنا سويا ولا أنسى يوم أن عوقبنا نحن الاثنين في مركز التدريب وحكم علينا بتجهيز الغذاء لجميع الجنود في مطبخ المعسكر، يومها أخذت في تجهيز جوالات الأرز وإعدادها للتسوية وفصل ما بها من شوائب وزلط صغير الحجم، بينما كنت أنت منهمكا في تقطيع البصل قطع صغيره والدمع يسيل من عينيك وانفك يسح سحاً،وكلما أردنا الراحة قليلا زمجر الصول النوباتجي فنعود أدراجنا إلى حيث كنا.

- نعم نعم أتذكر هذا اليوم جيدا، واذكر أن البذلة الميرى التي كنت أرتديها أصبحت بلون الطين بعد أن اتسخت بسواد الدخان الذي يغطي آذان الطعام الكبير،وكيف أننا بعد أن أَنهكنا من التعب طوال اليوم، وما أن دخلنا السرية حتى نرتاح بعض الشيء ونخلع عن أنفسنا تعب وشقاء يوما غير معتاد في حياتنا، حتى فوجئنا بأننا مكلفين ضمن طاقم الحراسة الليلية وانه علينا أن نأخذ متاعنا وفرشنا ونخرج حالا لنتبادل الوقوف حتى الصباح في الخدمة،وكان يوم من الجهد والشقاء لا ينسى .

- نعم نعم، وهل تتذكر يا طارق يوم أن تم اختيارنا للقيام باستعراض أمام قائد المعسكر، وكان ذلك يستدعي عدم السماح لنا بالنزول إجازة الخميس والجمعة مع زملاءنا، وكم كانت الإجازة بالنسبة لنا وكأنها العيد الذي ننتظره في نهاية الأسبوع،هل تتذكر حالنا وما أصابنا من هم وغم وجلسنا نفكر سويا في خطة تخرجنا من هذا المأزق وتُمكننا من الحصول على الإجازة في موعدها، وعندما أعيتنا الحيل وأصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الحرمان من الإجازة

فوجئت بك ونحن في طابور الصباح تسقط فجأة على الأرض مغشيا عليك، ويحاول الزملاء إفاقتك دون جدوى، ويأتي الصول التعليمي لمحاولة إنعاشك وإفاقتك ويصاب بخيبة أمل،ويبدو انك شعرت بجذعي ولوعتي فوجدتك تغمز لي بعينيك في إشارة انك تمثل هذا الدور للخروج من مأزق الإجازة، فما كان مني إلا أن شاركتك التمثيل وصرخت بأعلى صوت مطالباً بمحاولة إسعافك حتى لا تتدهور حالتك لأنك معتاد على هذا عند اشتداد الجهد الذي تبذله، فما كان من المسئول عن الطابور إلا أن طلب مني الاعتناء بك والجلوس معك حتى تستعيد عافيتك، ويومها ذهبنا سويا إلى الكانتين وشربنا الشاي وتبادلنا الضحكات وامتلأت قلوبنا سعادة خاصة بعد أن علمنا أنهم سمحوا لنا بالمغادرة وتم اختيار بدلاء لنا للمشاركة في طابور القائد.

- نعم يا أيمن أياما على قسوتها غير أنها من اسعد أيامنا حقا، ولو تركنا لأنفسنا فيض الذكريات الجميلة التي جمعتنا لتطّلب ذلك أياماً وليالي طوال نستعيد فيها بعضا من تلك الذكريات التي تذكرنا أن عمرا طويلا قد انقضى وأننا تركنا زمنا لا يمكن تعويضه أو الإمساك بأيامه التي ذهبت وانقضت .

بادرني أيمن بسؤال باغت أخرجني من حلم الذكريات والأيام الخوالي وألقى بي في مأساة الواقع الذي أعيشه ولا أكاد أجد له مخرجا، حين قال فجأة:

- طارق، ما بالك منذ فترة كبيرة وأنا ألحظ عليك تغيرا واضحا، فأنت لست طارق الذي أعرفه، وليست تلك روحك الوثابة، ونظرتك الحادة التي تخترق النفوس والوجدان، ماذا بك، نحن أصدقاء طفولة لما لا تبوح بما في نفسك ربما أمكنني مساعدتك أو التفكير معك إن كانت هناك مشكلة تعاني منها.

سَكت ملياً ونظرت إلى موضع قدمي، وتريثت قليلا، وقلت له:

- أيمن، أنت نعم الصديق، وأنا لن أجد غيرك يستمع إلى وأبثه همي فربما وجدت عندك بعض السلوى أو أفرغ معك بعض ما في صدري من شجن وأحزان احملها وحدي، فأنا يا صديقي منذ تركت الخدمة بالجيش وينتابني شعور بالتمزق، فأنت كما تعلم عني احمل داخلي شخصية قيادية وقدرة على التخطيط وعندي الكثير من المهارات التي عمل الجيش على تنميتها وبلورتها في أطار واضح حتى أكسبتني شخصية تميزت بها على أقراني على مدار سنوات طويلة،وكان الجيش يتيح لي أخراج مواهبي والانطلاق بأجنحة القيادة التي ربما لم تكن كاملة غير أني كنت أحقق ذاتي وطموحي،وبقدر ما تطلعت إلى ترك الخدمة في الجيش وشغفي بالانطلاق والتحليق في سماء الحرية بلا قيود تقيدني ولا أوامر تجبرني على الطاعة ،وبقدر انتظاري لهذا الأمر فأنه عندما نلته وحصلت على حريتي وجدتني قد ازددت قيدا و أصبحت الأسوار تحيط بي من كل مكان ولا أكاد أجد متنفسا لي،وزاد الطين بلة عندما تأرجحت بين عدة أعمال بعد ترك خدمة الجيش ولم أجد نفسي فيها، ووجدت المذلة من اصطحاب تلك الأعمال ومعاملة السخرة التي ينتهجونها معي ومع من يعمل معهم،فهم لا يعنيهم سوى مصلحتهم وفي سبيلها يمكنهم أن يدوسوا على ما عداها،وكم تقلبت بين أعمال متدنية حتى كُسرت داخليا وكادت نفسي أن تضيع مني وتقضي المذلة على كبريائي ، وأصبحت هيكلا متحركا يخرج صباحا لتأدية العمل الموكل إليه بلا طموح أو رغبة، حتى كادت شخصيتي أن تذوب في مشاكل العمل وبين أصحاب الأعمال المتكالبين على جمع الأموال،حتى بعد التحاقي بشركة الأمن التي اعمل بها منذ عدة سنوات لم أجد نفسي فيها ولا في

وظيفتها حتى أنى كثيرا ما جلست بيني وبين نفسي أتذكر أيام خدمة الجيش وأتحسر على هذه الأيام التي كنت أجد نفسي فيها وتنطلق روحي وأحقق ذاتي في القيادة والزعامة وحولي جنودي يأتمرون بأمري وينفذون مطالبي، أين أنا الآن من كل هذا، اعمل كأني خفير أحرس الشركات والبنوك، نكرة غير مرئية وليس لوجودها أو فقدانها معني.

أيمن يا صديقي لقد ضقت ذرعا مما أنا فيه وأريد أن أتحرر من قيدي وانطلق بعيدا لأحقق ذاتي وأعيش حياتي التي حرمت منها بما يتناسب مع قدراتي وإمكانياتي التي كدت أن افتقدها وانسي نفسي واتوه بين زخم الحياة،

نظرت فجأة إلى صديقي أيمن فوجدته يحدق في وجهي بدهشة وكأنه فوجئ بكلامي وكم الشجن الذي يملؤني، غير أنه تدارك وضعه وقال لي:

- لا عليك يا صديقي انك تعاني أكثر مما كنت أظن، لقد ظننت أن بك مشكلة عارضة وسوف تنتهي بحلها، ولكن يبدو أن مشكلتك تستعصى على الحل، فهى مشكلة وجود وحياة، أسمع يا طارق اتركني بعض الوقت وسوف أعود إليك بحل يريحك من هذه المشكلة ويضعك على الطريق الذي تبتغيه، لتحقق طموحك وتطلق طاقاتك، ولكن دعني أولا ارتب لك الأمر وعند عودتي في الإجازة القادمة ربما يكون معي الحل لمشكلتك المستعصية.

شددت على يد أيمن وافترقنا، وقد أحسست بعدها براحة لم استشعرها منذ زمنا طويلا، فقد شعرت أني ألقيت بحمل جبل من فوق أكتافي،وان خطواتي

أصبحت أخف ويمكنني الطيران والتحليق بعد أن زال هذا الحمل ووجدت من يحمله عني أو على الأقل يشاركني حمله،

مضت الأيام سريعة ونسيت أمر هذا اللقاء، فكثيرا ما يعتاد الأصدقاء محاولة تخفيف الأحمال عن بعضهم البعض ببعض الكلمات التي ربما لا يعنوها و يجدوا أن بها بعض التسرية عن أصدقائهم ومحاولة إنهاء الجلسة بينهم بشيء من الأمل حتى وإن كان أملاً كاذبا،

مضى أقل من شهر على اللقاء مع أيمن ووجدته يوما يأتي إلى منزلنا ويطلبني في لقاء سريع وهام،

ارتديت ملابسي على عجالة ونزلت إليه مرحباً، غير أنه أخذ بيدي وقال لي في كلمات سريعة موجزة، انه جاء اليوم واحضر معه من سوف ينقذني من هذه الحياة المملة وينطلق بي إلى حيث الفرصة التي أبحث عنها والتي يمكنني أن انطلق منها إلى حيث أشاء،لم أصدق ما سمعت، هل حقيقي أيمن أوفى بوعده وهكذا سريعا وجد الحل السحري، ولكن ماذا عساه يكون هذا الحل، لقد فكرت كثيرا وحاولت أن أجد حلاً لمشكلتي غير أنى لم أهتدي لشيء يريحني من العذاب الذي أعانيه، فهل يمكن لأيمن أن يكون قد اهتدى نيابة عني لهذا الحل، ولكن لما التسرع في الحكم على الأمور أنها دقائق قليلة وكل شيء يظهر على حقيقته ونرى ماذا في جعبته،أخذني أيمن إلي المقهى القريب من الحي وأشار بيده على رجل في العقد الخامس من العمر ويبدو على مظهره الوقار، قال لي هذا هو الحل الذي تبحث عنه، لم أفهم مقصده، ولم أسأله فقد كنا

قد وصلنا إلى حيث يجلس الرجل ويدخن الشيشة وأمامه فنجان من القهوة يرتشف منه ببطيء شديد ويبدو في عينيه عمق وخبرة حياتية كبيرة،

بعد أن تبادلنا السلام، عرفني أيمن عليه، وقال لي انه الأستاذ حسين زوج أخت أحد الضباط في الكتيبة التي أعمل بها والذي تناقشت معه في مشكلتك وطلبت منه عرضها على الأستاذ حسين لأني على علم مسبق انه يمكنه مساعدتك في حلها،

وهنا تدخل الأستاذ حسين وقال في كلمات سريعة موجزة.

- أستاذ طارق هل أنت مستعد للسفر للخارج، يمكنني مساعدتك في السفر إلى ايطاليا ومنها تنطلق إلى دول أوربا حيث الرزق الوفير والحرية المطلقة والحياة الفسيحة التي تلائم تطلعاتك واهتماماتك، وسوف أرسلك إذا شئت إلى معارف وأصدقاء في عدة بلدان أوربية لمساعدتك في الحصول على العمل المناسب والوقوف بجانبك حتى تستطيع أن تضبط أمورك وتصبح في غنى عنهم،أن كان هذا يروق لك فكر جيدا وأنا تحت أمرك، وأنا سوف أقوم معك بهذه الخدمة محبة في الضابط أيمن وعربون صداقة معه، فكر جيدا وهذا رقم التليفون والعنوان يمكنك الاتصال بي في أي وقت تشاء ونتمم هذه العملية.

كأنني في حلم ، وأخشى أن أستيقظ فيضيع الحلم، أمسكت بذراعه وكأنها طوق إنقاذ ألقي إلى في خضم بحر عالي الأمواج، وقلت له نعم موافق ولنتمم الاتفاق الآن ونتحدث في تفاصيله وخطواته المقبلة دون تريث أو تأخير، ونظرت

إلى عينيه وقد عادت نظرتي الحادة واندفعت الدماء تسري في جسدي تعيد له قوته وتدب فيه الحياة، لما لا وأنا أرى شباك للحرية يفتح لي من جديد ويدعوني للانطلاق والتحليق في سماء العالم الواسعة .

" ٦"

دارت الأيام سريعة واستعد طارق للسفر وأنهي مصالحه في مصر وأعد نفسه لسفر أقرب إلى الهجرة، فهو لم يجد نفسه في وطنه ولم يحقق نجاح يذكر، وأراد أن يعوض إخفاقاته بتلك الرحلة التي حلم كثيرا بها وراودته في يقظته وحلقت به في السماء، أخيرا سوف ينطلق إلى عالم سمع عنه الكثير وعاش معه بخياله، ولم يخايله إطلاقا أنه سوف يجوبه في واقعه ويصبح جزء من حياته، بل حياته القادمة كلها .

جاءت اللحظة الفاصلة وتحدد موعد السفر، وجاب طارق شوارع الحى جيئة وذهابا وكأنما يعلن لجميع من يقطنون حارة الملاعين أنه في طريقه للخروج من جلده وترك اللعنة لهم وتحرره من هذه اللعنة التي صبغت حياته وتركت أثارها واضحة على كل تفاصيلها، ولكنه أخيرا سوف يفارق هذه اللعنة كثعبان ينسلخ من جلده ليكسوه جلد جديدا لامعا يضفي عليه حيوية وشباب وينطلق به يزهو بنفسه وحياته القادمة .

ذهب طارق إلى شقيقته حنان في مكتبها في القاهرة وتحدث معها طويلا، واختلف حديث اليوم عن حديث الأمس،فقد ظهر طارق بشخصيته الحقيقة التي كادت أن تتوارى أمام الإخفاقات المتتالية التي تعرض لها وكادت أن تطغى على حياته وتطفئ لمعان عينيه وتمحي شخصيته، فها هو يتحدث إلى حنان بكل

ثقة، بل ويمارس معها دور الأخ الأكبر بما يحمله من خوف عليها يترجمه إلى نصائح يلقنها إياها وكأنما أسترد تقمصه لشخصية الأب الذي افتقدوه منذ أعوام طويلة،

وتستمع حنان إلى طارق وتبادره نصيحة بنصيحة،وقد اكتسى حديثهم بجدية تضاهي الموقف الذي هم بصدده والحياة التي فرضت عليهم،لما لا وحنان أصبحت تشغل منصب مؤثر في المجتمع وكلمتها لها وقع طلقات الرصاص التي ربما تصرع من يتعرض لها،وتحيي من لاتطوله وتخطئه في طريقها،وهذا قد شكل لها عددا لابأس به من الأعداء ممن أصبح همهم التخلص منها وكسر قلمها، أو في أضعف الإيمان إبعادها عنهم ونسيانهم من ذاكرتها وإخراجهم من جعبتها، وفي نفس الوقت هاهو طارق يحمل على كتفيه إخفاقات حياة ماضية، وآمالا وأحلام أيام قادمة، ويتجه إلى رحلة طويلة لا يكاد يعلم أولها من أخرها ولا إلى أين تأخذه وتحط به،فكلاهما يتجه إلى المجهول، وكلاهما يظهر جَلداً وشجاعة،غير أنهما يرتجفان رجفة تزلزل كيانهما من الداخل خشية أن يحمل المجهول مأساة غير متوقعة وأعاصير كاسحة، نظر طارق إلى عين حنان نظرة طويلة وبادرها بقوله:

- صدقيني حنان على قدر المسافات التي تفصل بيننا ووجودك هنا في القاهرة وابتعادك عنا أيام وأشهر طويلة، إلا أني كنت أجدك بجانبي دائما، واستشعر وجودك في جميع خطواتي، إن ما أقوله لك الآن ربما منعني من قوله سابقا الخوف من إظهار ضعفي أمامك وأنا الشقيق الأكبر الذي تنظرين إليه والى قوته، وتريني دائما بتلك القوة التي لا تقهر، غير أنى أقولها لك الآن وأنا مغادر

إلى بلاد لا اعرف أين بدايتها ولا نهايتها، لقد كنتِ لي منبعاً استمد منه قوتي، وكأنك جدار صخري استند إليه في الشدائد، صدقيني يا أختاه أنتِ لي أكثر من مجرد شقيقة اشتركت أسماءنا مع اسم الأب والام، بل أنتِ تسكنين داخلي واشعر بوجودك دائما، ولطالما استشعرت نصحك ووضعت رأيك على الطريق اهتدي به حتى وان لم تقوليه فقد كنتِ أمامي ومعي دائما، لا أريد أن أزيد وأطيل، فأنا أثق في ذكائك وأعرف أنك تدركين ما أريد قوله، فأنا لست خطيبا مفوها مثلك فأنتي صاحبة كلمة ورأى وتستطيعين التعبير خيرا مني، وادرك انك تفهمين ما بين السطور، غير أنى أردت أن أقول لك انك أكثر من أخت وصديقة ولك في القلب والوجدان شأن أخر.

أطرق طارق برأسه إلى الأرض وتساقطت من عينيه دمعتان حاول جاهدا أن لا تراهم حنان حتى لا تقرأ ضعفه، غير أنه سرعان ما أجهش في بكاء حار ووضع يديه على وجهه يحاول أن يزيل سيل الدموع التي انهمرت محطمة سدا منيعاً وقف أمامها طويلا لتندفع جارية تطلب حريتها بعد سجن تحجرت داخله سنوات طويلة،نهضت حنان سريعا تحتضن أخاها وتمسح دموعه بمنديلها وتربت على كتفيه بحنان وكأنها أمه التي تبثه حنانها وقوتها، وبعد أن تمالك نفسه قليلا أراد أن يتكلم غير أنها أشارت له بيدها أشارة أن اصمت فأنا افهم مشاعرك وأدرك ماتريد قوله، ثم قالت له في صوت كله شجن وضعف:

- اسمع يا طارق أنا أدرك ما تعانيه وأعرف ما يجول بخاطرك، وهذا الشعور شيء طبيعي فأنت تنطلق إلى رحلة وعالم غريب عليك، ومهما امتلك الإنسان من قوة ففي النهاية هو إنسان تحركه مجموعة من المشاعر والأحاسيس،

ويقف له المجهول بالمرصاد واضعا علامة استفهام كبيرة لا يكاد الإنسان يفك طلاسمها، فالحياة تحمل في أغوارها الكثير، وأنا اعلم جيدا هذا الإحساس، فقد عشته عندما تركت الحي الملعون وجئت إلى القاهرة، فعلى الرغم من أن المسافة قصيرة إذا قيست بالكيلو مترات غير أن وجدت فيها بُعد المشرق عن المغرب، فالمسافات بداخلنا وليست هى مسافات الخرائط وبُعد الأماكن، المسافات تصنعها غربة الثقافات والأشخاص، غربة الأماكن والأفكار،غربة الحياة والتعود،غربة الروتين الذي اعتدناه وأصبح جزء من حياتنا ورَكنا في كنفه حتى شكل لنا منهاج حياة، وكَسر كل ذلك ليس بالشيء الهين، فهو يشعرك وكأنك تقفز من فوق جبل عال وتنظر إلى أسفل فلا تجد لك مقرا تسقط فيه،وتجد كل الأماكن تحتك وعرة إن سَقط بها لقيت حتفك على الفور، و الرياح تأخذك يمينا ويسارا وأنت لا تملك لنفسك شىء، وتظل على هذا الحال تكاد دقات قلبك أن تتوقف من هول ما أنت فيه، ولا يسعك غير انتظار المجهول وما سوف تسفر عنه رحلتك حتى تحط بك الريح في المكان الذي قدر لك لتبدأ من حيث وُجدت، وتبدأ رحلة جديدة في البحث ومحاولة الوصول للأمان، كلنا يا طارق عشنا تلك الأيام الصعبة وذلك الشعور القاتل، وأدركنا أن للحياة قسوتها ولحظاتها المريرة والصعبة التي تختبر بها بعض البشر، ربما لحكمة قدرية تريد أن تصنع منهم شيئا أو تضيف إليهم أو تأخذ منهم، ولكنها في النهاية تجارب مؤلمة ومريرة، وليس لنا خيار يا شقيقي فهى خطى كتبت علينا وليس لنا سوى أن نعيشها شئنا أم أبينا، نعم يا طارق قد عشت تلك اللحظات، وربما كانت أخف وطأة مما أنت فيه، نعم فأنا كنت أعرف طريقي، ومعي أدواتي،وكنتم انتم لي الجدار الصلب الذي أركن إليه، وأجدكم

معي سند لي وعوناً، كان كل هذا ربما يخفف عنى وقع الغربة والفراق والمسافات، غير أن شعور الوحدة والغربة يظل شعورا قويا كاسحا طاغيا يدُك الإنسان ويحطم إرادته ويجعله في مهب الريح، غير أننا في النهاية لابد لنا من الاستعانة بإرادتنا وقوتنا وطموحنا نحو التغيير،

انه شعور وقتي يا طارق وسرعان ما يزول يا أخي، وأنا اعرف انك إنسان قوى وتملك من الإرادة ما يمكنك من التغلب على كل ما تشعر به، وأنا أرى في عينيك الدامعتين إصرارا وقوة على النجاح، وسوف تنجح وتصل إلى ما تصبوا إليه، فأنا وأنت نعرف بعضنا جيدا . وتتغلغل أفكارنا ويربطنا سويا رابط خفي يدفعنا للنجاح والوصول إلى ما نبتغيه، ثق في قدراتك يا أخي وتوكل على الله، وأنا أدرك أن دموعك ما هي إلا دموع طرد سنوات إحباط مضت حتى تتخلص من ضعف أصابك لتبقى لك القوة القادرة على التغيير ومجابهة الحياة والأيام القادمة بكل ما تحمله من مجهول.

ودع طارق شقيقته حنان وغادر مقر الصحيفة، وسافر إلى بلدهم وجلس مع والدته وأخوته جلسة طويلة، حاول فيها أن يكون رابط الجأش وأوصاها بالدعاء له بالتوفيق،وشدد على أخيه احمد في تلبية طلبات والدتهم وتنفيذ أوامرها، واستمع إليهم كثيرا، وتحدث أكثر، غير انه لم يحاول أن يبوح بما يشعر به كما فعل مع حنان، وظهر أمامهم متمالك الأعصاب، كما اعتادوا أن يجدوه دائما .

عانق طارق والدته وأشقائه سحر و أحمد ، واستودعهم خيرا، وغادر المنزل والحارة وتوجه إلى موقف السيارات وزج بنفسه في إحداها والتي بدورها أقلته

إلى محطة السكة الحديد ليأخذ القطار بادياً رحلة انتظرها طويلا وسعى إليها ، وأخذ قلبه يرجف وترتعد فرائصه مع بداية الخطوات الجادة لبدء رحلته .

أبحر طارق مع مجموعة من الشباب المهاجر من عدد من قرى مصر البعض منهم يجمعهم صداقة والبعض الآخر تربطهم قرابة، والعدد الأكبر خرج بمفرده لايعرف أحدا ولا أحد يعرفه، استقلوا جميعا باخرة صغيرة الحجم متهالكة أبحرت بهم في البحر الأبيض وركبت أمواجه متوجهة إلى ايطاليا، وهو الاتفاق الذي ربط بين طارق وراعي الرحلة، حيث اتفقا سويا انه سوف يقوم بتهريبه إلى ايطاليا ومن هناك يمكنه البدء إما بالعمل في ريف البلد أو محاولة النزوح إلى أى بلد أوربي يستطيع أن يجد لحياته بداية فيها،وأعطاه بعض عناوين لأصدقاء يمكنهم أن يساعدوه ويقفوا معه في بداية مشواره حتى يمكنه الاعتماد على نفسه،وما أن حطت قدم طارق المركب حتى بدأ يشعر بالرعب يجتاح خلجات قلبه، فالمركب متهالك بطريقة كبيرة، وأمواج البحر عالية،والرياح تضرب المركب ضربات موجعة تكاد أن تطيح بها وتلقي بها إلى الهلاك، تذكر طارق القصص الموجعة عن غرق الكثير من الشباب المهاجر في رحلات مماثلة، وكيف عثر على بقايا جثثهم على شاطئ البحر بعدما أكلت منها الأسماك وامتلأت بطونها، و أصبحوا حديث قراهم والقرى المجاورة، ونشرت قصصهم الصحف والإذاعات، وفي النهاية فقدوا حياتهم وانتهت رحلتهم قبل أن تبدأ وأصبحوا في خبر كان، هل يمكن أن تتحول رحلته إلى كابوس ورحلة مفقودين تضاف إلى سجل الرحلات السابقة ؟، وهل تنشر الصحف والمجلات حكاياتهم وقصصهم؟، وحنان هل ستنبري وتكتب قصتي وتزيد وتفيض وتحلل أحداثها لتجعل منها قصة مثيرة تثير القارئ وتستحث عطفه، ولكن هل يمكن لحنان

القيام بذلك، هل ستتغلب حنان الصحفية على حنان الشقيقة ويأخذها المجد الزائف والنجاح الوهمي للكتابة عن أخيها وتشريح جسده وشخصيته ووضعه طبق شهي أمام القارئ ينهل من بقاياه ويزرف الدمع ويمجد بطوله صحفية تمالكت أعصابها وكتبت عن شقيقها بعد أن تركت الحزن جانبا لتقوم بواجبها وكأنها في ميدان معركة تفضل الموت المقدس وتتلقى رصاصته على أن تترك مكانها وتهرب إلى حزنها ودموعها؟

أخذت تلك الأفكار وأفكار كثيرة غيرها جزءا كبيرا من وقتي وأنا انظر إلى عيون الشباب المهاجر معي وأرى الرعب والخوف يتملكها،وكلاً منهم تائه بنظره وغائب بعقله و كأنما جمعنا مركب واحد ويفرقنا عوالم مختلفة كلاً منا يذهب لعالمه وفكره وذكرياته وأحزانه،حاولت أن استبين الموقف في عيون البحارة الذين يقومون على المركب ويسيرونها ويعلمون عن البحر ما لانعلمه، ويدركون مخاطره وقدرة مركبتهم على مواجهة تلك المخاطر، غير أنى لم أجد ما اقرأه في عيونهم، فوجوههم جامدة، متهالكة وليست بأحسن حال من مركبتهم القديمة،غير أن ذلك أعطاني بعضا من الاطمئنان، فالموت له رهبة، ورهبته تطغى على كل الوجوه وتظهر واضحة جلية على أشد الوجوه قسوة، ولو كان هؤلاء الملاحين يدركون أن خطر الموت قريب لكان حالهم غير هذا الحال، ولكن بما أنهم متماسكون ورابطو الجأش فهذا مؤشر جيد يجب أن أتمسك به حتى أزيل ما علق بنفسي من خوف ورهبة من البحر وأمواجه وقصص رحلات فاشلة انتهت بالموت بعدما بدا شريط ذكرياتها يمر أمام عيني، مر الوقت بطيء والساعات ثقيلة، وأمواج البحر تداعبنا تارة هادرة وتارة أخرى هادئة، ونحن مستسلمون استسلام الذبيحة لسكين الجزار،وكلما اشتد الريح وعلت الأمواج

نظرنا إلى بعضنا البعض عل أحدنا يقول قولة مطمئنة أو يأخذنا إلى طريق آخر نتوه فيه بعيدا عن هذا الفكر الذي يكاد أن يطيح بنا، فجأة صاح أحد البحارة فرحاً انظروا ها هى أرض الشاطئ بدت واضحة على بعد عدة أميال، لقد وصلنا يا شباب وها هي رحلتكم قاربت على الانتهاء .

تنفسنا جميعا الصعداء وهنأنا أنفسنا على وصولنا بالسلامة من رحلة كادت أن تحطم أعصابنا وتطيح بما تبقى لنا من أمل في الحياة، ولكن الحمد لله لقد وصلنا بالسلامة وانتهت أولى خطواتنا، وعلينا أن نستعد للمرحلة الثانية من الرحلة والدخول إلى ايطاليا والغوص في أعماقها والإمساك ببداية الخيط حتى يمكننا الانطلاق إلى حيث نبغي .

ابتلعتني ايطاليا ذلك البلد الأوربي الذي جمع على أرضه الثقافات الشرقية جنبا إلى جنب مع الثقافة الأوربية،واكتسي بالجمال الغربي في كل مظاهره وبواطنه،وزادته المسحة الشرقية جمالا فوق جمال بالنسبة لنا نحن المصريين، وبقدر شعوري بالغربة غير أني كنت في أحيان كثيرة أستشعر فيه الوطن والأهل، ومع سعادتي بوجودي في هذا البلد الجميل وتلك الحياة الغربية الجديدة بالنسبة لي وهذا الجو الساحر والحياة الخلابة التي أراها في كل مكان اذهب إليه إلا أن ندرة الأشغال وعدم إمكانية الحصول على عمل مناسب أرق مضجعي وأصابني بحالة من الكآبة كادت أن تقضي على آمالي في حياة رجوتها وعملت لها وحلمت كثيرا بتحقيقها،استعنت في البداية بالأشخاص اللذين أخذت عنوانيهم وتوصيات بطلب مساعدتهم لإلحاقي بالعمل، غير أنى وجدت أن الأعمال التي في جعبتهم أعمالا متواضعة لا تكاد توفر المأكل والمشرب

لطالبها . هذا بخلاف ما تقتطعه من وقت وجهد طوال اليوم فلا تترك للإنسان شيء يفعله بعد ذلك،ارتحلت من عمل إلى عمل،وجاهدت وتعبت وحاولت أن أتأقلم مع تلك الأعمال التي لا تحقق طوح ولا تقيم آمال، غيراني في كل مرة كنت أجدني خارج العمل مطرودا بسبب خلاف أو شجار مع من يعملون معي أو مع صاحب العمل لأجدني من جديد ابحث عن فرصة جديدة وعمل جديد، وهكذا يستمر الحال حتى كدت أن اصدق أن المشكلة تكمن في شخصي وان اللعنة يبدو أنها لصيقة بي وقد أحضرتها معي من حارة الملاعين وأبت أن تتخلى عني وتتركني أتخلص من تبعاتها،تمضي أيام الغربة بطيئة وساعتها لاتكاد عقاربها أن تتحرك لتقطع الوقت، ولكن مع ذلك تسير الأيام وأقترب من إنهاء أربع سنوات قضيتها في ايطاليا ولم أحقق شيئا يذكر، وبالكاد ما اكسبه من عملي يكفيني مأكل ومشرب ولا أجد حتى ما أرسله إلى أهلي في مصر، حتى ثمن المكالمة كنت لا استطيع توفيره في بعض الأيام واضطر إلى مهاتفتهم كل شهر أو أكثر حتى ضاق بي الحال وضاقت نفسي بهذه الغربة التي لم تضيف لي شيئا بل اقتطعت من عمري أربع سنوات ضاعت هباء ولم أصل فيهم إلى شيء .

لم تظهر لي بادرة أمل تقودني إلى طريق النجاح الذي سعيت إليه وتمنيته، ويبدو أني سوف أفكر في العودة ثانية إلى مصر أجُر أذيال الخيبة وأعود بلعنتي إلى حارة الملاعين أكمل فيها مشواري وضياعي،

بينما أنا هكذا تائهاً في أفكاري نظرت أمامي فجأة فوجدت أحد الرجال تبدو عليه الملامح الشرقية ذات الصبغة الغربية إلى حدا ما، وهو يطيل النظر

ويحدق في ملامحي بطريقة مريبة جعلتني اندفع في وجهه صائحا، هل تعرفني سابقاً؟

أجابني بتلعثم وقد فوجئ بسؤالي:

- لا لا، غير أني أُشبه عليك، من أي بلد أنت.

- أنا مصري .

- اهه منذ متى وأنت في ايطاليا.

- منذ حوالي أربع سنوات .

- ماذا كنت تعمل سابقا في مصر.

- عملت في أشغال كثيرة، ويمكنني العمل في عدة مجالات .

- لا، اقصد عملك الأساسي الذي كنت تشغله.

- لقد عملت بالجيش في سلاح الحدود وذلك منذ فترة طويلة.

سكت الرجل برهة من الوقت، وبدا مترددا في قول شيء، غير أنه لم ينطق ببنت كلمة.

بادرته بقولي:

- لماذا كل هذه الأسئلة، هل تعرفني من قبل ، أم انك من أصحاب الأعمال وتود أن تلحقني بعمل ما.

نظر الرجل إلى طويلا و غادرني بلا كلمة أو تعقيب،دهشت بعض الوقت لموقف هذا الرجل الغريب، غير أنى أرجعته إلى جملة الأشياء الغريبة الكثيرة التي تحدث في هذه البلد ولم أعطيه أكثر من حقه في التفكير،

مضت عدة أيام ونسيت أمر هذه المقابلة الغريبة وردة فعل الرجل على أجوبتي،غير أني فوجئت بعدها بصاحب العمل الذي اعمل معه يبادر بطردي من العمل لديه بطريقة عصبية ويطلب مني الرحيل فورا عن المكان دون أي سبب يذكر ، وعندما حاولت معرفة سبب الطرد بعد الفترة الطويلة التي قضيتها معهم دون أن يحمل أحد لي أي ضغينة أو عداوة، لم يجيبني وأمرني بضرورة تنفيذ أوامره دون سؤال أو استفسار، تركت العمل لدية، وحاولت أن أجد عمل أخر فالمال الذي توفر لدى من هذا العمل لن يستمر معي طويلا وسوف ينفذ إن لم أجد عملا آخر سريعا، وعلى غير العادة كلما ذهبت إلى صاحب عمل واتفقت معه أجده بعد مضي يوم أو اثنين على الأكثر يطلب مني مغادرة عمله كما حدث في الحالة الأولي، تكرر هذا الحدث معي أكثر من مرة حتى ضقت بحالي وكدت اختنق، فالمال ينفذ بسرعة ولا مجال هنا للبطالة، فمن لايعمل لايجد ما يأكله، يجب أن أجد عمل بسرعة، ماذا حدث معي وما هذه اللعنة التي تلاحقني أينما كنت أو حللت .

لم يدرك طارق أو يدور في مخيلته أن الرجل الذي تقابل معه صدفة منذ فترة من الوقت هو من وراء ما يحدث له، وان طرده من الأعمال التي يعمل بها ماهو إلا مخطط تم التخطيط له بدهاء للإيقاع به وإلقاءه في دوامة تأخذه معها إلى أعماق لم تدر في خلده ولم تخطر له يوما على بال .

" ٧ "

كان هذا الرجل احد أفراد عصابات تهريب السلاح وكُلف ببعض العمليات يجريها على الحدود المصرية منذ عدة أعوام فترة أن كان طارق مكلف بالحراسة على تلك الحدود، واستطاع طارق أن يفسد له هذه العمليات ويقبض على بعض رجاله ويستولى على الأسلحة المهربة التي حاولوا تهريبها عبر الحدود المصرية، وقد أدرك الرجل فور رؤيته طارق أنه غايتهم المنشودة وقد وقع بين أيديهم وجاءهم إلى عقر دارهم،أراد الرجل أن يقترب من طارق ويتأكد من شخصيته، وكان له ما أراد، فظل يرقبه عن بعد حتى عرف مكان عمله ومحل سكنه، وفضل قبل القيام بعمل انتقامي من طارق جزاء ما فعله معه هو ورجاله، وإفشاله عملياتهم أن ينقل الصورة لزعمائه في التنظيم ربما كان لهم رأي آخر، وقد صدق حدسه وتوقعاته فما أن نقل لهم هذا الخبر حتى لاقى عند رؤسائه اهتمام كبير وظلوا يتباحثون في أبعاده فترة طويلة من الوقت حتى خلصوا إلى قرار ظنوا انه الأصوب والأنفع لهم ويخدم مصالحهم وهو أهم ما يبغونه ويحسبون له الحسابات .

كانت خطتهم إفساد علاقته بأي عمل يلتحق به حتى يصبح على الكفاف وتجبره الحاجة إلى طلب العمل في أي مكان وبالشروط التي يفرضها عليه صاحب العمل أياً كانت هذه الشروط، فهم يدركون أن الحاجة تدفع بصاحبها للتنازل عن كثير من مبادئه وأفكاره وتجعله لقمة صائغة بين أيديهم يفعلوا به ما يشاءون، قد كان لهم ما أرادوه واستطاعوا على مدار فترة طويلة من الوقت أن يغلقوا أمامه أبواب الرزق في كل مكان حتى أنه فكر جديا في العودة إلى

مصر يرتمي في أحضان الحارة الملعونة فهو يعلم أنها ترحب به دائما،ويترك وراءه بلادا تلفظه وتقسوا عليه .

في اللحظة المناسبة تتدخل العصابة لتنفيذ الجزء الثاني من الخطة ليفاجئ طارق بأحد أصحاب الأعمال يدعوه للعمل في متجره ويغدق عليه من الأموال و يجعله يشعر بالفتح المبين وأنه أصبح على قيد أنملة من تحقيق آماله وأحلامه،فقد استطاع في فترة قليلة أن يشتري سيارة صغيرة تعينه على التنقل في أرجاء المدينة الكبيرة، وتمكن بمساعدة صاحب المتجر من شراء شقة صغيرة يسكنها بعد أن وعده صاحب العمل انه سوف يسدد أقساطها من راتبه و من السهل الانتهاء من جميع أقساطها في مدة وجيزة ويصير له سكن يملكه يكفيه شر الإيجار وتحكمات أصحاب الشقق والعمارات،

ركن طارق إلى الحياة الناعمة بعد مضي سنين طوال عاشها في الغربة متسكعا بين أصحاب الأعمال وفي شوارع تلك المدينة التي لا ترحم من لا يملك،أخيرا بدأ يشعر بالراحة وأن الأيام السوداء قد أدارت له ظهرها وهاهو مقبل على أيام تملئها السعادة وبحبوحة العيش، لم يكن يعلم طارق أنه يحاك له شرك للوقوع في براثن عصابة من أخطر عصابات مافيا تجارة الأسلحة في العالم،وأنهم وجدوا فيه ضالتهم لفتح أسواق لهم وتهريب بضائعهم للبلدان الشرقية لما له من خبرة بالسلاح خلال فترة عمله بالجيش، وأيضا لما له من علاقات تربطه بالكثير من العاملين بسلاح الحدود ومعرفته بالحدود المصرية والثغرات الموجودة في نقاطها والتي يمكن استغلالها بالنفاذ منها بالأسلحة دون الدخول في مواجهات مع قوات الحدود وسقوط ضحايا من بين أفراد

العصابة، أدركت العصابة بعد مرور حوالي عام أن صيدهم أصبح في أيدهم وأنهم الآن قادرين على أطلاقه إلى المكان الذي يبتغونه وهم ضامنون عودته إليهم مرة أخرى منجزا مهامه التي سوف يكلف بها على خير وجه .

فوجئ طارق بصاحب المتجر يطلبه في صباح أحد الأيام ويأخذه في أحد الأركان الهادئة ويطلب منه أن يتجهز الليلة لمقابلة الرجل الكبير صاحب مجموعة المحلات التي يعمل بها، وقال له،أنه قد شاهدك وأعجب بعملك ويريد أن يتحدث إليك في بعض الأمور ربما تكون خير لك وله، وأنه سوف ينتظرك مساء اليوم، وأعطاه عنوان مكان اللقاء وانصرف دون أن يبوح بكلمة توضح حقيقة اللقاء وتجيب على الأسئلة الكثيرة التي بدأت تراوده .

تعجب طارق من كلام صاحب المتجر وتسأل مع نفسه قائلاً، منذ متى والمتجر يتبع أحدا أخر غير صاحبه، وما هى مجموعة المتاجر التي يتكلم عنها هذا الرجل فأنا لم اسمع عنها من قبل ولم يتكلم احد من العاملين بالمتجر بمثل هذا القول سابقا،ثم من يكون صاحب المجموعة هذا الذي يريد أن يقابلني، ومتى رآني وأي عمل أعجبه مني - أسئلة كثيرة بدأت تطرح نفسها في ذهن طارق ولايكاد يجد لها تفسيرا،غير انه في النهاية نحى الأمور جانبا فهى سويعات قلية وتتضح الرؤيا ويظهر كل شيء ويحصل على أجوبة لجميع أسئلته التي تراوده وتحيره، ذهب طارق في الموعد المحدد لمقابلة الرجل المزعوم،وما أن التقت عيناهم حتى أدرك طارق أن هذا الرجل ليس بتاجر ولا يحمل صفة من صفات التجار، فعينية تملؤهما قسوة وجبروت،وصوته أجش قاطع، ووجهه صلب لا يبدو عليه أي علامات يمكنك أن تقراء منها ما في داخله أو تستنبط منه شيء .

أصابني نوعا من الذعر وشعرت أن هذا اللقاء ليس باللقاء العادي وانه لايحمل لي خيرا مثلما ظننت، وقبل أن استرسل في أفكاري عاجلني الرجل قي أسلوب حاد بقوله:

- أنت طارق الذي كان يعمل متطوعا في الجيش المصري وعملت في حرس الحدود فترة طويلة من خدمتك قبل أن تسرح من الجيش ويتم فصلك لسوء خلقك ،

قاطعني قبل أن أجيب على سؤاله، قائلا:

- اسمعني ياطارق ولا تعلق خذ ما عندي ثم أسمعك بعدها،

أومأت برأسي موافقا وأخذت انظر إليه مشدوها كمن ينتظر الحكم بالإعدام،

استطرد قائلا:

- لا تدافع عن سوء سلوكك فمن اجل هذا اخترناك للعمل معنا، ونحن نعلم جيدا انك ستكون لنا خير معين، و سوف نوفيك أجرك ونعلو بقدرك بقدر ما تقدمه لنا من خدمات، فنحن منظمة تعطى بقدر ما تأخذ ونحمي رجالنا، ولنا رجال في كل مكان في العالم، وقد اخترناك بعد دراسة مستفيضة لشخصيتك وظروفك وقدراتك ووجدنا فيك الرجل المثالي للقيام بالأعمال التي سوف تكلفك بها المنظمة في بلاد الشرق .

صمت الرجل قليلا، وأردت أن اسأله سؤال غير انه أجاب بحركة من يديه أن اصمت، وأخذ يكمل حديثه:

- اسمعني يا طارق لقد جئتك آمرا فانا لم أتى هنا لأستشيرك أو اعرض الأمر عليك،بل جئت أعطيك الأوامر المطلوب منك تنفيذها، وبمجرد أن جلست وتحدثت معك أصبحت رجل من رجالنا، لك مالنا،وعليك ما علينا، واعلم يا طارق أن خيانة العهد ليس له عندنا سوى القتل،فا حفظ ما أقوله لك جيدا ولا تفكر يوما في الخيانة أو العصيان فقد اطلعت على أسرارنا وما علمته الآن وسوف تعلمه بعد ذلك سرا من الأسرار الواجب كتمانها وعدم البوح بها حتى لأقرب المقربين إليك.

نظرت في عين الرجل نظرة متسائلة هل يمكنني الكلام أم يجب الانتظار، فهمني الرجل وأومأ بالموافقة على التحدث .

- أنت تحدثني الآن في أمور جادة ولم أتعرف بعد على شخصك وطبيعة عملك والأعمال التي سوف أكلف بها .

- أنا الرجل المكلف من التنظيم بالحديث معك ونقل أفكارهم وأوامرهم إليك.

- أى تنظيم تقصد، أو ليس أنت صاحب مجموعة المتاجر التي كنت اعمل بأحدها .

- كنت أظنك أفطن من ذلك،أى متاجر تتكلم عنها، أنها واجهة لنا يديرها بعض الصبية ممن يعملون معنا ويأتمرون بأمرنا .

- وماذا تعملون أنتم وفي أي مجال يكون عملكم .

- يمكنك القول أننا تنظيم دولي يعمل في تهريب السلاح ولنا شبكة دولية تعمل بكفأة عالية ورجالنا منتشرون في كل مكان .

أصابتني رجفة سريعة وازدادت ضربات قلبي عندما أدركت أنى أتعامل مع احد رجال المافيا اللذين طالما سمعنا عنهم وكأنهم قصص خيالية نخيف بها بعض ذو القلوب الضعيفة ونتحاكى بها، غير أنى لم أكن أتوقع يوماً أنى سوف التقي بأحدهم وأتحدث إليه وجها لوجه، بل ويأمرني بالعمل معهم،

تمالكت نفسي بعض الشيء وسألته:

- هل انتم مافيا تهريب أسلحة .

أجابني بامتعاض:

- نعم،

- ولماذا وقع اختياركم على شخصي للعمل معكم .

- اسمع يا طارق أنت عدو لنا وقد اخترناك لتكون أحد رجالنا وتصير صديقنا.

- كيف أكون عدو لكم وأنا لم افعل شيء يضيركم

- بل فعلت ما يضيرنا كثيرا وكم أوقعت من رجالنا على الحدود المصرية، وبسببك فشلت عدة صفقات أسلحة كانت معدة لدخول بلادكم واستطعت أنت ومن معك من القوات القبض على بعض رجالنا ومصادرة تلك الشحنات،ألا تتذكر تلك الأيام .

عدت بذاكرتي سريعا إلى أيام خدمتي بالجيش على الحدود والكم الكبير من عمليات تهريب المخدرات والسلاح التي ساعدت في القبض على الكثير من منفذيها حتى صرت ممن يخشاه هؤلاء المهربين ويعملون له ألف حساب، وأذكر أن قدرتي على الإيقاع بتلك العصابات شفعت لي أكثر من مرة عند القادة في بعض التصرفات الهوجاء التي كنت أقوم بها وخاصة معاملتي القاسية لجنود السرية اللذين يعملون معي وعدم تنفيذ أوامر بعض الضباط .

عدت بسرعة من أفكاري ونظرت للرجل متسائلاً:

- وماذا بعد ؟

أجاب باقتضاب:

- لك أن تحمد الله أنك لازلت حياً ترزق فقد كانت هناك بعض الآراء التي تطالب بتصفيتك جراء ما كبدته للمنظمة من خسائر في الماضي، غير أن بعض الأصوات العاقلة رأت في وجودك بيننا ما يمكن أن يكون فيه الخير وتعمل على تعويض ما أفسدته وأضعته علينا، وقد انتصر الزعيم لهذا الرأي ورأى فيه الصواب، وها نحن نعرض عليك أن تكون أحد رجالنا في التخطيط والتوزيع لصفقات السلاح بما لك من اتصالات وخبرة كبيرة في هذا المجال .

- وماذا لو رفضت العمل معكم ؟

- نحن نعلم انك اذكي من أن ترفض العمل معنا .

- وإن لم أكن بالذكاء الذي تتصورونه !!

- نعلم أيضا انك لست بالغباء الذي يجعلك ترفضنا .

- نعم ولكن ماذا سيكون ردة فعلكم أذا حدث ذلك ؟

- لك أن تتخيل ردة فعل عصابات المافيا مع من خان .

- ولكنى لم أخون أنا فقط أبدى عدم موافقتي .

- قوانيننا من يعلم عنا ويتركنا فقد خان .

- وما جزاء الخائن ؟

- ليس له سوى الموت وليس غير الموت .

- أهه،إذا ما المطلوب مني الآن .

- ليس مطلوب منك سوى أن تفكر جيدا في الحديث الذي دار بيننا وتنتظر منا الإشارة ببداية العمل .

وقف الرجل استعدادا للمغادرة،غير أنى نظرت إليه وعاجلته بسؤال سريع ومباغت.

- هل أنت زعيم هذا التنظيم ؟

نظر إلى الرجل طويلا ثم انفجر قي ضحكة هستيرية وتركني وانصرف، غادرت المكان وأخذت أتجول في شوارع المدينة على غير هدى، و الهواء البارد يلفح وجهي،وسرعان ما تساقطت الأمطار غزيرة تلقيتها على رأسي وجسدي غير عابئ بها وكأنها تحاول أن تصفعني بقسوة حتى أفيق من هول ما سمعت وما سوف ينتظرني الأيام القادمة، أخذت هذه الليلة أهيم علي وجهي في الطرقات لا أدري

من أمري شيئا ولا اعرف أي الطرق اهتدي حتى وجدتني أخيرا أمام السكن ففتحت بابه وغيرت ثيابي وخلدت إلى نوم عميق .

لم أدرى الخطوة التالية الواجبة علي حتى أخطوها، فكنت انتظر كل يوم أن يأتي بجديد ولا جديد يحدث،حتى فوجئت في أحد الأيام بعد مرور حوالي أسبوع من لقائي مع رجل العصابة الغامض بشخص يطلب اصطحابي معه في سيارته إلى حيث يوجد اجتماع هام يجب حضوره .

كنت خلال هذا الأسبوع أضرب أخماسا في أسداس وأحاول أن استوعب الموقف تماما، فقد أخذت على غرة ولم استطع تقييم موقفي واتخاذ القرار السليم . ويبدو أن كلمة المافيا في حد ذاتها أصابتني برعب كاف لشل تفكري وتعجيزي عن اتخاذ القرار، ولكن ما أدهشني هو شعوري بالراحة والميل للاستجابة والعمل مع هذا التنظيم العصابي، وكانت هذه مفاجأة على عكس ما توقعت في بداية الأمر،فيبدو أن ما لاقيته خلال السنين الماضية من قهر وذل قد اضعف مقاومتي وجعلني على استعداد لإلقاء نفسي في النيران حتى أتخلص من اللعنة التي أصابتني،خاصة بعد أن تحايلت على الموقف وحاولت أن اثبت لنفسي أن ما سوف أقوم به هو نوعا من أنواع التجارة، ربما يرفضها القانون ولكنها في النهاية تجارة وربحها كبير والقائمين عليها قادرين على حمايتي وضمان سلامتي .

لماذا لا أكون عضوا في هذا التنظيم الدولي حتى وان كان مطاردا من القانون ،فطالما عملنا بشرف ولم نخالف القوانين وكنا نسير بجوار الحائط، فماذا جنينا سوى الفقر والذل،وربما يكون هذا الشباك هو الأخير المتاح لي للانطلاق

إلى حيث الحرية والآمال والطموحات والنجاح، فماذا لو رفضت وأغلقت بيدي هذا الشباك المـوارب ، لن يتبقى سوى الضياع والفقر، بل ربما تكون رصاصة احد أفراد هذا التنظيم تحمل معها كلمة النهاية،إذاً فليس أمامي خيار وان كان هناك اختيار فقد اخترت هذا الطريق الشائك ولتبدأ رحلتي من هنا وننتظر الأيام القادمة ماذا سوف تقول وماذا سوف تخطه لنا الأقدار.

ركبت السيارة مع رجل العصابة وانطلقت بنا سريعة حتى وصلنا إلى بناية فخمة وسط البلد ، صعدنا سويا دون أن نتبادل كلمة حتى وصلنا الطابق الرابع وقرأت على الباب يافطة تفيد أنه مكتب يخص أعمال الديكور للمنازل وغيرها، وجدت في الداخل احد الأشخاص يجلس على المكتب في الصدارة، أخذني من يدي ودخل معي إلى حجرة ملحقة بالمكتب بها إضاءة خافتة ومكتب كبير الحجم أمامه كرسيين فقط ولايوجد بالغرفة شيء أخر،تركني الرجل وذهب وبعد برهة صغيرة جاء شاب في الثلاثينات من عمره جلس أمامي وبعد إلقاء التحية قال في صوت هادئ:

- أستاذ طارق لقد أخذت وقتك الكافي في التفكير واتخاذ القرار ونحن على يقين انك وصلت للقرار الحكيم بالموافقة بالتعاون معنا ، ولن أسألك عن قرارك فنحن على يقين من هذا،. وسوف نبدأ العمل من الآن، وبداية أود أن تعلم أن عملنا تحوطه المخاطر من جميع الجهات وبقدر تكتمنا وحفظنا لأسراره تزداد نسبة الأمان، أي أن رأسمالنا حفظ أسرار المنظمة والعمل المكلفين به، واعلم أن هناك جهات كثيرة تتبعنا وتعمل على الإيقاع بنا، وان كانت هذه الجهات تملك السلطة والذكاء فنحن نملك ما هو اقوي من ذلك بكثير ، نملك المال

الذي نشتري به من نشاء ولدينا من الذكاء والعقليات والأجهزة ما يمكننا من التغلب عليهم ودحض خططهم، ودائما نحن السابقون وهم خلفنا بخطوات، فلا تخف ولا تخشى شيء في عملك معنا،

قلت له:

- ما طبيعة عملي بالضبط ؟

- لن تعمل شيء لا يتفق مع طبيعتك وخبراتك،نحن نوظف كل شخص في المكان المناسب له حتى يمكن أن يعطي اكبر العطاء .

- ما المطلوب مني الآن ؟

- أمامك شهرين سوف تخضع فيهما لتدريبات كثيفة تستعيد فيها ذاكرتك عن الأسلحة وطرق تهريبها وكيفيه التعامل مع الطرق الوعرة للوصول إلى حدود البلدان المطلوب التعامل معها،وكذلك كيفية قراءة الخرائط واختيار أفضل الطرق وأقصرها،ثم كيفية تسليم وتسلم الأسلحة وثمنها، والرجال والمنظمات التي نتعامل معها، وغير ذلك الكثير، هذه الدورة التدريبية سوف تفيدك كثيرا وتوسع من آفاقك وتجعل منك رجل على دراية كاملة بعمل المنظمة وكيفية التخطيط والوصول لأهدافها،

- ولكن لماذا يجب تعلم كل ذلك ألا تخشون انقلابي عليكم بعد معرفة كل هذه المعلومات الخطيرة ؟

- اسمع يا طارق، لقد اخترناك بعناية ودرسنا شخصيتك وإمكانياتك،ووجدنا انك تصلح زعيما ورئيسا لعدد من المجموعات تعمل تحت إمرتك، فأنت لن تكون فردا عادي بل سيكون لك سطوة ونفوذ داخل المنظمة ويؤخذ برأيك في كثير من الأمور الهامة، ونحن نُعدك لهذا الغرض، فحاول أن تلم بكل شيء تتدرب عليه وتعي تماما ما تفعله المنظمة من أجلك، إن حياتك من اليوم سوف تتغير تماما ولن تصبح كما كانت من قبل، فيجب عليك أن تَعُد نفسك جيدا، وتأقلم نفسك على حياة مختلفة تماما،

- حسناً، وهل استمر بالسكن والعمل في المتجر الذي أعمل به ؟

- يجب أن تنسي حياتك السابقة تماما وبعد انتهاء الدورة التدريبية التي سوف تحصل عليها سوف نوافيك بالخطوة القادمة الواجب عليك إتباعها، فدع كل شيء لوقته ولا تتعجل الأمور،فنحن قد رسمنا لك الطريق الذي سوف تسير عليه،وكل شيء محسوب بعناية .

انتصب الرجل واقفا مؤذناً بنهاية اللقاء، وقال قبل أن ينصرف،

انتظر غدا سيارة تأخذك إلى مكان التدريب، وسوف تتلقى هناك الأوامر الواجب إتباعها وعليك تنفيذها بكل دقة .

عاجلته بالسؤال المعتاد:

- هل أنت زعيم التنظيم ؟

نظر نظرة تعجب وابتسم وذهب .

انتظرت السيارة في صباح اليوم التالي وفي الموعد المحدد وجدت شابا في العشرينيات من عمره يطرق الباب ويلقي التحية ويطلب مني اصطحابه إلى الموعد المحدد .

ركبت معه السيارة وكالعادة لم نتبادل الحديث طوال الطريق الذي لم يستغرق أكثر من نصف ساعة قدرتها بحوالي" ٤٠ كيلو متر" بُعداً عن محل إقامتي، و طوال الطريق كنت أحاول رسم صورة للمكان الذي سوف أتلقى فيه التدريبات المكلف بها من التنظيم،.وخطر في فكري بعض السيناريوهات المتوقعة لهذا المكان،هل سيكون المكان متسع وبه عدد كبير من المتدربين نستمع جميعاً للمحاضرات التي تلقى علينا ثم نستفسر ونسأل كما كنا نفعل في تدريبات الجيش في مراكز التدريب أم أن للمنظمة طرق أخرى في تدريباتها كونها منظمات سرية ويتم التدريب على أعلى قدر من السرية كما علمت ، وان كان ذلك فكيف يمارسون نشاطهم بعيدا عن أعين رجال الشرطة، وهل مراكز بهذا الحجم من الممكن أن تقام في سرية تامة بحيث لاتعلم السلطات عنها شيئا أم أن هذه المنظمات بما لها من نفوذ تمتلك من المال والسلطان ما يمكنها من شراء رجال في مواقع المسئولية بحيث يمكنهم ممارسة عملهم في أمن وآمان بعيدا عن الأعين المتلصصة والمراقبة المستمرة،راودني الخوف قليلا عندما تذكرت الشرطة وكيف أن هذه المنظمات محظورة وملاحقة امنياً وهذا بالطبع يستلزم أن يكون أعضاءها مسجلين فيما يعرف عندنا بأمن الدولة، وبالتالي فهم مطلوبين وربما هناك بلاغات من البوليس الدولي "الانتربول" ونشرة تلاحقهم أينما ولوا .

ما هى إلا دقائق حتى توقفت السيارة واصطحبني الفتى إلى مبنى منخفض في مكان بعيد نوعا ما عن التكدس العمراني في منطقة راقية مساكنها عبارة عن بيوت منفصلة وكل منها يبتعد عن الآخر بمسافة تحقق له بعضاً من الخصوصية، تتخلل تلك المسافات بعض الأشجار القصيرة ونباتات الزينة الذي تضيف جمالاً على المنطقة وتعطيها خصوصية ورقي،هذا بخلاف الحديقة التي تحوط المنزل من كل مكان ويحيطها سور عالي يلف المنزل بأكمله ويجعل منه منطقة شبه معزولة بعيدة عن أعين الفضوليين .

ترجلت على قدمي حتى وصلت إلى باب البيت،استقبلني رجل في الأربعين من العمر يبدو على مظهره انه يعمل خادما في المنزل أو يقوم على تلبية طلباتهم، فقد اصطحبني من يدي إلى الطابق الثاني من البيت، ولاحظت أن الطابق الأول لا يمكنك اكتشاف ما بداخله وأنت متجه إلى أعلى فالسلم الخاص بالطابق الثاني يقع بعيدا عن مدخل الطابق الأول ولذلك لم استطع أن أتبين شيء عما بداخله أو ألمح به شيء،

قابلني في الطابق الثاني رجل تجاوز الخمسين من العمر رأسه صلعاء لا تكاد ترى فيها شعرة وكأنها صحراء جرداء ضربتها الشمس وأنهكها العطش ففقدت كل أثار الحياة وباتت كالبادية لاينبت لها نبات ولا تزهر لها إزهار،وجسده سمين تميزه بطن متدلاة أمامه وكأنها كرة مستديرة خارجة من ظهره، حتى أنى عندما رأيته تذكرت طفولتي عندما كنا ننفخ البالون ثم نربطه من قبل فوهته فيصبح البالون بالونين إحداهما صغيرة والأخرى الأصلية كبيرة الحجم، فكان الرجل برأسه الصلعاء المستدير وكرشة المتدلي من بطنه يشبه إلى حد

كبير هذا البالون الذي كنا نلهو به ونلعب، و على الجانب الآخر كان الرجل يمتلك عينين حادتا النظر وجبين معصوب دائما وكأنما خلق بوجه عابس لا تعرف البسمة له طريق، جلست أمام الرجل على إحدى الطاولات الموجودة في الغرفة وبدأ يتحدث بأسلوب الخبير الواثق من عمله ومعلوماته، وقد كان حقا هكذا، فقد استشعرت كم المعلومات التي يختزنها هذا الرجل والتي يسترسل في سردها بأسلوب شيق وتسلسل منطقي حتى انه لم يعطيني فرصة لأسأل أو استفسر عن شيء فقد بدت الأمور واضحة أمامه والأسئلة مقروءة ، وكان كلما خرج من فكرة استلمتنا فكرة أخرى تكملها وتعضدها،استمرت المحاضرة ولا أدرى كم أخذت من الوقت فقد مر الوقت سريعا وما ادري إلا والغذاء يتراص أمامنا ويدعوني الرجل لتناول الطعام حتى يمكننا استكمال تدريباتنا ومحاضراتنا، وجدت من نفسي استجابة سريعة لمعلومات هذا الرجل وفضول نحو معرفة كل شيء عن هذا العالم الخيالي بالنسبة لي،فقد أدركت أن هذا التنظيم لا يعمل من فراغ وانه يمتلك كوادر بشرية وثروات مالية تفوق الخيال الذي حاول يوما أن يصل إلى سقف هذا التنظيم،ووجدت في نفسي ميلاً عظيما نحو الإلمام بكل المعلومات التي تلقى أمامي والتي يحاول الرجل أن يبسط البعض منها ويلقي البعض الأخر بلاتعليق معتمدا على مقدرتي على الفهم التي استطاع أن يستشفها ويدركها .

قضيت طوال اليوم مع هذا المدرب المتضخم الجسد والمعلومات التي لاتقل حجما أو ثقلاً عن وزنه الزائد .

أنهى الرجل درسه الأول وأمرني بالانصراف في السيارة التي سوف تأخذني إلى حيث أتيت على موعد آخر بعد يومين في نفس الموعد والمكان،

استمر ترددي على هذه المنطقة وتلقى التدريبات على يد هذا الرجل السمين لمدة قاربت الأسبوع حتى جاء اليوم ووجدته يضع القلم الممسك به على الطاولة ثم يمسك به ثانية ويكسره نصفين ويبلغني بلهجة جادة أن التدريب معه قد انتهي ومن الغد كلاً منا في طريق وإذا التقينا صدفة فلاهو يعرفني ولا أنا اعرفه .

خرجت من عند الرجل وأقلتني السيارة إلى مكان إقامتي، غير أني طلبت من السائق النزول قبل البيت بعدة كيلو مترات،. فقد شعرت بحاجتي إلى الترجل وقطع شوارع ايطاليا مشياً على الأقدام،فقد وجدت في نفسي راحة وفي جسدي لياقة تجعلني استمتع بالسير وحدي في هذه الشوارع الجميلة ومتاجرها المضيئة ومظاهر الحياة التي تدب في كل شيء فيها،للمرة الأولى اشعر بطعم الحياة وأتيقن أن أيام اللعنة قد ولت ويجب أن استقبل الحياة بوجه غير الوجه الذي كان يلازمني، فها هى أبواب الأمل تفتح أمامي بعد أن أغلقت أعواما طويلة حتى أني ظننت انه لا أمل في أن تفتح لي هذه الأبواب،

حاولت ترتيب أفكاري لأرى الخطوات المقبلة وما يمكنني فعله في الأيام القادمة، غير أنى رجعت عن هذه الفكرة وتركت نفسي للانطلاق بلا تفكير في ماضي أو مستقبل، فما أجمل أن تعيش اللحظة التي تجد نفسك فيها وقد انتشيت بالسعادة وغمرتك البهجة ربما بسبب أو دون سبب .

في صباح اليوم التالي تكرر معي نفس السيناريو وجاءتني سيارة مختلفة عن الأولى وأخذتني إلى مكان آخر ومدرب آخر وصفات وشكل مختلف تماما، وطريقة وأسلوب ونوعية تدريب تختلف عن سابقتها، فقد كان التدريب هذه المرة على الأسلحة وأنواعها وأماكن تواجدها وكيفيه الحصول عليها، ومعرفة الغث والنفيس منها، والمطلوب من كل نوع، و الأنواع التي يكثر عليها الطلب، وخريطة بالأسواق المفتوحة لهذه الأسلحة ومتطلبات كل سوق منها، وعلمت أن هذه الأسواق قد تكون عصابات تعمل في الخفاء أو منظمات دولية أو بلدان كاملة تتعامل في سوق السلاح وتبيع وتشتري، فهو سوق رائج و من يعمل به من صفوة القوم فقد يتجاوز سوق المخدرات والمعادن النفسية بمراحل كبيرة، ويتعامل فيه شخصيات على قدر كبير من السلطة والوجاهة، بل إن بعض البلدان بها من يعمل بهذا السوق وقد يكون وزيرا في حكومتها،

تلقيت معلومات كثيرة تخص الأسلحة من هذا المدرب وأضاف إلى علمي أشياء لم تكن تخطر لي على بال وزاد على معلوماتي الكثير، وبعد المدة المحددة تكرر معي السيناريو بسيارة أخري ومكان آخر ومدرب آخر واستمر هذا الوضع قرابة شهرين حتى أيقنت أنى قد حصلت على المعلومات الكافية وأنجزت فترة التدريب بنجاح كامل وأصبحت الآن على استعداد للقيام بالأعمال التي توكل إلى لتنفيذها على ما يرام، غير أنه ما كان يشغل فكري أنه حتى الآن لم أكن اعرف زعيما لهذا التنظيم ولا اعلم شيء عن من الذي سوف أتعامل معه وأتلقى منه التعليمات ويكون مسئولاً عن المهام التي سوف أقوم بها، وهل هذا التنظيم يسير هكذا كلاً لا يعرف شيء عن الآخر والجميع يعمل ولا يجب على أحد أن يسأل ويستفسر ، أنا لم اعتاد هذا العمل السري فقد تعودت أن ألم

بجميع الأمور في يدي حتى استطيع التحرك وانجاز المهام وأنا على علم تام بما يجري حولي، واذكر عندما كنت في الجيش كنت أصر على معرفة نوع المهمة قبل القيام بها، و اعمل على معرفة كل التفاصيل الصغيرة قبل القيام بمهمتي، فكيف بي اعمل هكذا بهذه الطريقة الهلامية التي لا اعرف لها أبعادا ولا زعيما ولا هدفا،أرقتني هذه الفكرة بعض الشيء غير أني طردتها عن عقلي وتركت الأمور تجرى في أعنتها فربما الأيام تحمل الحل أو تدفع بي إلى شيء أفضل مما اطلبه .

بعد حوالي يومين جاءتني سيارة كالمعتاد وطلب سائقها أن يصطحبني معه إلى لقاء تم تحديده بمعرفة المنظمة، ركبت معه السيارة وسارت بنا مسافة كبيرة حتى وصلت إلى أطراف المدينة، انتابتني خلال هذه الرحلة أفكارا كثيرة، وخفق قلبي أكثر من مرة، فهى رحلة غير سوابقها، فأنا أدرك أن فترة التدريب قد انتهت وقد أصبحت الآن مؤهلاً تماما للقيام بعمل ما، لذلك أيقنت أن رحلتي هذه لابد أن تكون لمقابلة أحد الزعماء لهذا التنظيم، بل ربما تكون لمقابلة زعيم التنظيم نفسه، الذي سوف يجلس معي ويطلعني على نوع العملية المطلوب القيام بها، وأي الأماكن سوف يكون مسرحاً لتلك العملية .

تملكني نوعا من الخوف عندما أدركت أني بين قوسين أو ادني من لقاء هذا الرجل والتكليف بالقيام بالعملية الأولي لتنظيم المافيا العالمي، وصلنا أخيرا إلى حيث يقطن هذا الرجل، ولا أدري لماذا طاف في مخيلتي الممثل المصري محمود المليجي عندما كان يقوم بدور زعيم العصابة " الرجل الكبير" الذي يظل متخفياً طيلة الفيلم إلى أن يتكشف أمره في النهاية ويظهر على حقيقته

ليكون أحد وجهاء المجتمع وقد تخفى خلف منصبه ومارس دور الزعامة في تهريب المخدرات والسلاح وغيرها، وعادة ما يكون ظهوره ليقتل أو يُقتل وينتهي الفيلم على هذه النهاية التي لايعرف الجمهور هل هى نهاية مأساوية أم أنها النهاية التي تمنوها وانتظروها طويلا،

دلفت إلى صالة كبيرة يتبعها باب صغير أشار لي الخادم بالتوجه إليه، وخيم على شعور أنى سوف افتح الباب لأجد "المليجي" ينتظرني بلكنته المميزة الباردة، فتحت الباب وتوجهت إلى حيث يجلس رجل في العقد الخامس من العمر، تبدو ملامحه غربية من حيث زرقة العينين والوجه الأبيض والشعر الأصفر الكثيف الذي يغطي رأسه،ويبدو على هندامه الأناقة العالية وحسن اختيار الملبس، تبسم الرجل بطريقة ودودة ودعاني للجلوس،وتكلم معي كثيرا متسائلا عن أحوالي وحياتي السابقة، وحياتي هنا في ايطاليا، ومدى استفادتي من التدريبات التي تلقيتها على أيدي خبراء المنظمة، وكأنما أراد أن يعلم كل شيء عن ماضي حياتي وحاضرها .

تحدثت معه وفتحت له قلبي بعد أن بث حديثه الطمأنينة في نفسي بطريقته الودودة،وصارحته بمخاوفي وآمالي وطموحاتي،وامتد اللقاء بيننا لأكثر من ثلاث ساعات شعرت خلالها أني أتحدث مع صديق، وأننا تقاربنا وكأننا نعرف بعضنا البعض منذ أعواما طويلة وليست معرفة سويعات قصيرة،

بعد حديثنا الطويل فاجأني الرجل بقوله:

- طارق يمكنك أن تعتبرني صديق لك فأنا لا استطيع العمل إلا مع أشخاص ائلفهم ويألفوني فاجعل العلاقة بيننا علاقة صداقة أكثر من كونها علاقة عمل.

- نعم، ولكن إلى الآن لم أتعرف عليك وعلى طبيعة عملك في المنظمة على الرغم من حديثنا الطويل .

- نعم،انك سوف تعمل معي، وتتلقى الأوامر والتعليمات الخاصة بالعمليات التي سوف تقوم بها من خلالي، ويمكنك تقدير أنى المسئول المباشر عنك الفترة القادمة .

- هل يعني هذا انك الزعيم الذي يقود المنظمة ويخطط لأعمالها،

ابتسم ابتسامة خفيفة واستطرد ولم يعلق وكأنما لم يسمع شيء،

- اسمع يا طارق أن عملنا كما علمت ليس بالعمل الهين وهناك أشياء لايجب أن تسأل عنها أو حتى تلمح إليها،دع الأيام توضح لك الحقائق، ولكن الآن قف حيث أنت ولا تحاول أن تجرب ذكائك مع احد في المنظمة، فالجميع يعمل وفق منظومة محكمة ، ولا يسأل أحدا عن شيء أكثر مما يطلب منه وفي حدود ما كلف به، ولك أن تعلم انك تجاوزت في عملك الكثير من أفراد التنظيم وتخطيت العديد ممن يعملون معنا منذ سنوات طوال،وهذا راجع لثقة قيادات التنظيم في شخصك وانتظارهم الكثير على يديك، لذلك تم إعدادك أعداد جيد وسوف يوكل إليك أعمال اكبر بكثير مما تتصور، فنحن نعاملك معاملة الزعماء داخل المنظمة وهذا شرف وتقدير لا يناله أو يصل إليه أحد بسهولة ، ونحن نثق انك على قدر المسئولية وسوف يكون لك باعا وذراعا

وتترك أثـرك الواضح في نجـاح عمليـات كثيرة للمنظمـة كانـت تلاقي أخفاقـا في الماضي وخاصة في البلاد العربية حيث يكثر الطلب على السلاح ويشتد الصراع بدايـة من صـراع القبائل وصـراع الثـأر، نهايـة بالجماعـات المتطرفـة والتعصـب الـديني وغير ذلـك ممـا يتطلـب إقبـالا كبيرا على شـراء السـلاح ويجعـل تجـارة الأسلحة تجارة رائجة في تلك الأماكن.

- نعم أدرك هذا وأقدره تماما وقد تلقيت معلومات كافية في الدورة التدريبية التي حصلت عليها وأنا على أتم استعداد للقيام بما تأمروني به .

- نعـم اعلـم ذلـك ولكـن أردت أن أُذَكـرك واضـع أمامـك النقـاط الهامـة حتى لا تغيب عن عينيك، فأنت الآن في بداية التكليف بإحدى هذه العمليات، وسـوف تكون بصحبة عدد من الأشخاص يتزعمهم رجل من رجالنا له خبرة طويلة في عمليـات بيـع السـلاح وتهريبـه إلى مختلـف الأمـاكن، و أريـدك أن تكـون بجـواره تتعلم منه،وتكتسـب الخبرة العمليـة،وتتعرف على الطرق التي يسـلكها وكيفيـه تفـادي أمـاكن التفتـيش والنقـاط الأمنيـة،يجب أن تكـون متيقظـا تمامـا لكـل خطـوة من الخطـوات التي يسـلكها هـذا الرجـل وإذا صـعب عليـك شيء لـك أن تسـأله وسـوف يجيبـك باسـتفاضـة، يمكنـك أن تَعُـد هـذه العمليـة تـدريب عملي اسـتكمالا للتـدريبات النظريـة التي تـدربت عليهـا سـابقا،ولا داعي أن تمـارس دور القيادة والزعامة الذي تتوق إليه في هذه العملية فأنت لست مكلف بها بل هي لغيرك فاتركه يدير أموره ويسيرها بطريقته حتى تكلل بالنجاح ونحن على ثقة في قدرته على اجتياز الصعاب والعودة غانما من هذه العملية الكبيرة .

توالت عمليات التهريب التي شاركت بها،واستطعت أن اكتسب خبرة طويلة مع مرور الأيام،ونازعتني نفسي نحو الزعامة، فاستطعت بعد فترة قليلة أن أكون احد الزعماء في تهريب شحنات الأسلحة وبيعها والخروج بها عبر منافذ بلاد والدخول إلى منافذ بلاد أخرى، وأصبحت مصدر ثقة لقادة المافيا هنا في ايطاليا، وشعرت أنني قد استعدت شخصيتي المفقودة ووجدت نفسي في هذه الزعامة الحقيقية التي يستطيع الشخص أن يعطي فيها ويجد المقابل السخي نظير هذا العطاء .

كان قد مضى على وجودي في ايطاليا حوالي ستة أعوام، كانت بدايتها حياة بائسة وغير واضحة المعالم . وها هي تنتهي نهاية أعدها البداية الحقيقية لحياتي وتحقيق أحلامي وأمنياتي،اعتدت القيادة وتزعم الأفراد اللذين يخرجون معي لتسليم شحنات الأسلحة، ووجدوا مني قسوة وغلظة في عدة مواجهات صادفتنا مع بعض العصابات من قاطعي الطرق أو رجال أمن أو حدود ، بل الأمر تجاوز الغلظة إلى القتل، نعم فقد تعاملت مع بعض الأفراد اللذين سولت لهم أنفسهم خيانة اتفاقياتنا ومحاولة الاستيلاء على شحنات الأسلحة والهروب بها دون دفع المقابل المادي وهو ما دفعنا إلى مواجهتهم والتعامل معهم بالأسلحة النارية، واستطعت أن اسقط الكثير منهم بين قتيل وجريح،.و أصبح مجرد ذكر أسمي يصيب الجميع بالرعب ويفقده ثقته بنفسه.

ذاع صيتي بين جموع المهربين واستطعت بما امتلكه من روح الزعامة وما تلقيته من تدريبات في الجيش وعلى أيدي خبراء هذا التنظيم أن أصبح من الزعماء المعدودين اللذين يشار إليهم بالبنان، وازدهرت أحوالي المادية واتسعت

أملاكي وأصبحت في بضع سنين ذو جاه وسلطان قل أن يجتمعا لأحد في هذه المدة القصيرة .

تخليت عن اسمي الحقيقي واشتهرت بين الجميع بالاسم الحركي"صخر" الذي اخترته وكنيت به، حتى أن الجميع باتوا لا يعلمون شيء عن طارق وأصبح صخر هو الزعيم بينهم، اسم يعمل له ألف حساب ويخشاه القاصي قبل الداني،

ظللت على هذا الحال وقد كلفتني المنظمة بقيادة عدد من أفرادها والقيام ببعض العمليات منها الكبير وقليل منها الصغير، حتى فوجئت في أحد الأيام بمرسال يطرق الباب ويطلب المقابلة والحديث معي في أمر هام، كنت حتى هذه اللحظة قد تعرفت على عدد ليس بالقليل من زعماء التنظيم من الصف الثالث و الرابع وكنا نعمل معا ونخطط ونتبادل المعلومات سويا، ولا يعرف أحد منا شيء عن القيادات الرئيسية في هذه العصابة، ولم يحاول احدنا أن يسأل عن ذلك بعد أن علمنا أن لكل منا حدود يجب أن لايتجاوزها ولا يحاول معرفة أكثر مما يتاح له وما تريد المافيا أن يعلمه ،قنعت بذلك، فلما اشغل تفكيري بشيء ربما يضر أكثر مما يفيد، فيكفيني معرفة من أتعامل معهم ولا أتطلع إلى المزيد فما أنا فيه أكثر بكثير مما كنت أتوقع، أجبت الطارق وأخذته إلى المكتب وانتظرت أن يتحدث بما جاء من اجله، فقد اعتدت على مثل تلك المفاجآت وهؤلاء الزوار اللذين لا اعرف عنهم شيئا سوى أنهم مندوبين لزعماء المنظمة ويحملون رسائل تحوي بعض التعليمات والأوامر، ويربط بيننا كلمة سر نستطيع عن طريقها التعامل معا والاطمئنان إلى الرسول القادم والتحدث

والاستماع إليه بكل ثقة، وكلمة السر من الصعب اختراقها ويتم تغييرها كل برهة من الوقت ويعلم بها الجميع وفق برنامج خطط له جيدا، فالمنظمة ليست عصابة بدائية تخطط بالليل وتُنفذ بالنهار بل هى منظومة متكاملة تتبع أحدث الطرق التكنولوجية وبها مخططين ومبرمجين وواضعي خطط وخطط بديلة على أعلى مستوى،وما أردت قوله أنه يمكنك أن تكون آمنا تماما وأنت تتعامل مع أفرادها وخططها وتعليماتها، فقد خدمت بالجيش واعلم جيدا معنى أن يكون لديك هذه القدرة الكبيرة من التنظيم والتخطيط ومقدار نسبة النجاح التي تنتظر عملياتك وأنت بهذه الكفاءة والإمكانيات العالية، تطلع الرجل إلى وجهي طويلاً وقال في لهجة قاطعة لا تحتمل التعليق أو المقاطعة:

- صدرت أوامر من قادة التنظيم بضرورة سفرك إلى ألمانيا في غضون أسبوع من الآن، وسوف تصلك التفاصيل تباعا،

أجبته باندهاش:

- هل هى رحلة سريعة ثم أعود،أم أنها رحلة طويلة الأمد.

- لا أعرف.

- هل انهي بعض حاجياتي هنا أم أن الأمور ربما تختلف.

- لاتعليق.

لم أكثر من أسئلتي فقد اعتدت على مثل تلك الرسائل القصيرة وأدرك أن الرجل ليس في جعبته الكثير ليقوله، ولو يعلم أكثر مما قاله لتحدث به،

انتصبت واقفا وودعت الرجل إلى خارج الباب وجلست أفكر في هذا الأمر، فمنذ مدة ليست بالقصيرة لم تصلني رسائل غامضة مثل تلك الرسالة، فقد كانت الرسائل السابقة تكليفات بالعمليات التي أقوم بها وبعض الأوامر والإرشادات وقد اعتدت مثل تلك الرسائل، غير أني أرى هذه الرسالة غريبة بعض الشيء، فهى رسالة لا توحي بشيء،ولم تعطيني خيطا اهتدي به، فما معنى أن أسافر إلى ألمانيا، وماذا يوجد لنا في ذلك البلد البعيد، هل سأكلف بإحدى العمليات هناك، أم أنها زيارة تعارف واكتساب خبرة ، أم أرادوا مكافأتي برحلة سياحية لبلدان أوربا أبتدئها من ألمانيا وانتقل عبرها إلى عدد من البلدان الأخرى، ولكن لما كل هذه الحيرة فلأنتظر فسوف تأتيني الرسالة الثانية سريعا، فالسفر خلال أسبوع من الآن فلابد أن أوافى بالمعلومات خلال الأيام القليلة القادمة، قد كان وصدق حدسي، فقد فوجئت بزيارة من هذه الزيارات المفاجئة بعد ثلاثة أيام ورجل غريب لا اعرفه كالمعتاد ونقل رسالتهم الثانية:

- صخر، سوف تسافر نهاية هذا الأسبوع، وستجد ترتيب لأمورك كلها قبل السفر، وكذلك موعد الرحلة ومكان إقامتك هناك، وغير ذلك مما تود السؤال عنه.

- نعم،ولكن كم من الوقت أقضيه في ألمانيا، وهل هى زيارة قصيرة أم رحلة طويلة الأيام تستوجب الاستعداد لها .

- لا ليست قصيرة بل أنها رحلة بلا عودة، سوف تهجر ايطاليا تماما وتقيم في ألمانيا بصورة دائمة .

بُهت عندما سمعت هذه الإجابة، كيف اترك ايطاليا وأغادرها بلا رجعة، هذا الشيء لم أتوقعه أو يخطر لي على بال، غير أني تداركت الأمر سريعا، وحاولت أن أبدو متماسك بعض الشيء،

بادرته بالقول:

- أنا لا اعرف أحدا في ألمانيا، ولم اذهب هناك قط . فماذا عساي أن افعل هناك، ومن هؤلاء اللذين سوف يرتبون أموري، ولماذا اترك ايطاليا، هل جد جديد يشكل خطر على حياتي أو وجودي هنا وتريدون حمايتي بهذا السفر المفاجئ،أم ماذا هنالك بالضبط، سكت الرجل ولم يجيب، أدركت على الفور أن ما عنده من معلومات قد نفذ ولا يوجد شيء يضيفه ولا داعي لإزعاجه بأسئلتي واستفساراتي وانتظار أجوبة على أسئلة لايملك لها رد، قمت مودعا، وقبل أن أصافحه تذكرت سؤال هام طرحته في عجلة واهتمام وتمنيت أن يكون عنده إجابة عليه :

- ماذا عن أموالي وممتلكاتي في هذا البلد وهى كثيرة ومترامية في عدة اتجاهات وبحاجة إلى وقت طويل للتصرف فيها.

- لاعليك من ذلك فلا تخشي شيئا ، كل الأمور سوف تسير على مايرام ويتم انجاز كل شيء، فالرجال هنا كثر وكل شيء معلوم وموضوع له حساب.

حمدت الله أن حصلت على إجابة لهذا السؤال الذي كان قد بدأ يؤرقني عندما علمت بسفري وتوقعت أنها ربما تكون رحلة طويلة، بدأت في اتخاذ إجراءات السفر والاستعداد لهذا اليوم وقمت بتوديع بعض الأصدقاء اللذين

ارتبطت بهم في فترة إقامتي في هذا البلد الحبيب إلى قلبي . وودعت شوارعه ومبانيه، وأماكن قضيت بها أيام تعد من اسعد أيام حياتي،. وحانت ساعة الصفر وركبت الطائرة وغادرت غريبا إلى بلد جديدا وحياة جديدة وأيام لا أعلم عنها شيئا تحمل علامات استفهام ولا أكاد أجد إجابة على الأسئلة التي تدور في خلدي، حلقت الطائرة في السماء وأرحت رأسي على المقعد الذي اجلس عليه وأغمضت عيني ، و حلقت معها بخيالي إلى زمن بعيدا مضى، وأيام عشتها في مصر قضيتها بين طفولة بائسة وفترة شباب مرقت بي لا أكاد أتذكر منها يوما عشته في سعادة، وحارة الملاعين، تلك الحارة التي شهدت مولدي وصباي وعشت بين أهلها، وترعرعت بين أركانها وأزقتها، وأصدقاء تركتهم كادت الأيام أن تمحو من الذاكرة إشكالهم وملامحهم بعدما باعدت بيننا وانتَقلت إلى عالم غريب يختلف كلية عن تلك الحياة البسيطة التي عشتها، تذكرت صديقي أيمن، أين هو الآن، ذلك الصديق الوفي الذي أخذ على عاتقه مساعدتي والخروج بي من أزمتي التي كادت أن تعصف بي، وسعى جاهدا أن ينتشلني من الحالة التي كادت أن توردني الهلاك، ولولا مروءته ووقوفه بجانبي ما وصلت إلى هنا وما تبدل بي الحال، كم اشتاق إلى الحديث معه وتبادل النكات والقفشات مثلما كنا نفعل قديما،ونتندر على الأيام التي قضيناها معا في خدمة الجيش والذكريات الكثيرة التي تربطنا سويا في أيام كنا نعدها الأسوأ، ولكن بعد هذا العمر أجد ريحها واسعد بذكرها واستيقن أنها كانت اسعد أيام عمرنا،، قد أخذتني الأيام وابتعدت بي بعيدا عن هذا العالم الجميل الذي عشته وقضيت به جزء كبير من حياتي،يالا جهل الإنسان لا يعرف معنى السعادة الحقيقية ويظل يسعى ويجرى وراء وهم وخيال ظناً منه أن السعادة

كلها تكمن في هذا الوهم، ويضيع عمره وأيامه ويفقد الكثير من الأهل والأحباب ويظل يحارب السراب ظناً منه انه يمكنه أن يطول السحاب ويمسك بيده السماء ويحقق آماله وأحلامه، حتى إذا ما وصل إلى مبتغاه أدرك انه خُدع وان السعادة الحقيقية هى ما تركه وراء ظهره وابتعد عنه كثيرا في سعيه وهرولته وراء آمال كاذبة وأحلام واهية، كم تُخايلني تلك الأيام واسعد بريحها وأتمنى أن تعود الكَرة مرة أخرى، ولا أبرح حضن أمي وإخوتي، وأصدقائي وجيراني، و حنان، تلك الشقيقة الغالية القريبة إلي قلبي، لقد ظللت أراسلها بانتظام طيلة عدة سنوات ثم باعدت بيننا الأيام والمسافات، يا لقسوة الأيام، هل من المعقول أن يتحجر قلب الإنسان على أهله وأحبته هكذا وتأخذه الدنيا في دهاليزها .

تركت المشاعر والأحاسيس جانبا منذ فترة طويلة، وارتاح قلبي لتركه إياها، فلاشيء يضعف الإنسان سوى عواطفه وخفقان قلبه ،وقد عاهدت نفسي منذ أمدا بعيد أن اترك مشاعر الضعف والقي بها بعيد، فطبيعة عملي لا تحتمل المشاعر الفياضة والنفس الحالمة ، وقد غرست في قلبي القسوة بعدما نزعت منه الرحمة ،فعملُنا يحتاج إلى مخالب وأنياب، ولا يحتمل الضعف أو اللين،ولكن ما هذه المشاعر التي اجتاحتني فجأة وأطبقت بظلالها على وجداني،لقد نسيتها منذ زمنا بعيد، واعتدت الحياة الجديدة بعدما استبدلت جلدي لمحاولة الوصول للنجاح والزعامة المزعومة وسعيت لها بكل جهد وفكر حتى أصبحت قاب قوسين أو أدني من الوصول إلى ما ابتغيه وأتوق إليه، ماذا طرأ عليك في هذه الرحلة الغريبة، ،هل تركت قسوة القلب في ايطاليا حيث المافيا والأسلحة والتجارة الخطرة، وعدت مع هواء الفضاء الواسع إلى طبيعتك

القديمة وذكرياتك وأشواقك، هل يتغير قلبك بتغير المكان والزمان،أم انك اشتقت إلى طارق الذي تركته وراء ظهرك وأبدلته بصخر،ذلك الإنسان القاسي المتبلد المشاعر، الذي اعتاد الدماء وطلقات الرصاص وارتياد الأماكن الوعرة، وقسوة الرجال وشراستهم، وابتعد عن الحياة الهادئة التي تعطي صاحبها مزيدا من الوقت لإشعال فكرة وقلبه، وتجعل للوجدان مكانا بين زخم الحياة يمسح قسوة غطت بعض أركانها، فيحدث التوازن ويستمر الإنسان يحمل معنى الإنسانية والتفاعل مع المجتمع من حوله،أخذني الوقت في الطائرة وأفكار تدور بخاطري لم أكن أعهدها وأنا على الأرض وأحسست بثقل ينزاح من فوق صدري، وهدوء غريب يتملكني، واستطعت أن اضبط بضع قطرات من الدموع تنساب من عيني، لا ادري حزنا على أيام مضت، أم خوفا من أيام قادمة،غير أني أصبحت بحالة غير التي كنت عليها،وكأنني استيقظت فجأة على إنسان جديد عاد بذاته وأفكاره لأيام وسنين ظن انه تركها بلا رجعة، غير أنها ألقت بظلالها وذكرياتها وكأنها رحلة إلى الذات لاستعادة " طارق" الذي ضاع في بلاد الغربة و هاهو يستمر في الضياع في بلاد لا يعلم عنها شيئا وحياة لا يعلمها إلا الله، لم يدري طارق إلا وصوت مضيفة الطائرة تنادي على الركاب بضرورة ربط الأحزمة فالطائرة في طريقها للهبوط وكلها دقائق قليلة وتصل ارض ألمانيا وتنتهي الرحلة الطويلة التي قطعتها الطائرة من ايطاليا إلى ألمانيا، وسافر معها صخر إلى طارق حيث تركه منذ أمدا بعيد .

" ٨ "

على الجانب الآخر كانت حنان تحارب معركة كبيرة خاضتها وهى لا تعي أبعادها، و لا تعلم عن عالمها الخطير شيئا، غير أنها قد اعتادت الوقوف في خندق محاربة الظلم ،ولكنها هذه المرة اكتشفت أن المسألة تجاوزت مرحلة الظلم وباتت أخطر بكثير مما كانت تتصور ، فالأمر يتعلق بكيانات خفاشية تجد حياتها في دجى الليل حيث تتجمع وتخطط وتسعى إلى الفساد وهدم أركان الدولة واللعب على أوتار البسطاء من الناس دون حساب لإحداث خراب أو ضياع أو إزهاق لأرواح بريئة يجدون في إزاحتها عن طريقهم هدفاً ساميا ونجاحاً غاليا يصل بهم إلى تحقيق مآربهم و أحلامهم وتحقيق ما يسعون إليه ويعملون في الخفاء على إتمامه وانجازه، وكأنهم السوس ينخر في ساق نخلة حتى تهوي ويتزاحم على ثمارها حتى يقضى عليه ويلتهمه، لينطلقوا بعد ذلك إلى محاولة تحقيق فكرة مغلوطة في رؤوسهم ليس هذا زمانها وليست هذه الأرض أرضها، أدركت حنان منذ وقت ليس بالقريب أنها خلقت للدفاع على البسطاء من الناس وتبني قضاياهم ومحاولة الوصول معهم إلى حلول تصل بهم إلى نيل حقوقهم، وفي سبيل ذلك كانت كثيرا ما تقف في وجه الجانب الأخر من القضية وهو الجانب الظالم،وفي هذه القضية استباح هذا الجانب لنفسه أكل أموال هؤلاء البسطاء والقضاء على آمالاهم وأحلامهم مستغلا جهلهم تارة و حاجتهم إلى المال تارة أخرى ، واستطاع بما أوتي من حيل شيطانية جر أرجلهم والاستيلاء على أموالهم بهذه الطرق التي لجئوا إليها واحترفوها ثم أداروا لهم ظهورهم غير عابئين بحالات الخراب والدمار وانهيار البيوت التي تسببوا فيها بفعلتهم هذه بعد أن استولوا على ثروات هذه الأسر الفقيرة .

كانت حنان على موعد مع إحدى هذه القضايا التي خاضتها لنصرة المظلوم والسعي لجلب الحقوق التي نهبت على يد جماعة ممن يدعون إلى الصلاح والإصلاح ويتمسحون في الدين ويطلقون ذقونهم ويلبسون الجلباب الأبيض وفي يد كل منهم سبحة يصل طولها إلى مترين، واستطاعوا بهيئتهم هذه أن يسيطروا على قلوب وعقول البسطاء من الناس، ومع حملة إعلانية قوية وبعض الأحاديث الصحفية استقر في النفوس أن هؤلاء جاءوا لينقذوا الفئات الضالة التي لاتعلم عن التجارة أو الشطارة شيء، وبدأ الجميع يتحدث عن شركات الأموال التي تأخذ من الفقير والغني وتسدد لهم الأرباح أضعافا مضاعفة بعد تشغيل هذه الأموال في التجارة الحلال التي تهدف إلى دعم اقتصاد الوطن وتحقيق الرفاهية للمواطنين وزيادة دخلهم دون أن يتكبدوا مشقة العمل والتعرض لأخطاره خاصة لمن لا يملكون كفاءة أو لديهم خبرة بإدارة أعمالهم،وما هي إلا سنوات قليلة حتى ذاع صيت هذه الشركات وأصبح رأسمالها ينافس رأسمال الدولة، وبعد أن كانت الدولة تشجع قيام هذه الكائنات الاقتصادية الهلامية،أصبحت تدرك الآن خطرها وتعمل على محاربتها،وبدا صراع رهيب بين تلك الكيانات التي لملمت الناس حولها بما تحمله من لواء الدين والإيمان حتى جمعت في جعبتها ملايين الملايين من الجنيهات وبات الكثير من الشعب المصري بين أحضانها يضعون أموالهم وينتظرون نهاية كل شهر ليحصدوا أرباح هذه الشركات الغامضة .

لم تكن هذه التجربة جديدة على الشعب المصري، ولكن الجديد الذي جعل الكثيرون يقعوا في حيرة من أمرها، هذه الانطلاقة الواسعة لهذه الشركات التي اتخذت من الإسلام شعارا لها واستطاعت أن تحتال على الكثيرين وتسلب

أموالهم بهذه الطريقة التي لا تخيب مع الشعوب الشرقية المتدينة التي تُسلم لأي طارق يرفع راية الدين وشعاره، وكان للدولة دورا سلبيا في هذا الأمر حيث بدا واضحا تشجيعها لهذه الكيانات حتى أن الكثير من المسئولين ورجال الدين ظهروا مع رجالها وقاموا بالإعلان لهذه الشركات ودعوا الناس للمشاركة في اقتصادياتها حتى أن الشعب المصري ظن أن الحكومة تبارك هذا العمل ووضع ثقته فيها وانهالت الأموال من كل صوب وحدب عليها حتى أصيبت خزائنها بتخمة وامتلأت بنوكها بالعملات وصار ذهبها يملئ أسواق الذهب .

إلى هنا والأمور تسير سيرها العادي، وقد اختلفت الآراء حول طبيعة هذه الشركات وهذه الجماعات، ووقف الكتاب والصحفيون مواقف متباينة اختار البعض منهم الانحياز لها والدفاع المستميت عن مصالحها ربما بحسن نية،وربما بقصد الاستفادة خاصة وقد تكشف ذلك بعد سقوط هذه الشركات وظهور كشوف تضمنت أسماء العديد ممن كانوا يروجون لهذه الشركات ويحصلون على المقابل،، بينما وقف البعض الأخر مهاجما على استحياء ومحذرا من خطورة ما يحدث على الاقتصاد وعلى أفراد الشعب المصري، وهؤلاء كانوا فئة قليلة لم يسمع لهم صوت ولم يصغي أحدا إلى حديثهم وتحذيراتهم، فمنهم من فضل الانسحاب من المعركة، والبعض الآخر أخذ يرقب الموقف بعين حذرة لعل الأمور تأتي بما يخالف رأيه وكتاباته .

وكانت حنان من هذه الفئة التي فضلت الانتظار رغم تيقنها بعض الشيء من فساد هذه المجموعات وقدرتهم اللولبية على النفاذ إلى قلب المجتمع والصفوة من رجاله ومسئوليه، والاستفادة من خدماتهم إلى أقصى درجة حتى تضخمت

كياناتهم وشركاتهم وطالت عنان السماء وبات الشعب المصري يعمل ويكد ليضخ أمواله في جسد هذه الكيانات الهلامية ثم ينتظر عائد الربح الذي سوف يأتيه مضاعف .

استمر هذا الحال سنوات قليلة حتى استيقظ الشعب المصري على خبر أطار النوم من عين الجميع وكاد أن يطير عقول الكثيرين، فقد أعلنت الحكومة أن هذه الشركات وهمية وان أصحابها يحتالون على الناس باسم الدين ويمتصون دمائهم ويسلبون أموالهم وأنهم غير قادرين بالوفاء بديونهم وما وضعه الناس في جعبتهم من أموال، وقع الخبر كالصاعقة على بسطاء الناس والمودعين اللذين وضعوا تحويشة عمرهم في تلك الشركات، وكثرت الاتهامات للإعلام تارة وللحكومة تارة أخرى بمساعدة هذه الكيانات لسلب أموال البسطاء من الناس ولم تسعى أى جهة رسمية للكشف عن حقيقتهم حتى ضاعت أموال البسطاء وضاعت معها أحلامهم وآمالهم .

تأكدت حنان من حدسها وأيقنت أنها كانت على حق عندما هاجمت هذه الشركات الوهمية، غير أنها لم تكن تملك الدليل القاطع على فسادها،وها هم بسطاء الناس وقد ازداد حالهم سوء وتخلى عنهم الجميع،فالحكومة ترفض الوقوف بجانبهم، وشركات الأموال تدعى انه تم تصفيتها والحجز على ممتلكاتها ولا تملك من المال ما يسد أموال هؤلاء المودعين، وبين هذا وذاك ضاعت أموال البسطاء ومدخرات كانوا يقتطعونها من قوت يومهم لزواج أبنائهم أو لخرجتهم عند موتهم، أبت حنان أن تقف ساكنه في هذا الزخم وتلك الظلومات التي طالت من غُرر بهم من الفقراء وممن يعانون شظف العيش

وأرادوا رفع مستوى حياتهم فإذا بهم يسقطون سقوطا مدويا ويخسرون الجلد والسقط ويعودون من حيث بدأوا دون أن يساندهم احد أو يدافع عن قضيتهم مدافع،انبرت حنان تجمع المستندات والأدلة يساندها عدد من الصحفيين الشبان في محاولة لكشف الحقيقة كاملة، فقد أخذت على عاتقها أن تحارب في صف هؤلاء المغدور بهم ممن خسروا أموالهم بعدما ألقوا بها إلى من أوردها وأوردهم معها إلى الهلاك، فقد أدركت أن عُلية القوم سوف يحصلون على أموالهم بطريقة أو بأخرى وان من سيدفع الثمن هم هؤلاء البسطاء،وكان ما يوجعها ويجعلها تشعر أن هذه القضية تخصها بصورة شخصية أن شقيقتها صفاء التي تزوجت وسافرت مع زوجها إلى العراق وقاست ويلات الغربة وصعوبة العيش خارج وطنها في ظروف اقل ما توصف بالقاسية،قد وقعت ضحية لهذه الشركات،،فبعد سنوات غربة وعناء استطاعوا فيها جمع بعض الأموال التي تعد حصيلة هذه الأعوام من الكد والتعب والشقاء، لعبت بعقولهم هذه الشركات وأرباحها الخيالية، وبالرغم من التحذيرات الكثيرة التي حاولت بها أن تثنيهم عن فعلتهم إلا أنهم لم يسمعوا لها وانساقوا وراء حلم الثراء السريع الذي ربما يقلص فترة غربتهم ويعينهم على اختصار سنوات الغربة والعودة سريعا إلى ارض الوطن بين الأهل والأصدقاء، وهو ما جعلهم يضعون كل ما جمعوه في الغربة من أموال في هذه الشركات انتظارا لجني الأرباح، وهاهم يجنوا من وراء فعلتهم الندم والحزن على ضياع حصاد عملهم وغربتهم،تلقت حنان من شقيقتها صفاء اتصالاً هاتفيا ترجوها بصوت يخالطه البكاء وأنفاس متقطعة أن تحاول بكل ما لديها من نفوذ ومعارف استرداد أموالهم التي وضعوها في هذه الشركات أو تجد وسيلة ما تمكنهم من الحصول

على مقابل لهذه الأموال التي دفعوا فيها جزءا كبيرا من سنين عمرهم،.وأخذت تبكي بكاءا مريرا ضياع شقاء عمرهم وغربتهم التي ذهبت هباء،حاولت حنان أن تخفف عنها وقع الصدمة وان تطمئنها بعض الشيء حتى تهدئ من روعها ووعدتها ببذل كل ما بوسعها حتى يمكنها استعادة هذه الأموال التي ضاعت هباء، فهم ليسوا وحدهم في هذه الكارثة فقد عوقبت اسر كثيرة بفقدان مالديهم دون ذنب جنوه سوى أنهم وضعوا ثقتهم في حكومتهم وشيوخهم وساروا وراء من يتمسحون بالدين ويدعون العمل بأحكامه ومبادئه وهم ابعد ما يكونوا عن العمل به وبتعاليمه السامية،أرادت حنان أن تفرد مساحة كبيرة في الصحيفة التي تعمل بها للتحقيق الذي تزمع القيام به حيال هذا، فذهبت إلى رئيس التحرير كي تقف على أبعاد الموقف، والتعرف عن سياسة الصحيفة حيال هذا الموضوع، ولكنها فوجئت بموقف رئيس التحرير الذي أثار حفيظتها وأصابها بإحباط قبل أن تبدأ مشوارها الذي أخذت على عاتقها أن تكمله، فقد بادرها بقوله:

- حنان، أدرك سبب مجيئك ، فقد علمت انكِ بصدد القيام بتحقيق صحفي كبير عن هذه الشركات الإسلامية وأوضاعها وتاريخها وأصولها،وأنا من واقع مسئوليتي وخبرتي في الحياة الصحفية و أحوال المجتمع المصري أنصحكِ بالابتعاد عن الخوض في هذا الموضوع.

- أستاذ حسين، لم يكن هذا رأيك عندما تناولنا هذا الموضوع من قبل، بل كنت تشجعنا على كشف ما به من ريبة وتعمل جاهدا على مساعدتنا على إيضاح الحقيقة وإيصالها للناس.

- نعم حنان، كنا نكتب عندما كان الجميع يكتب، وكنا نحاول أن نحذر الناس من الوقوع فريسة لهذه الكيانات الاقتصادية الزائفة،أما وقد وقع ما وقع وانكشف أمرها، وسقط من سقط في براثنها،. فلنترك الأمر برمته في يد القضاء فقد قمنا بواجبنا وقت أن كان من المفترض أن نقوم به، أما الآن فلنترك الأمور لمن بيده الأمر وننتظر لنرى ما تسفر عنه الأيام.

- ولماذا ننتظر، ولما لا نكون يدا تساعد العدالة ونحاول من جهتنا وبمساعدة مصادرنا أن نكشف الحقائق ونوضح للرأي العام ما التبس عليهم وما يمكننا أن نطلعهم عليه.

- حنان أنا اربأ بك من الوقوع في متاعب أنتِ في غنى عنها.

- أي متاعب تتحدث عنها أستاذ حسين، لقد قمنا بعمل تحقيقات كثيرة قبل ذلك وتعرضنا لرجال في السلطة وآخرين ذو نفوذ ولم نضع في الحسبان ردة فعلهم ولن نخشى تهديداتهم.

- حنان حاولي أن تفهمي ما بين السطور فليس كل ما يعرف يقال، وهذه القضية متشعبة، وربما تجنح بنا إلى طريق نحن في غنى عن الخوض فيه أو الوقوع في فجواته.

- أستاذ حسين، أرى انك تبطن في نفسك شيئا لاتود الإفصاح عنه، فإن كان لديك شيء محدد اطرحه للمناقشة ربما استطعت إقناعي أو العكس ، فأنت تعلم أنى في الحق لا أخشى لومة لائم، واني ماضية في هذا التحقيق، فليس

من طبعي التخلي عن المظلوم في أى قضية، فما بالك وهذه القضية التي ذاق ظلمها الكثيرون من أبناء هذا الشعب الفقير.

- أنا أَقدر غيرتك على البسطاء ممن ظلموا وسلبت أموالهم ، واعلم قدر عنادك،وتمسككِ بالحق ودفاعكِ عنه، ولكني أحذرك تحذير الصديق من نتائج الخطوة التي سوف تقدمين عليها، ولكِ أن تدركي أن هذا التحقيق من الخطورة لدرجة انه ربما يكون بداية النهاية لك،وأنك بالخوض فيه تلقين بنفسك إلى التهلكة وقد نجد أنفسنا جميعا وقد وقعنا معك ودخلنا في معترك لسنا أهل له ولانملك أسلحته ولا القدرة على مواجهته .

- أرى انك تبالغ كثيرا و تحاول أن تبث الرعب في قلبي حتى تثنيني عن القيام بهذا التحقيق، ولا أجد عندك أسباب مقنعة ، وحديثك يحمل شيء من الريبة ولا تريد أن تفصح عما في صدرك.

- لقد اتخذت القرار بعمل هذا التحقيق الذي جئتك من أجله ويهمني أن اعرف موقفك ، هل ستساندني، أم انك سوف تتخلى عني.

- أفعلي ما يحلو لك حنان، فالتحقيق لك، وسوف انشر لك وأساعدك بطاقم من الصحفيين الشباب يعملون معك لجمع المعلومات، فأنا اعلم عنادك حتى وان كان فيه ما يعود بالضرر عليك، غير انه لكِ أن تعلمي أني لن أتدخل من قريب أو بعيد في هذا التحقيق، فأنا مجرد شاهد فقط، لن أُعلق بالسلب أو الإيجاب،، ويكفيني انه سوف ينشر في صحيفتي وتحت مسئوليتي، وان كنت

اعلم مقدما خطورة ما نحن مقدمين عليه، ولكن أمام إصرارك لا يسعني سوي الاستجابة لمطالبك ولكن لاتنسي أنني حذرتك قبل القيام بالكتابة .

- أشكرك أستاذ حسين، وإنشاء الله سوف يكون تحقيق جيد يخدم الصحيفة ويكشف آلاعيب هؤلاء القوم ومن ساعدهم ووصل بهم إلى القمة و التغلغل في جسد المجتمع المصري وهذا السعار الذي أصابهم في جمع هذه الثروات الضخمة .

- ولكن لي عندك طلب أو تحذير لابد أن تأخذيه في الاعتبار.

- نعم أستاذ حسين قول ماعندك،كلي آذان صاغية.

- أرجوا أن لا تأخذك الحماسة والاندفاع للخروج عن الموضوعية والتطرق إلى ما يجلب علينا المصاعب، أنتِ تدركين أن هذه القضية تداخلت فيها السلطة والمال وبها من المسئولين وأصحاب النفوذ الكثيرين،فاحذري الوقوع في خطأ يلقي بنا في جعبتهم وتجعل أنيابهم تلاحقنا وأظافرهم تنهش لحومنا، هذا رجاء يجب أن تضعيه في الحسبان، تعاملي مع الموضوع باحترافية عالية تبعدنا عن المساءلة القانونية والوقوع في مخاصمات ومشاحنات نحن في غنى عنها ولا نستطيع مجابهتها.

- سأحاول أستاذ حسين قدر استطاعتي، لا تخشى شيء فنحن على حق وغيرنا على باطل، ولن يخشى الحق الباطل يوما وإلا كان الظلام قد ساد ومعه الفساد.

أومأ رئيس التحرير برأسه ونطق بعض كلمات بصوت منخفض، استطاعت حنان أن تميز قوله أن الظلام قد ساد وأيضا الفساد، لم تعلق حنان على قول رئيس التحرير، بل نظرت إليه نظرة إشفاق واستأذنت وخرجت من مكتبه وقد عقدت العزم على الشروع في عمل التحقيق الصحفي عن هذه القضية التي باتت تشغل الرأي العام وتملأ أخبارها وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة .

لم تكد حنان تصل مكتبها حتى وجدت أحد أفراد عائلتها في انتظارها وتبدو على وجهه علامات القلق والحزن، وما أن شاهدها حتى بادرها بخبر مرض والدتها الشديد وأبلغها أنها في حاجة ماسة إلى وجودها بالقرب منها في أواخر أيامها،فأيامها في الحياة باتت معدودة بعدما اشتد مرضها وأدخلها في مرحلة أكد الأطباء على يأسهم من شفائها، استمعت حنان إلى حديثه وأطرقت برأسها في حزن دفين، ونظرت إليه وأخبرته أنها سوف تنهي بعض الأمور وتسافر اليوم مساءا لتطمئن على والدتها وتكون بجانبها في مرضها الأخير، أوصلته إلى باب الصحيفة ثم عادت مرة أخرى إلى مكتبها وأغلقت بابه عليها وانخرطت في بكاء شديد بعدما تذكرت والدتها وأيامها الجميلة التي قضتها معها ومع أخوتها في بيتهم الصغير في حارة الملاعين، وكيف عانت هذه السيدة وهى تحاول القيام بواجباتها تجاههم خاصة بعدما توفى والدهم وهم في مراحل صغيرة من عمرهم وكانت بمثابة الأم والأب معا، حتى استطاعت أن تكمل المشوار وتقوم بتربيتهم أفضل ما يكون على الرغم من شظف العيش وقلة الموارد، أخذت حنان تعاتب نفسها عن إهمالها لوالدتها كل هذه السنين وقسوة قلبها عليها بعدما أخذها البعاد وزحمة المدينة والقضايا الكثيرة التي خاضتها،وتساءلت مع نفسها، هل من الممكن أن يأخذ النجاح الابنة من حضن أمها التي سهرت بها وعانت

الأمرين حتى تصل بها إلى ما تتمناه وتبتغيه، لم تستطع حنان صبرا وكأنما خشيت أن تموت والدتها قبل أن تراها وتظل تعاني تأنيب الضمير باقي عمرها أنها لم تجالسها في أواخر أيامها ولم تكن معها تسمع لها وتحاول أن تخفف آلامها.

وصلت حنان إلى البيت الذي ضمها مع أسرتها الصغيرة أعواما كثيرة وشهد مراحل طفولتها وصباها، فهاهو البيت لم يتغير وان كانت الأجواء حوله وداخله قد تغيرت، وبدا البيت ضيقا أضيق بكثير مما توقعت، فقد كانت حجراته تبدوا فسيحة واسعة عندما كانت تسكنه، وكانت تجد فيه براحاُ وسعة، فما باله وقد ضاق وضاقت أركانه وكأنما أصبح زنزانة تطبق على الصدر فتجعله حرج، تعجبت حنان كثيرا من هذا الشعور الذي داخلها بمجرد أن دخلت البيت، وهذا الإحساس بالضيق و الاختناق وكأنها لم تعيش هنا وتقضي أسعد أوقات حياتها بين جدرانه،غير أنها لم تعطي للأمر أهمية، واندفعت مباشرة إلى حجرة والدتها حيث ترقد، وكالعادة في هذه المناسبات وجدت العديد من النساء بجانب سرير والدتها بعضهن من الأقارب والجيران وهى تعرفهن جيدا، والبعض الأخر لا تكاد تتعرف عليهن ربما كانوا من بنات الحى الشابات اللواتي مرت بهم الأيام كما مرت بها فأصبحوا في سن النضوج،بل وربما تزوجن وأنجبن أطفالا، فلم تتعرف على الكثير منهن، ولكن بعد برهة استطاعت التفرس في وجوههن والتعرف على بعض ملامحهن التي كانت لاتزال عالقة في ذهنها منذ زمنا طويل مضى،

ألقت حنان التحية على الجميع وتبادلت معهم السلامات و كلمات الترحاب، وسرعان ما أن استأذن وغادرن الغرفة تاركين حنان مع والدتها وشقيقتها سحر وهى الوحيدة التي بقيت بجوار والدتها بعدما أخذت الغربة الجميع وخرج الواحد تلو الآخر يبحث في دروب الحياة وطرقها عن الرزق والنجاح وحياة جديدة ينطلق معها بعيدا عن حياته التي قضاها في حارة الملاعيين،

بدا على والدتها الشحوب الشديد وكانت تعاني من سعال متقطع يرتجف له صدرها ويهتز جسدها وكأن زلزالا قد أصابها، وسرعان ما أن تهدأ قليلا ثم تصيبها رجفة وتصدر أنات حزينة تقطع القلوب تأسيا عليها وعلى حالها الذي آلت إليه، حاولت حنان أن تتحدث إليها غير أن حديثها ذهب أدراج الرياح فلم تسمع منها ردا وكأنها لم تسمع منها شيئا أو لم تعي حديثها أو أن لسانها قد انعقد فلم يعد قادرا على ترجمة المعاني وسرد الكلمات .

نظرت حنان إلى شقيقتها سحر وكأنما أرادت توضيح لحال والدتهما وتسمع منها تشخيص لمرضها .

- منذ متى يا سحر ووالدتك على هذا الحال؟

- لها عدة ليالي لا تكاد تفيق وتتحدث قليلا حتى تذهب في عالم آخر وتغيب عن الحاضرين فلاتسمع منهم ولا تتحدث إليهم .

- ولكن أخر زيارة لي لم تكن حالتها بهذا السوء فماذا حدث لها أوصلها لهذه الحالة المتردية.

- نعم حنان لقد مضى على زيارتك لنا ما يقرب من شهرين أو أكثر، وأنتِ تعلمين أن والدتك كانت قد أصيبت بحالة من الاكتئاب بعدما وجدت الحياة خالية حولها من أولادها وأحبائها اللذين كانوا يملئون عليها الحياة،فقد كانت تتحدث كثيرا عن لوعة قلبها لفراقكم وبعادكم عنها ومدى اشتياقها واحتياجها إلى وجودكم بجوارها بعد أن باعدت المسافات بينكم، فهى دائما ما تتذكرك وتظل بالساعات تتحدث مع الجيران عنكِ وعن نجاحاتك و نوادرك وأنتِ صغيرة، وبقدر ما كان هذا الحديث يسعدها وتطرب له وتفاخر به الجيران، بقدر ما كان يُقلب عليها المواجع ويلتاع منه قلبها شوقا لك وحزنا على بعادك الذي بات يطول وتطول أيامه ولياليه، وهى تعد الساعات والأيام حتى تراكِ بضع ساعات وسرعان ما تعودين مرة أخرى إلى عالمك وزحمة العمل وتتركيها تجتر آلامها وأحزانها وتنتظر لقاء آخر يحن به القدر ويأتي بكِ لزيارتنا.

- نعم يا سحر، ولكن ماذا عساى أن افعل و الحياة لا ترحم وزحام العمل لا يترك لك فرصة قضاء بعض الوقت مع أعز أحبابك، بل لا يترك لك بعض الوقت تقتطعيه لتصفو مع نفسكِ تحاسبيها أو تحادثيها، لا تلوميني يا سحر، أعلم أنى ربما أكون مقصرة في زياراتي لكما ولكنى أحاول جاهدة أن أتواصل معكما كلما سنحت الظروف ووجدت بعض الوقت الذي امتلكه، فالحياة قد اختطفتنا من بعضنا البعض وأخذت تسير بنا كيفما شاءت دون أن تعطي لنا فرصة الاختيار أو فرصة التقاط الأنفاس ، فجميعنا مُسيرين في طريق لم نختاره، ربما سعينا إليه ولكن لم نقدر عواقبه ووجدنا أنفسنا نسير إلى حيث رُسم لنا وليس لنا من أنفسنا شيئ سوى الاستمرار فيما قدر لنا،

حبيبتي حنان أنا لا ألومك أبدا على غربتك وبعادك عنا، وأقدر تماما حجم المسئولية الملقاة على عاتقك، ولكن فقط أردت أن أوضح لك حجم المأساة التي تعيشها والدتك والتي أثرت في نفسيتها وهى في هذا العمر الكبير الذي يتطلب تواجد الجميع حولها يخففون عنها آلامها وأحزانها، فالألم النفسي كما تعلمين أشد وأقسى من جميع الآلام الجسدية، وهو ما عانته والدتنا في الأشهر الأخيرة.

- ولا يفوتك أيضا فراق شقيقك طارق الذي كان لنا مليء السمع والبصر، وتعلمين مدى تعلق والدتنا به،وفجأة يسافر ويبتعد عنا ونحن في أشد الحاجة إليه والى وجوده بيننا، وهاهى سنوات الغربة تمر طويلة، ولا يطمئنا عليه سوى بعض الاتصالات المتباعدة التي تنكأ الجراح وتعيد الآلام،إن هذا العذاب النفسي ليس بالسهل على والدتك وإن كانت تحاول أن تظهر شيئا من الجلد والصلابة،غير أنه بداخلها قلباً ينفطر حزنا وشوقاً لأبنائها الذين غادروها وابتعدوا عنها،وكما تعلمين ياحنان أن حياة والدتك فارغة من الأحداث فلا يوجد فيها ما يشغلها عن التفكير فيكم واسترجاع ذكرياتكم كل ساعة ودقيقة، وهذا كله قد أثر على صحتها وزاد من حالتها سوء ووصل بنفسيتها إلى هذا الحال الذي باتت عليه.

- نعم يا سحر في قولك الحق فأنا أيضا أتحرق شوقا لآخى طارق ولا أكاد اعلم عنه شيئا سوى بعض الأخبار التي أتصيدها منه ولا أعرف مدى صدقها، وان كنت علمت مؤخرا انه سوف يغادر ايطاليا إلى ألمانيا لحاجة العمل إليه هناك، وان كنت لا اعرف أي عمل يعمل به في ايطاليا حتى يكونوا بحاجة إلى خبراته

في ألمانيا، وكم يبدو غامضا في الحديث عن عمله، و أتوق لمعرفة طبيعة هذا العمل خاصة بعد الثراء الشديد الذي ظهر عليه فجأة،وأجد فيه غرابة شديدة، وتظهر معه علامات استفهام كثيرة، وهذه الأموال الكثيرة التي أرسلها لشقيقنا احمد لشراء بعض العقارات والأطيان، بل أني علمت أنه في سبيله لإرسال مبلغا كبيرا من المال لعمل مشروع كبير يديره له احمد ويحاول التوسع به لحين عودته من الغربة في الخارج،وهذا ما جعل أحمد هو الآخر يغادركم إلى بلد مجاور اختاره له طارق ليقيم فيها مشروعه السياحي الذي أراد أن يجعل منه أحد المشاريع الكبرى في هذا البلد والتوسع فيه وفتح فروع له في البلدان المجاورة، وهذا ما شغل احمد واخذ وقته كله.

- نعم يا حنان هذا عن أخينا احمد ولا تنسي أختك صفاء هي الأخرى التي سافرت مع زوجها إلى العراق بحثا عن لقمة العيش،وامتدت سنوات غربتها هناك ولا نكاد نراها إلا كل عامين لعدة أيام قليلة ثم تمضى ثانية لتنقطع عنا أخبارها فترات طويلة توفيرا لثمن المكالمات الهاتفية، وهذه الأخبار المزعجة والمقلقة التي تأتي من العراق عن العمليات الإرهابية التي تحصد أرواح الأبرياء كل يوم هناك دون ذنبا فعلوه،وأثار ذلك على والدتك وخوفها المستمر على صفاء وعائلتها، ثم مصابها الأخير في فقدان تحويشة عمرهم الذي ضاع في الغربة ووقوعهم في براثن شركات الأوهام التي تمكنت من الحصول على أموال الغلابة والمساكين وممن قضوا حياتهم يجمعون البعض منها لتأتي هذه الشركات وتضعها في مهب الرياح، ويخسر هؤلاء المخدوعين كل ما يملكون جراء حسن نيتهم وسعيهم وراء أوهام الثروة والغنى.

- معك الحق سحر أن ما قلتيه كله صحيح، لقد عانت والدتنا كثيرا، وجميعنا فكرنا في أحوالنا ومصالحنا ولم يضعها أحد في حساباته حتى وصلت إلى هذا الحال المتردي وباتت بين قوسين أو أدنى من الموت حزنا وكمدا على أبنائها اللذين تركوها وفروا من حولها كلاً في طريق وضاعت بهم الطرق حتى ضلوا عن بعضهم البعض وعن حياتهم الأولى التي جمعتهم سويا تحت سقف هذه الشقة الصغيرة التي كانت تجمعنا وتشهد على أيامنا وأحلامنا التي لم تكن تتجاوز جدرانها، حتى صارت الآن أحلاما بلا سقف أو سماء بعدما ازدادت الآمال واتسعت الأحلام وانفتحت الدنيا أمام الجميع ليجري بها ويأخذ بقدر ما يستطيع عله يجد قناعته أو تجره معها إلى سراب ويبدو أن هذا ما سوف يحدث.

أطرقت حنان بعض الوقت برأسها إلى الأرض ثم قامت إلى غرفتها وغيرت ثيابها،وكانت سحر قد أعدت الغذاء وجلست الأختان تتذكرن أياما مضت وأحلاما كانت تجمعهما،

خطر في بال حنان فجأة موضوع التحقيق الذي كانت قد عقدت العزم على البدء في القيام به بعد مناقشتها الغريبة مع رئيس التحرير، سرحت بخيالها قليلا وأخذت ترتب أفكارها علها تجد بداية تشرع فيها وتحاول أمساك طرف الخيط منها، لاحظت سحر على حنان ابتعادها بفكرها عنها وعن والدتها، فأدركت أنها ذهبت بعقلها بعيدا عن هذا المكان، وآثرت أن تتركها بمفردها حتى لا تقطع حبل أفكارها، فهى إنسانة مسئولة ومكبلة بالمسئوليات الكبيرة المحملة على عاتقها، فلتتركها تنفرد بنفسها بعض الشيء علها تستطيع ترتيب

أفكارها، في اللحظة التي فكرت فيها سحر مغادرة الحجرة سمعت صوت والدتها ينادي

عليها، فعادت مسرعة إليها تحتضنها وتقبل رأسها وتحاول أن تسمع لقولها، وفي هذه اللحظات انتبهت حنان لوالدتها فأقبلت عليها تمسك بيدها وتقبلها، وتمسح بيدها على شعرها وتطلب منها السماح على إهمالها لها الفترة الماضية مرجعة ذلك إلى مشاغلها وأعمالها الكثيرة.

نظرت الأم إلى سحر وبادرتها بالسؤال عن حنان وهل حضرت أم لم تصل بعد، وكأنها كانت غائبة عن حديثهما وهم يتحدثان معها.

- نعم يا أمي إن حنان قد حضرت خصيصا لرؤيتك وهاهى تجلس بجوارك وتمسك يدك.

فتحت أمهما عينيها وما أن رأت حنان حتى أجهشت في بكاء مرير واحتضنتها بذراعين واهنتين، وأخذت تقبلها بأنفاس لاهثة وتضمها إلى صدرها و بصوت خافت تناجيها.

- حبيبتي حنان لقد خشيت أن أموت ولا أراكِ، لقد رأيت طائر الموت يحوم حولي وطلبت منه أن يمهلني بعض الوقت حتى أراكم جميعا،لقد افتقدتكم كثيرا أنت وإخوتك، أين طارق واحمد وصفاء، لماذا لم تحضريهم معك، ألم يعلموا أن أمهم في أنفاسها الأخيرة وتود أن تودعهم أم أنهم بخلوا علي حتى في هذه اللحظات بهذه الرؤية، حبيبتي حنان، لقد عشت عمري أحبكم واعمل لأجلكم، وها أنا قد اطمأننت عليكم، بلغي إخوتك أنى كنت في اشد الشوق إلى

رؤياهم والجلوس معهم والتطلع إلى وجوهم، آه لو يعلموا قدر اشتياقي لهم وملامسة وجوههم وضمهم إلى صدري،أشعر أني راحلة دون أن تكتمل حاجتي من الدنيا، فطالما تمنيت في مرضى هذا أن يجمعني ربي بكم قبل أن ألقاه، والله رحيم بعباده ولكن العباد ليسوا رحماء بأنفسهم، فها هم أبنائي الذين عشت لأجلهم يضنون على أمهم بنظرة وداع تقر عينها قبل أن تغلق إلى الأبد، ولكن ماذا عساى أن أقول أنها الدنيا التي تملئ النفوس قسوة وتزيدها طمعا فتأخذ الأبناء من أحضان الأباء وتباعد بين الأشقاء، أحببتكم جميعا ودعوت لكم جميعا،فلا تنسوني وادعوا لي في صلاتكم وتذكروني دائما..

وبينما عيونهم تنساب بالدمع وقلوبهم تنفطر حزنا من حديث والدتهم وكلمات الوداع التي تنطلق على لسانها كأنها جمرات نار تحرق الأحشاء والقلوب،فوجئوا بشقيقهم احمد يدخل عليهم الحجرة مسرعا الخطى ويرتمي في أحضان والدتهم بعدما نما الى علمه أنها مريضة وتصارع الموت وكان هو الآخر لم يزورها منذ مايقرب من شهر ، وعندما وجد شقيقتيه في هذا الحال ورأى أمه واهنة على فراشها أدرك أنها النهاية فارتمى في أحضانها يقبلها ويطلب منها السماح في صوت حشرجته الدموع.

- احبك يا أمي سامحيني لقد أخذتني الحياة وابتعدت عنك الفترة الأخيرة مع علمي بمدى حاجتك لوجودي بجانبك، لكنك تدركين تماما أنى احبك، ولا استطيع تحمل فراقك ، سوف تشفين وتعودين ثانية تملئين البيت فرحا وحبا وحنانا، ونعود جميعا تحت أقدامك وفى حضنك كما كنا في السابق، تشبثي

بالحياة يا أمي، فالحياة ما زالت أمامك ونحن معك، قومي معنا وسوف لا نغادرك ثانية أبدا.

نظرت أمهم أليهم جميعا وابتسمت ابتسامة خافتة وقالت لهم في صوت واهن سلموا لي على طارق وصفاء، أحبكم جميعا، وسرعان ما انتزعها الموت من بين أيديهم وأغمضت عينيها وتركتهم في حالهم يتخبطون بين بكاء ونواح وقد تملكهم حزن شديد أفقدهم الفكر والعقل وأخذهم إلى حيث لا يدرون، وسرعان ما امتلأت الحجرة بالأهل والأقارب وبدأ الجميع يستعد لمراسم الدفن والعزاء.

"٩"

وصل طارق إلى ألمانيا منذ يومين ومازال قابع في الفندق الذي نزل به ينتظر صدور الأوامر بملاقاة أحد زعماء عصابة المافيا الذي جاء لمقابلته والعمل تحت إمرته بعد فترة طويلة قضاها في ايطاليا واعتاد العمل هناك وعرف دهاليز الحياة في هذه البلد الأوربية الجميلة التي تشارك مصر في البحر الأبيض المتوسط وشواطئه الجميلة التي اعتاد طارق على ارتيادها كلما سنحت له الفرصة أو ألمت به ضائقة،انتاب طارق فجأة قبضة في صدره ارتجف لها وأثارت عنده مخاوف وبعض القلق على أسرته في مصر، وخشي أن يكون مكروها قد حدث لشقيقته حنان، فهو يعلم أن مقالاتها ومهاجمتها الكثير من رؤوس المجتمع قد خلق لها أعداء كثر وجميعهم يملكون المال والسلطة وقادرين على أذيتها والنيل منها، وقد سلم الله في أحداث كثيرة سابقة ، وكثيراً ما نصحها بالابتعاد عن المشاكل وعدم تأليب أصحاب المصالح عليها، وان تبتعد عن هذه القضايا الشائكة وتتفرغ في كتاباتها للاجتماعيات أو حتى عن الفن وأهله، وهى في النهاية صحافة تتساوى فيها الأخبار الفنية والسياسية والاجتماعية،ما يهم هو قدرة الكاتب على الصياغة وجلب الخبر وقوة الأسلوب، وهذه كانت وجهة نظره، وقد لاقت اعتراضا كبيرا من حنان واختلاف كبير في رؤيتهما، شعر طارق بالخوف على حنان خاصة بعدما تذكر معاركها الصحفية السابقة وتوقع أن يكون قد حدث لها مكروها،قرر طارق أن يحاول أن يتحدث مع حنان في مكالمة تليفونية يطمئن بها عن أحوالها خاصة وانه يجلس في الفندق بلاعمل ينتظر لقاءه مع رجل العصابة ويشعر بالوحدة والملل، نزل من غرفته إلى صالة الاستقبال بالفندق الفخم الذي يقيم به وطلب الاتصال برقم

الصحيفة التي تعمل بها شقيقته، ولكنهم ابلغوه أنها سافرت إلى بلدتها منذ يومين ولم تحضر إلى الآن،ازداد طارق قلقا وزادت شكوكه حول تعرض حنان لازمة أو مشكلة كبيرة جعلتها تترك الصحيفة كل هذه المدة وهى التي اعتادت أن لا تترك مكتبها إلا لشيء جلل، فماذا عساها أن يكون قد حدث لها،طلب طارق الاتصال بتليفون البلد للاطمئنان عن أحوالهم ويتعرف عما حدث مع حنان جعلها تترك الجريدة وتغادرها منذ يومين،كاد قلبه أن يتوقف عندما جاءه صوت سحر باكيا، وصاح فيها بصوت راجف ماذا أصاب حنان ، غير أنها فاجأته أن والدته قد توفيت منذ يومين وكانت تسأل عليه وتتمنى لقاءه..

سقطت سماعة التليفون من يديه ولم يشأ أن يسمع المزيد، وأسقط في يده.

ماتت أمي منذ يومين، وأنا جالس هنا في بلاد الغربة لم استطيع أن أراها أو اجلس معها أو أودعها إلى مثواها الأخير،ولكن كيف حدث هذا، لقد كانت بصحة جيدة منذ تحدثت معها أخر مرة، هكذا سريعا تتركنا وترحل، هل الموت قريبا إلى هذه الدرجة التي تُمكنه من سرقة أحبائنا وأهلينا وأرواحنا ونحن في سهو عنه، وهكذا تأخذنا الحياة بلهوها وجدها حتى نفاجأ بخبر وفاة حبيب أو قريب، يا لهذه الدنيا التي لا تساوي شيء وتلهث أنفاسنا ونحن نجري وراءها لنيل بعض مكاسبها وبريقها وسرعان ما أن يتكشف لنا أن ما بأيدينا سراب وقد ضاع كل شيء ولم يتبقى لنا سوى ذكريات وآلام تعتصرنا وتحرق قلوبنا،حبيبتي يا أمي،هذا الخبر هو أخر ما توقعت سماعه هذا اليوم، لقد بعثتي برسالتك لي وانقبض صدري وشعرت أن مصاب وخطب جلل قد حدث وكدت أن أُكذب نفسي، ولكن لم اعلم انه مصابك أنتِ فأنا لم استطيع

استيعاب هذا الخطب الجلل بعد،و مازلت غير مصدق ما حدث وفراقك المفاجيء، ماذا عساى أن افعل الآن، يجب أن أغادر إلى مصر سريعا حتى أشارك إخوتي مصابهم وأكون بجوارهم في هذا المصاب، أتلقى معهم العزاء ونحاول معا تضميد الجراح،هذا هو ما يجب فعله الآن، ولكن لماذا لم يتصل أحمد بي ويخبرني بوفاة أمي، ماذا كان ينتظر،هل هناك ما يستحق الاتصال أكثر من هذا خاصة وقد أوصيته سابقا بضرورة الاتصال إذا ألم بهم خطب أو أصابهم مصاب، وهو دائم الاتصال بي، فلماذا لم يتصل وتركني هكذا لا أعلم عن موت أمي شيئا؟،لابد أن أعنفه على هذا الخطأ الفادح الذي ارتكبه في حقي،ومحاولة تهميش وجودي في مصاب جلل كهذا المصاب.

اتصلت ثانية بالبلد وطلبت أن يكلمني احمد،وصحت فيه مباشرة، لماذا لم تتصل بي فور وقوع الكارثة، ماذا أصابك وماذا منعك من محادثتي، وبينما أنا في قمة انفعالي باغتني احمد انه لا يعرف لي تليفون بعد مغادرتي ايطاليا إلى ألمانيا، حيث أني لم اترك له رقم تليفون يحدثني من خلاله، وقد اتصل بالرقم القديم واخبروه بسفري وعدم معرفتهم عنوان لي .

أصبت بخرس بعدما أدركت أني ظلمت أخي أحمد ، وان وقع المصيبة قد أنساني سفري وتغيير المكان وعدم وجود تليفون ثابت يمكنهم أن يحادثوني من خلاله .

سكت طارق برهة ثم سأل أحمد عن إخوته وأحوالهم، وابلغه انه قادم إليهم في أسرع وقت لتلقي العزاء في والدته،جلس طارق شارد الذهن وقد انتابته نوبة من البكاء على فقدان والدته،وشعر بغصة ومرارة في حلقة، واجتمع عليه

حزن الفراق،وآلام الوحدة والغربة، وحياة جديدة لايعلم عنها شيئا، وأصابته كآبة طغت على عقله وقلبه،وجعلته ينكمش داخل ذاته مبتعدا عن الأجواء الصاخبة التي تحيط به في كل مكان، وصعد إلى غرفته وأغلق بابها عليه وجلس صامتا حزينا يستعيد أياما مضت وحياة امتدت به في حضن أمه وأشقائه، ويلعن آمالا وطموحا ألقوا به بعيدا عن حياته وأهله وعالمه ووطنه،ظل طارق حبيس حجرته حتى ظُهر اليوم التالي عندما جاءه رسول من رجال العصابة يخبره بموعد المقابلة الذي تحدد بعد يومين وعليه أن يتجهز لهذا اللقاء الهام .

استمع طارق إلى الرسول بفتور واضح وابلغه انه يريد السفر حالا إلى مصر لوفاة والدته، ولن يستطيع مقابلة احد أو عمل شيء حتى ينتهي من هذه الزيارة ويأخذ عزائها ويلقي نظرة وداع على قبرها،كالعادة لم يجد من الرسول إجابة على طلبه، فالرسول لايعي شيء سوى إبلاغ الرسالة وليس مكلف بشيء أخر ولا يملك حق المناقشة أو التصريح بشيء دون الرجوع إلى من كلفه بالأوامر .

بالفعل استمع الرسول لحديث طارق وابلغه انه سوف ينقل رسالته وعليه أن ينتظر الرد قبل اتخاذ أى خطوة ،صباح اليوم التالي جاءه رسول آخر وهو رجل أشيب الشعر وقور في حديثه، جلس معه وتباسط في الحديث واستمع إليه،ونقل له رسالة مفادها أن السفر ممنوع عليه في هذه المرحلة، وان هناك ترتيبات قد اتخذت ولقاءات حدد موعدها ولا يمكن إلغاءها، وعليه أن يدرك انه أصبح من الآن احد الزعماء الكبار الذي يعول عليه التنظيم الكثير خلال

الفترة القادمة،تحدث الرجل طويلا عن الظروف التي يتعرض لها أعضاء التنظيم وتمنعهم واجباتهم من تلبية ما تقتضيه ظروفهم، وقال له أن الوفاة قد حدثت وانتهت وان والدتك تم دفنها وانتهى الأمر،والجميع في البلد يقدرون انك على سفر خارج البلاد وسوف يلتمسون لك العذر، والعزاء سوف يتلقاه أشقائك وأعمامك وأقاربك، ويمكنك زيارة قبر والدتك في القريب العاجل عندما تذهب إلى مصر في مأمورية عمل سوف يعني التنظيم بتنظيمها لك حتى تطمئن على عائلتك وتزور قبر أمك،

سأله طارق:

- وما المانع من السفر الآن ؟

- ليس هناك مانع ولكن اتخذت التدابير وحُجزت المواعيد وتم تنظيم العمل على أساس وجودك هنا ومقابلة شخصيات هامة حضرت خصيصا من بلدان أخرى لمقابلتك والتنسيق معك.

- ولكنى أخبرت شقيقي أن ينتظروني لتلقي العزاء معهم.

- لاعليك يمكنك أن تهاتفه مرة أخرى وتخبره انه جد جديد في العمل ولن تستطيع السفر هذه الأيام على أن تذهب اليهم لاحقا.

نظر طارق إلى الرسول طويلا، وأطلق زفيرا حارا، وصمت طويلا ووضع وجهه بين كفيه لبرهة من الزمن، وعندما رفعهما نظر أمامه فلم يجد الرسول فقد غادر.

انتهت مرسم العزاء وانفض المجلس و عاد الأقارب إلى ديارهم، وغادر الجيران إلي مصالحهم، وبقي أهل البيت مع أحزانهم لا ونيس لهم ولا مؤنس لوحدتهم . اجتمع الأشقاء الثلاثة يتباحثون الخطوة القادمة، وما يجب عليهم فعله خاصة وأن شقيقهم طارق لم يتواجد معهم لظروف خارجة عن إرادته، كانت حنان تتوق إلى مغادرة المكان بعدما بات مكمن للأحزان والفراق بعدما كان بيت الفرح واللقاء، فبعدما فارقته أمها لم تعد بحاجة للمكوث فيه أكثر من هذا، فكل ركن من أركانه يحمل ذكريات صعب على النفس التعايش معها ، لذلك وجدت انه من الأفضل أن تقلص مدة بقاءها في هذا البيت وان تغادره بأسرع وقت ممكن،كان هذا أيضا هو حال احمد فقد ترك مشاريعه التي يشرف عليها ويجب عليه اللحاق بها لمتابعة ما قد يحدث في شركته وأفرعها التي حرص طارق على نجاحها وازدهارها مع الأيام،وبقي الأمر غامضا بالنسبة للشقيقة الصغرى سحر، فهي الوحيدة التي كانت ترافق والدتهم وتعيش معها بعدما ذهب الجميع وأخذتهم الحياة ومشاغلها،فقد تزوجت منذ مدة ليست بالقصيرة ولم تصادف حياتها الزوجية نجاحا فانفصلت عن زوجها بعد زواج لم يدم أكثر من ستة أشهر عقب اكتشافها إدمان زوجها للمخدرات ومصاحبته صحبة السوء اللذين خربوا حياته، وعلى الرغم من محاولتها إصلاحه والوقوف بجانبه حتى يجتاز أزمته ويعبر هذه الفترة العصيبة من حياته إلا انه أبى أن يستجيب لها وكان لأصدقاء السوء الكلمة العليا في تأثيرهم عليه وجره معهم إلى طريق الهاوية الذي فضلت سحر ألا تنجرف معه فيه واختارت الانفصال من هذه الزيجة التي لم تجني منها سوى المرارة وتحصد لقب تبغضه كل النساء ويعملن على أن لا يلتصق بهن ويحاولن الهروب منه بكل ما أوتين من قوة وهو

لقب مطلقة، وحمدت الله كثيرا أنها لم ترزق منه أولادا يحملون مَعرة أبيهم طوال عمرهم ويعانون معاناة شديدة للتخلص من عار الإدمان الذي التصق به وصار ملازما له.

كانت المشكلة التي واجهتهم هو مستقبل سحر وكيف ستعيش بمفردها في هذه الشقة بعد وفاة والدتهم، فقد كانوا مطمئنين عليها في كنف والدتها إما الآن فكيف لهم أن يطمئنوا على وجودها بمفردها في هذا البيت دون أخ بجانبها أو أخت تقف معها وتؤنس وحدتها،أنهم يدركون أن جميع من في الحارة يعاملونها كأنها ابنتهم فهم من قاموا بتربيتها ونشأت وترعرت بينهم، وجميعهم إما أقارب أو جيران في حكم الأهل، ولكن كل هذا ليس مبرر لبقائها بمفردها في هذه الشقة وفي حارة الملاعيين، لم تكن المشكلة في المكان الذي يمكن أن يؤويها أو مع من تعيش، فأخيها احمد عرض عليها أن يستضيفها معه في البيت الكبير الذي اشتراه طارق في المدينة المجاورة التي أقام بها شركته،فأحمد يعيش في إحدى الشقق مع زوجته وأولاده وهم أطفال أعمارهم مازالت صغيرة، وزوجته في عمر سحر وتحبها وتعاملها مثل شقيقتها منذ زمن، وليس هناك ما يمنع من أن تسكن معهم في نفس الشقة، أو أن تأخذ شقة تختص بها في هذا البيت الكبير تستقل فيها بحياتها وتكون قريبة منهم يراعونها ويلبون مطالبها، وأيضا حنان عرضت عليها نفس العرض فهى تسكن في القاهرة في إحدى الشقق الواسعة ومعها زوجها وهو رجل قانون مشغول بعمله في المحاماة صباحا ومساءاً ولا يكاد يتواجد في البيت إلا سويعات قليلة وابنها مازال في المرحلة الابتدائية وله حجرته الخاصة، ويمكن لسحر أن تستقل بإحدى الحجرات وتعيش معهم إلى أن يأذن الله في أمرها بالزواج مرة أخرى أو بالعمل أو كيفما

يكـون،اعترض احمـد على رأى حنـان ووجـد أنـه أولى بشـقيقته ولا يصح أن تعيش في كنف رجل غريب عنها حتى وان كان زوج أختها وماله من مكانة لدى الجميع من الحب والتقدير.

استمعت سحر إلى أخوتها في جدالهم حول مكان إعاشتها وصعبت عليها نفسها أن آلت بها الأمور هذا المآل وباتت كقطعة جماد أو أثاث يحاول أشقائها وضعها في المكان المناسب وتركها لحالها والمضي كلاً في طريق،لم تستطع سحر أن تتمالك نفسها فانفجرت في بكاء شديد وخرجت من الغرفة إلى غرفة أخرى وأغلقت عليها بابها وأجهشت في بكاء مرير بعد أن شعرت للمرة الأولى بفقدان أمها وضياع سندها في الحياة وها هي تنتظر على من يرسوا العطاء ومن سوف يفوز بتركتها وتكون من نصيبه وفي حوزته.

انتبهت حنان واحمد إلى ما أصاب سحر ونظروا إلى بعضهما نظرة عتاب وملامة أن فتحوا هذا الموضوع أمامها وبهذه الطريقة التي جعلتها تشعر أنها أصبحت عالة عليهم وحملا ثقيلا على من يقوم بحمله،أسرعت حنان إلى حجرة سحر وأخذتها في حضنها وأربت على ظهرها وقالت لها بعض الكلمات محاولة التخفيف عنها وأوضحت لها أن الأمر بيدها ولن يفرض أحدا عليها شيء ولكنهم أرادوا النقاش أمامها حتى يستمعوا إلى رأيها ويكون لها الخيرة من أمرها في المكان الذي تفضل الإقامة فيه .

هدأت سحر قليلا وتحدثت مع حنان وطلبت منها أن يمهلوها بعض الوقت للتفكير واتخاذ قرارها، فوالدتهم توفيت منذ عدة أيام فقط وأنها تفضل الاستمرار في الشقة فترة من الوقت وقد رتبت مع ابنة عمتها أن تقيم معها لمدة

معينه ثم بعد ذلك يمكنها أن تتخذ القرار السليم الذي ترى فيه صالحها وتجد انه الأنسب بالنسبة لها، وألمحت لشقيقتها انه ربما من الأنسب أن تكون مع احمد، فالبيت هناك به عدد من الشقق المغلقة ويمكنها أن تسكن في إحداها وتستقل بها بجوار شقه أخيها وأولاده،

أومأت حنان برأسها في إشارة من تتفق معها في الرأي وتركت لها الحرية في اختيارها .

خرجت الشقيقتان من الغرفة وأبلغت حنان احمد بما دار بينهما واتفقا عليه، فوافقهما الرأي وتبادل الأشقاء الثلاثة السلامات وغادر كل منهم إلى حيث أتي.

"١٠"

جلست حنان في مكتبها شابكة يديها وأمامها فنجان القهوة المضبوط الذي اعتادت عليه كل صباح وقد ذهبت مبكرا قبل أن يحضر الزملاء إلى مكاتبهم ولم يكن هناك سوى فراش المكتب عم صالح كما كانوا ينادونه في الصحيفة ، والذي قام بتطييب خاطرها وتقديم واجب العزاء ، وأعد لها قهوتها وقدمها لها وتركها بمفردها بعد أن لاحظ شرودها وعدم رغبتها في الحديث.

جالت حنان بفكرها بعيدا وهى ترشف من الفنجان،وأخذت تنظر إلى البخار المتصاعد وهو يرسم أشكالاً هلامية تتصاعد إلى أعلى ثم سرعان ما تتلاشي، وتذكرت والدتها ووالدها وأحباء كثيرين رحلوا عن حياتها، وقارنت بينهم وهذا البخار الذي تلاشى مثلهم ولم يعد له وجود، وحياتهم أيضا كأنها هذه الصور الهلامية التي ليس لها شكل معين ولم تستقر على شكل ثابت، فهكذا الحياة لاشيء فيها يدوم ولا شيء يستمر، فلماذا هذا الكد وهذا السعي الذي نحارب به أنفسنا وغيرنا ونحاول الصعود والارتقاء إلى أعلى، ولماذا الحروب والصراعات، ما دامت الحياة زائلة، والعمر قصير، لماذا هذا السباق الذي نحن فيه، إن الحياة بجانب الموت تبدو ضئيلة وتفقد كل معنى يمكن أن تضيفه إلينا، فما دام الموت واقفا في النهاية فاتحاً فاه ليبتلع الجميع بعد رحلة طالت أم قصرت، إذا فليكن الاستسلام وانتظار تلك النهاية بلا صراعات ولا صخب،

انتابت حنان حالة من الفتور وفقدت حماسها للعمل وألقت جميع مشاريعها واهتماماتها وراء ظهرها، وأرادت أن تسترخي وتنفرد بنفسها تعيد حساباتها وتُقيم مواقفها في ضوء هذه المستجدات الطارئة وظهور طائر الموت في حياتها،

فقد كانت تنطلق بكامل طاقتها لاتحسب للزمان حساب ولا تعد للموت عدته،أما وبعد هذا الشعور الجديد عليها وإدراكها أنها زائلة مع الزائلين، وان الموت بات قريبا منها، بل انه دخل بيتها واختطف والدتها من بين أيديهم دون أن تستطيع أن تحرك ساكنا أو تدفعه عنها، أيقنت كم هى ضعيفة وعاجزة عن فعل أي شيء إذا ألمت بها الخطوب أو بأهل بيتها،أخذها الفكر ساعة من الزمن وذهب بها بعيدا حتى فوجئت بالوقت و قد مر بها وحضر الزملاء يدقون بابها وتكاثروا حولها يقدمون لها واجب العزاء ويتلطفون ببعض الكلمات التي من شأنها أن تواسيها في مصابها ويحاولون تخفيف وقع الصدمة عليها بالتندر ببعض الأحاديث والحكاوي عن فلان الذي وافته المنية وهو يسير، والآخر الذي مات وهو يحتفل بنجاح أحد أبنائه، وغيرهم وغيرهم،من قصص الأموات التي تملئ بيوتنا ونتذكرها لمواساة من يصيبه الدور ويمر طيف الموت على داره يختطف من أحباءه أو أقاربه احد ويطير به إلى عالم آخر مخلفا وراءه سحابة من الحزن والألم التي سرعان ما تسوقها رياح النسيان وتخلف ذكراها إذا ما تذكرها أحد،

استطاعت كلمات زملاءها وأحاديثهم الكثيرة أن تأخذها من نفسها بعض الشيء وتبعدها ولو مؤقتا عن أحزانها وتلقي بها في عالمهم وتعود بها مرة أخرى إلى حياتها على استحياء،أخيرا تغلبت الحياة على الموت كالمعتاد، وعلى منتصف النهار كانت حنان تجلس جلسه عمل مع أحد الصحفيين الشباب ممن وقع عليه اختيارها مع فريق العمل الذي سوف يساعدها في عمل التحقيق الذي تحمست له عن شركات الأموال،

بادرت حنان محمود بقولها:

- محمود لقد تحدثنا سويا قبل عدة أيام في موضوع التحقيق وتم توزيع المهام عليك مع زملائك وعلم كل منكم دوره والمعلومات الواجب البحث عنها والحصول عليها.

- نعم أستاذة حنان وقد قمت بواجبي واستطعت الحصول على بعض المعلومات التي كلفت بها ولكن للأسف لم تخرج عن الأحاديث المتداولة التي تتناقلها وسائل الأعلام ويحفظها القاريء.

- كيف لم تستطيع الحصول على معلومات جديدة تفيدنا في إجراء هذا التحقيق وأنا الذي تحمست لوجودك معنا ووضعت فيك ثقتي وراهنت على كفاءتك.

- أستاذة حنان، صدقيني أنا لم أقصر وكما تعلمين مدى نشاطي وحرصي على الجديد دائما ولكن هذه القضية كبيرة بمكان وتشغل المجتمع بجميع طوائفه بحيث أن الجميع يلهث وراءها وحولها ولم يُترك باباً فيها لم يخترق ويقتل بحث.

- نعم يا محمود اتفق معك ولكننا هكذا لن نستطيع انجاز التحقيق كما نبغي، فلن نشغل القراء بتحقيق تداول الجميع كل مافيه مسبقا ولن يجدوا فيه جديد.

- الأمر راجع إليك أستاذة حنان،أنا فقط أحاول البحث عن دور أحقق فيه النجاح ولم اختزل جهداً، ومع ذلك أعطيني بعض الوقت لأكرر المحاولة ربما استطعت أن أصل إلى شيء جديد يفيد التحقيق ويجد القارئ فيه ما يشبع نهمه.

- اتفقنا محمود، فما زال أمامنا بعض الوقت يمكننا استغلاله في جمع المعلومات، وربما استطاع باقي الفريق الوصول إلى شيء يفيدنا في هذا الموضوع ... دعنا نعقد اجتماعا غدا أو بعد الغد ونرى ما تم جمعه من معلومات وما يمكننا فعله والإقدام عليه في ضوء المستجدات .

- اتفقنا أستاذتي ...

انتابت حنان خيبة أمل بعد أن استمعت إلى حديث محمود زادت حالتها المزاجية سوء، فأخذت حقيبتها وغادرت الجريدة إلى منزلها حتى تريح أعصابها وتحاول أن تستعيد لياقتها مرة ثانية بعد هذه الفترة العصيبة التي عاشتها والأحداث المتلاحقة التي مرت بها ...

كانت الشعوب العربية خلال تلك الفترة تمر بمرحلة عصيبة من انتشار الإرهاب الأسود، ومحاولة المتشددين والمتعصبين فرض سيطرتهم وإظهار قوتهم واثبات وجودهم على الساحة، فكانوا يبرزون برؤوسهم بين الفينة والأخرى بإرسال بعض رسائل التهديد ، وأحيانا يتمكنون من الظفر ببعض الشخصيات التي وضعوها على قائمة الاغتيالات إما لتصفية حسابات أو لأغراض تخدم مصالحهم ويجدوا فيها متنفسا للشر الذي يسكن نفوسهم،

وكثيرا من الأحيان تتجاوز أفعالهم المنطق ويقوم هؤلاء المتطرفون بحصد أرواح الأبرياء من المواطنين في تجمعاتهم وأماكن لهوهم، فربما يكون صيدهم بعض رواد أحد المقاهي أو عدد من السائحين الآمنين في مزار سياحي أتوا ليستمتعوا بمشاهدته والغوص في عبق التاريخ القديم، وربما حافلة تكتظ بالركاب البسطاء اللذين خرجوا في الصباح كلاً يسعى إلى رزقه فيجدوا أنفسهم وقد تحولوا إلى أشلاء متناثرة بفعل قنبلة خسيسة زرعها أحد الفاسدين ممن يظنون بأنفسهم شهداء الدين وان الجنة هي مأواهم ومع زيادة ضحاياهم ترتفع منزلتهم في جنات الفردوس الأعلى وهم أبعد ما يكونوا عن أبوابها .

ولم تكن مصر بأحسن حال من البلاد العربية التي انتشرت بالكثير منها أعمال عنف دموية صاحبتها نعرات طائفية أو مصالح قبلية ، وفي النهاية يجني حصادها المواطنين البسطاء ويكتون بنيرانها دون أي ذنباً جنوه أو فعلاً فعلوه، استمرت هذه الأحداث طوال فترة الثمانينات والتسعينات وزاد ضحاياها وباتت نوعيات معينة من الأفراد مستهدفة إما لفكر أو رأى أو موقف اتخذوه ورأت هذه الجماعات انه يناهض فكرهم ويقف ضد طموحهم وهدفهم في تحقيق مآربهم،ولطالما أرقت هذه الإحداث أفراد الشعب المصري و المجتمعات العربية حتى الذي سلم منها كان يخشى أن يمتد هذا الطوفان ليطول بلدانهم، فعملت الحكومات على محاربة هذا الفكر وملاحقة الذراع المسلح لهذه التنظيمات بغية القضاء عليه أو بتر هذه الذراع التي تستغلها في القتل والخراب وإثارة الذعر والخوف بين المواطنون وضرب الاقتصاد وزعزعة الاستقرار.

بينما حنان غارقة في أفكارها بعدما تسرب إليها بعض الإحباط نتيجة أخفاق محمود في الحصول على معلومات تفيد التحقيق، خطر على بالها خاطر، استبعدته في بداية الأمر، غير أنه بدأ يلح على رأسها ويفرض نفسه على تفكيرها بل ويتعاظم وتجد فيه ضالتها التي تبحث عنها وتهتدي به إلى فكرة التحقيق التي تضمن لها النجاح التام وتجعله تحقيقاً متفردا في موضوعه خاصة بعدما يأخذ هذا الخط الجديد الذي كان غائباً عن فكرها ولم يحاول احد البحث فيه أو تناوله من هذا الجانب الذي اهتدت إليه أخيرا وما كانت تظن أن يتطرق إليه فكرها ، ولكنها الصدفة التي ساقتها إليها الأقدار والتي ربما تصل بها في النهاية إلى حقيقة تخالف كل ما نشر وتعطي للتحقيق أبعادا مختلفة عما يتوقعه القارئ.

"١١"

لم يجد طارق أمامه سوى التسليم بالأمر الواقع والانصياع للأوامر التي تلقاها من الرسول في صورة نصيحة هادفة، غير انه كان يدرك تمام الإدراك أنها نصيحة تحمل في طياتها تحذير من فعل ما يخالف التعليمات، و قد اعتاد تلك الرسائل التي تكون كالسم في العسل، فغُلب على أمره وكتم غيظه وانتظر الرسالة القادمة التي تحدد زمان ومكان اللقاء،لم ينتظر طارق طويلاً، فسرعان ما جاءه رسول اصطحبه معه لمقابلة هامة لم يسفر عن مكانها أو صاحبها، كالعادة، استقل السيارة مع السائق دون أن يتبادل معه الحديث، ولم تستغرق الرحلة أكثر من نصف ساعة قطعتها السيارة بين أروقة البنايات الشاهقة والشوارع الواسعة ومجتمع يموج بالازدحام، أخذ يتفرس الوجوه خلال رحلة السيارة واسترعى انتباهه نقاء هذا المجتمع، فجميع من رآهم من أبناء البلد ولم يجد ذلك الخليط الذي كان يملئ شوارع ايطاليا من مختلف بلدان العالم وخاصة البلدان الشرقية، ففي ألمانيا لاتجد هذه التركيبة الممتزجة وقلما تجد إنسان غريب في ملامحه وهيئته عن هذا المجتمع الأوربي، وقد أثار هذا في قلبه غصة أصابته بحالة من التشاؤم من وجوده في هذا البلد الذي يجد نفسه غريبا عنه في كل جوانبه،أفاق طارق من أفكاره على صوت فرملة السيارة أمام أحد الفنادق الكبرى وطلب السائق منه النزول لمصاحبة احد الأشخاص الذي كان بانتظاره وما أن رآه حتى اصطحبه معه إلى إحدى الغرف في الطابق السابع من الفندق، وفي الحقيقة لم تكن غرفة بالمعنى المتعارف عليه فقد كانت أقرب إلى جناح كامل في هذا الطابق المرتفع، ولفت نظره أنها غرفة متطرفة وبعيدة عن باقي غرف الطابق التي تتجاور معا وتشكل

نصف دائرة تقع هذه الحجرة في أقصاها،انتظر طارق بعض الوقت وكان قد اعتاد على مثل هذه المواقف العصيبة والمقابلات المريبة،والتي كان يتوقع فيها كل شيء يمكن حدوثه وكل الأوامر التي يمكن أن يؤتمر بها، وما هي إلا بضع دقائق حتى دخل عليه رجل في العقد الرابع من العمر يبدو على وجهه الصرامة والحزم ولا تكاد تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتيه،تحدث الرجل بلكنة عربية شابها خليط من الكلمات الألمانية والانجليزية مما يعني أن الرجل قد عاش فترات طويلة في الشرق أو انه عربي وعاش فترات من حياته في الغرب، لم يستطع طارق أن يحدد كنة هذا الرجل وجنسيته، غير انه لم يلقي بالاً لهذا الأمر فقد شغله حديثه المنتظر وما يمكن أن يستجد في حياته بعد هذا اللقاء الغامض.

بعد تبادل النظرات من الطرفين عاجله الرجل قائلاً:

- صخر، لن أطيل معك الحديث كثيرا، اعرف أن في رأسك أسئلة كثيرة ولكني لن أجيبك على تلك الأسئلة، فلها رجال آخرون سوف يقضون معك كثير من الوقت للإجابة على كل ما يدور في رأسك ويُرضون فضولك، غير أني سوف أوضح لك الخطوط العريضة لحياتك هنا في ألمانيا وعملك معنا في قيادة التنظيم،،أكرر،قيادة التنظيم،فقد أثبت كفاءة منقطعة النظير في عملك معنا وتحققنا من ولاءك لنا وقدرتك على القيادة، وكنا نَعُدك لهذا اليوم الذي تصبح فيه أحد أهم رجالنا وزعيم من زعماء المافيا، ولك أن تعلم انك وصلت إلى مرحلة ليس كل من يعمل معنا يصلها،وهى تلقي على أكتافك أعباء وأحمال عليك أن تعد نفسك لها جيدا، فحينما تقرر المافيا الاعتماد على أحد فهذا

ليس بالشيء الهين ولا هو تشريف له، ولكنه تكليف يجب أن يكون بقدره ويعمل على أثبات قدرته وولاءه للتنظيم ومبادئه وأهدافه،من الآن سوف يكون عملك معي، وسوف نتعاون سويا في تنفيذ الأوامر الصادرة إلينا،وليس معنى هذا أنه يجب علينا أن نؤمر فنجيب، فلنا الخيار الكامل في الموافقة أو الاعتراض على تنفيذ ما يصدر إلينا من أوامر أو تنفيذ العمليات، ولكن يجب أن يكون قبولنا أو رفضنا له أسبابه التي يجد فيها التنظيم الوجاهة والمنطق ، فكما قلت لك سابقا أنت من الآن قائد، والقيادة عندنا حرية الاختيار فيما تكلف به من عمليات، والاعتماد عليك تماما وعلى الرجال اللذين يأتمرون بأوامرك ويعملون تحت إمرتك، فزعماء التنظيم ليس لهم سوى تحديد المهمة فقط، وعلينا سوياً دراستها جيدا وتقديم تقرير مفصل من حيث الايجابيات والسلبيات التي تعتريها، ثم نقرر على ضوء هذا التقييم القيام بالعملية أو إلغاءها أو تأجيلها إلى وقت أخر أكثر ملائمة، أي أن لنا الحرية كاملة في اتخاذ القرار والمسئولية الكاملة عن نتائجه.

- نعم سيدي ولكن بما أننا سوف نعمل سويا فمن الأجدر أن تُعرفني بنفسك فأنا إلى الآن لم اعرف عنك شيئا، واعلم تماما انك تعلم عني كل شيء، وهذا ليس إنصافا.

- نعم صخر،أنا بنيامين، ويكفي أن تعرف الآن أسمي الأول، عشت بالمغرب، وولدت لأب يهودي وأم مغربية،وتنقلت بين عدة بلدان في الشرق والغرب، و وتعلمت لغات عديدة وتعاملت مع أناس كثيرة.

- هل أنت إسرائيلي..

- قلت لك الأب كان يهودي من يهود المغرب، ولم أذهب إلى إسرائيل قط ولا أهتم بها من قريب أو بعيد، أنا أحيا بلا عقيدة أو دين، وجنسيتي سواء مغربية أو غير ذلك ليس لها أي أثر على تكويني الشخصي ومعتقداتي،أسمع صخر، أعرف مدى حساسيتكم أنتم العرب وخاصة المصريين من الإسرائيليين، و أحب أن أطمئنك من هذه الناحية، وإلا ماكانت المافيا اختارتني لنعمل سويا وتتشابك أيدينا معاً في سبيل إنجاح العمليات القادمة،ولك أن تعلم أننا في هذه العصابة لا ملة لنا ولا دين ولا ولاء إلا لتنظيم المافيا وعملنا فقط، وأظنك تدرك ذلك جيدا ولست بحاجة إلى من يذكرك به.

هز طارق رأسه بالإيجاب، وتساءل:

- هل من الممكن أن تطلعني على طبيعة عملك وموقعك في التنظيم.

- يمكنك أن تحتسبني زعيم التنظيم هنا في ألمانيا،وسوف نتعاون سوياً في قيادة العمليات والتنسيق فيما بيننا هنا.

- نعم بنيامين، ولكن لماذا جئتم بي إلى ألمانيا ؟، ولما لم استمر في ايطاليا واعمل من هناك وأقوم.

هنا قاطعه بنيامين قائلا:

- ألم أقل لك أني سوف أخبرك بالعناوين الرئيسية، وأنك سوف تلتقي بمن يجيبوك على جميع أسئلتك، دعني الآن أخبرك بالأشياء الهامة التي يجب عليك

مراعاتها، وما يجب عليك فعله، وبداية مشوارك هنا في ألمانيا وما سوف ينتظرك .

- نعم اعتذر عن استطرادي في الحديث وأسئلتي الكثيرة، ولكنك تعلم انه يتملكني الفضول للوقوف على كل شيء، ولكن كما قلت لن أتعجل الأمور وسوف انتظر.

- نعم هكذا نكون قد اتفقنا، ومع هذا سوف أجيبك إجابة تلخص لك أجوبة الأسئلة التي تدور في رأسك وربما لاتجد لها سبيل.

- لك أن تعلم يا صخر أن وجودك في ألمانيا يعني انك قد انتقلت إلى الزعامة الكبيرة، وان العمليات التي سوف تقوم بها سوف تأخذك إلى منعطف آخر يختلف عما كنت تفعله سابقاً في ايطاليا،و يمكن القول انك سوف تتعامل مع منظمات وجماعات، بل ربما يصل بك الأمر للتعاون مع بعض المسئولين في دول كبيرة وصغيرة يتعاملون في تجارة السلاح من وراء حكوماتهم أو أن الحكومات تضعهم واجهة للتعامل معنا وتختفي تلك الحكومات وراء هؤلاء، وفي النهاية لك أن تعلم انك تركت العمل بالقطعة والتعامل مع الأفراد إلى الصفقات الدولية وعمليات التهريب وبيع الأسلحة لأنظمة تقارب أحجام الدول أو تملك زمام تغيير مجريات الأمور في هذه الدول.

وقف بنيامين منتصباً، ونظر إلى صخر طويلا وقال له،هذا الجناح من اليوم مخصص لك،وستقيم فيه إقامة دائمة، وسوف تأتي سيارة بأغراضك من الفندق الذي نزلت به ، ويمكنك أن تتجول لعدة أيام وتحاول أن تلم بمعالم

البلد وتأخذ فكرة مبدئية عن طبيعة المجتمع الألماني، وسوف يساعدك رجال لنا يصطحبوك معهم ويجيبون على أسئلتك ويكونوا لك معيناً على هذه الحياة التي ربما تكون غريبة عليك، وما أن تأتي الأوامر سوف نجلس سويا للتخطيط للعملية المزمع القيام بها .

غادر بنيامين الغرفة، وظل صخر غارقا في أفكاره، ما معنى الحديث الذي تحدث به بنيامين، هل أصبحت زعيما للمافيا؟، وهل قدراتي تتيح لي أن أصبح واحدا من هؤلاء اللذين كنت استمع إلى أخبارهم وكأنهم كائنات فضائية أو مخلوقات من كوكب آخر،اشعر أنى احلم، ففي بضع سنوات قليلة أتحول من إنسان عاطل بلا عمل إلى رجل خطر له باع وذراع يجوب الأرض ويدين له الكثير بالولاء والطاعة، ولكن ماذا عساى أن افعل، هكذا ساقتني الأقدار، وليس أمامي سوى الانصياع لتصاريف القدر، ولن أفكر كثيرا وأفلسف الأمور ، ولأعد نفسي الإعداد اللازم للمرحلة القادمة التي يبدوا أنها تختلف عن سابقتها وأنها سوف تلقي بى إلى عالم مختلف على عالمي الذي عشته وتكيفت معه أعواما طويلة،

ضرب صخر بما تبقى له من مشاعر وعواطف عرض الحائط، ونزع من قلبه الرحمة، وأدرك إن لم يكن قلبه كالصخرة فسوف يضيع في هذه البحار الهادرة أمواجها، وتلك الأعاصير التي إن لم تجد ما تقتلعه فتكت بنفسها وأخذت تضرب ما حولها ضربات مهلكة قاتلة،

عزم طارق أن يترك وراءه حياته بكل ما لها وما عليها ويعيش صخر ذلك الإنسان الجديد الذي ولد بلا قلب ويبدأ حياة الحيتان في محيط يموج

بوحوش إن لم تجد ما تأكله باتت تنهش بعضها بعض، وهو لن يسمح لأحد أن ينهش لحمه أو يطول منه شيء بل سيكون هو ذلك الوحش الذي يخشاه الجميع ويتركوا له الساحة يفعل بها ما يشاء..

لم تمضي أياما كثيرة حتى صدرت الأوامر بنقل شحنة كبيرة من الأسلحة لبعض القبائل المتناحرة على الحدود الليبية،وكان عليه أن يدرس تنفيذ هذه العملية لما تحمله من خطورة كبيرة نظرا للطرق الوعرة التي يجب على السيارات أن تسلكها، والمساحات الشاسعة من الصحراء التي يكمن الخطر في كل ركن تجتازه هذه الشاحنات ومخاطر العصابات المسلحة التي تتخذ من الإغارة على رواد هذه الطرق هدفا لها وغنيمة يغتنموها.. هذا بخلاف التعامل مع القبائل ومشايخها وما يمكن أن يكنوه من غدر تجاه كل غريب حتى وان كان بينهما اتفاق، وغير ذلك الكثير من المخاطر التي من الممكن أن يتعرضوا لها و ربما تصل إلى فقدانهم حياتهم والسطو على بضاعتهم ،أدرك صخر أن هذه المهمة قد أوكلت إليه لما له من خبرة سابقة في تسليم شحنات أسلحة على الحدود الليبية، وقيامه بتنفيذ عدة عمليات تهريب على تلك الحدود، وأن معرفته ببعض مشايخ القبائل التي توثقت في السنين الماضية أتاحت له الفوز بتلك المهمة، ومن المؤكد أن زعماء التنظيم يعلمون ذلك جيدا ومن اجله وقع اختيارهم عليه لتنفيذ تلك العملية، غير انه لم يقم بعملية كبيرة مثل تلك العملية التي يقوم فيها بتهريب شحنة تحويها عدة شاحنات، ويساعده عدد من الرجال يقترب من تعداد فصيلة في الجيش، وهو ما يعني ضرورة توخي الحذر وإلا ستكون العواقب وخيمة،فأى مواجهة ستكون مجزرة بكل المقاييس، وستكون النتيجة قاتل أو مقتول، وليس بينهما ثالث،لم يشعر صخر بالخوف أو

ينتابه أي نوع من القلق من القيام بهذه المهمة الكبيرة التي لو كلف بها غيره لارتعدت فرائصه وأدرك أنها النهاية، غير انه قد اخذ عهدا على نفسه انه لن يتخاذل أو ينحني ولن يفت في عضده شيئا بعد الآن حتى وان كان الموت يحلق بجناحيه فوق رأسه،انتظر صخر حضور بنيامين بعد غروب الشمس حسبما ابلغه الرسول، وجلس الاثنان يتدارسان الموقف، ويستعرض كل منهما الخطوات الواجب إتباعها والمخاطر التي ربما تقابلهما،فقد علم صخر أن بنيامين سيكون رفيقه في هذه العملية حيث انه من بدأها وقام بالاتفاق مع القبائل وهو على علم ببعض الأمور التي ربما تغيب عن صخر في عملية بهذا الحجم،تحاور الاثنان كثيرا وقضيا معظم الليل يتدارسان كل صغيرة وكبيرة من الممكن أن تعترضهما،ويضعا الاحتمالات الواردة في هذه العملية وكيفية التصرف حيال كل افتراضية،وكلما أدركا أنهما في طريقهما من الانتهاء من وضع الخطة يظهر لهما أمرا لم يكن في الحسبان، فيبدأن في إعادة تخطيطهما مرة أخرى في ضوء المستجدات التي طرأت لهما، حتى أنهما بعد أن قطعا شطرا طويلا من الليل خشيا أن يكونا قد أرهقهما الفكر والتخطيط وفاتهما شيء ربما لم يتداركوه، لذلك قررا استكمال خططهما وبحثهما في مساء اليوم التالي الذي كانت شمسه قد بدأت في البزوغ وهما على حالهما.

استعاد طارق زعامته المفقودة ودبت فيه روح القيادة التي كان قد افتقدها زمنا طويلا، واستطاع خلال مناقشتهما خطة التهريب أن يظهر مهارة وقوة أقناع وسيطرة على الأمور جعلت بنيامين يدرك انه في معية رجل محترف، وبدا رويدا رويدا يتخلى عن دور القيادة الذي كان يمارسه على صخر في بداية اللقاء وسرعان ما أصغى إليه ووثق في فكره واستجاب لنصائحه، وهو ما جعل صخر

يمتلك زمام الموقف ويمسك الخيوط بيديه ويتزعم تلك العملية بلا منازع وان كان بنيامين يشاركه فيها غير أنها مشاركة أدبية ليس لها فاعلية تذكر سوى في بعض الأمور والمعلومات الصغيرة التي كان يجهلها صخر والتي أمدها به بنيامين وكأنما أراد أن يترك له الجمل بما حمل ويلقي بأعباء هذه العملية على عاتقه يتحمل جميع نتائجها .

حضر بنيامين في نهاية اليوم وشرع مع صخر في وضع اللمسات النهائية لهذه العملية الكبيرة التي أرادت المنظمة أن يبدأ بها زعامته في ألمانيا ربما لتختبر مدى كفاءته أو تزيده صلابة وثقة أو ربما كان لها غرضا أخر يجهله، ولكن أيا كانت الأسباب فقد عزم الأمر على القيام بها على خير وجه واثبات قدرته وكفاءته في تنفيذ مثل هذه العمليات الكبيرة حتى وان كان الموت ثمنها، فقد بدأ وعليه أن يستمر ولا سبيل أمامه للتراجع أما أن يكون أو لا يكون،تم الانتهاء من وضع اللمسات النهائية لخطتهما وابلغا زعماء المنظمة بموافقتهما واستعدادهما للتنفيذ، وطمأنوهم على قدرتهم على القيام بهذه العملية والعودة سالمين غانمين،حدد صخر يوم التنفيذ واطمئن على خطوات الخطة وباشر الرجال المشاركين معه في العملية والقي إليهم أوامره، وشدد عليهم في تنفيذ تلك الأوامر وعدم ترك أى شيء للصدفة، وكان واثقا من نفسه ومن قدراته فسرت في رجاله هذه الثقة بعدما كانوا ينظرون إليه نظرة تملؤها الريبة، فهو جديد عليهم ولم يعملوا معه سابقا وكانوا يخشون على حياتهم في معيته في عملية كبيرة كهذه يدركون حجم مخاطرها، غير أنهم بعدما أيقنوا أنهم يتعاملون مع رجل محترف ويقدر لكل شيء قدره، سادت بينهم حالة من الطمأنينة وسلموا له القيادة وباتت أوامره نافذة وكلماته قانون وجب عليهم

تنفيذه،استطاع الرجلان أن ينهيا مأموريتهما وان يجتازا جميع العقبات التي قابلتهما والتي لم تخرج كثيرا عن ما تدارسوه، سوى في بعض التفاصيل التي تعد صغيرة بمكان والتي أمكنهما التغلب عليها وأظهر صخر في التعامل معها قوة وقسوة ربما لم يعتادها رجاله في عملياتهم السابقة خاصة عندما أدرك صخر أن هناك من يتبع أثرهم ويرقب تحركاتهم، وساقه حدسه أن هؤلاء الرجال ربما يكونوا عيون لعصابات قطع الطريق وهو ما جعله يوقع بهم في كمين تم نصبه لهم وقاده بنفسه واستطاع أن يقضي على أربعة رجال بسلاحه الآلي دون أن تهتز له شعرة، واستطاع باقي رجاله أن يأخذوا رجلين ويبقيا عليهما ويأتيان بهما إلى صخر الذي خلص منهما أنهما عيون لعصابة قطع طريق وصدق حدسه، فما كان من صخر إلا أن أطلق رصاصه عليهما ليرديهما قتيلين في الحال، وتتابع السيارات سيرها عبر الصحراء الوعرة لتصل إلى هدفها ويتم تسليم شحنة الأسلحة بنجاح ويعود مع رجاله إدراجهم بعد انجازهم مهمتهم، وينجح صخر في أول اختبار حقيقي له ليحوذ ثقة زعماء العصابة الكبار ويبدأ مرحلة جديدة من حياته .

"١٢"

كانت حنان قد قرأت بعض الأخبار عن حوادث الإرهاب خاصة بعد التهديدات التي طالت بعض الدول الأوربية بتهديد سفاراتها في بعض العواصم العربية والقيام بعمليات تفجير واغتيال على أراضيها، وهو ما دفع حنان إلى محاولة الإلمام بالكثير من المعلومات عن هذه الجماعات وتاريخها وأهدافها وكل ما يخص أمورها، وكان لزاما عليها فعل ذلك بحكم موقعها الصحفي وضرورة معرفة مجريات الأمور والمستجدات على الساحة العربية والدولية ، غير أنها في خضم مشاغل الحياة ألقت ما قرأته جانبا ولم يشغل بالها كثيرا في حينه، غير أن عقلها الباطن اختزن بعض ما قرأته وهاهو ينضح عليها ببعض الأفكار التي ربما تصح وربما لا تمت للحقيقة بصلة، ولكنها أفكار يجب أن تُبحث وتُدقق حتى يمكنها أن تخلص إلى حقيقة هذه الشركات الإسلامية التي تنمو وتتضخم وسرعان ما ينكشف عنها الغطاء وتصبح سراب يأخذ معه أموال الفقراء والبسطاء من أفراد هذا المجتمع البائس ليتضح أمرهم ويكتشف الجميع بعد فوات الأوان أنهم وقعوا ضحية أفراد وجماعات من المحتالين استطاعوا أن يفروا بأموالهم ويتركوهم يلهثون وراءهم في محاولة لاسترداد ولو جزء يسير من الأموال التي أودعوها خزائنهم.

لمعت فكرة في رأس حنان استوحتها من احد الأبحاث الغربية التي تبحث في تكوين الجماعات الإرهابية وطرق تكوينها وحصولها على المال اللازم لتمويل عملياتها الإرهابية والحصول على الأسلحة والمتفجرات اللازمة لعملياتهم شرقا وغربا دون أن ينضب لهم مورد،وقرأت فيما قرأته عن شركات تشابه إلى حد كبير شركات الأموال التي نحن بصددها تعمل على تمويل هذه الجماعات

وتتخذ من الدين ستارا لها يحجب وجهها القبيح ،ويتم التمويل من جيوب البسطاء وبأموالهم التي سرعان ماتعود عليهم بالقتل والخراب،

فكرت حنان أن تبحث في هذا الاتجاه وتنأى تماما عن المجري الذي اتخذته وسائل الإعلام الأخرى التي حصرت تحقيقاتها وبحثها في وادي ضيق وجزئية بسيطة تتناول القبض على أصحاب هذه الشركات وأسماء وقصص الضحايا، أخذت هذه الفكرة الكثير من وقت حنان قبل أن تبوح بها لفريق العمل الذي يعمل معها ، وحاولت أن تكون موضوعية بعض الشيء ولا تتسرع في حكمها على الأمور وان تتأنى قبل الخوض في هذا الموضوع، ولكن لمعان الفكرة برق في رأسها ولم يتركها تهنأ بنوم أو يقظة، فقد رأت فيها نجاح مهني منقطع النظير يضيف لتاريخها وحياتها الصحفية الكثير أذا صادفت توقعاتها الحقيقة ،ترددت حنان قليلا هل تخبر رئيس التحرير عما يدور في رأسها، وسرعان ما أخذت قرارها بعدم الخوض في هذا الموضوع مع احد من الرؤساء، فقد وضح تردد رئيس التحرير في قيامها بإجراء التحقيق منذ البداية فما بالك لو علم بالاتجاه الجديد والمنحى الذي تود أن تأخذه في الربط بين الإرهاب وشركات توظيف الأموال، قطعا سوف يرفض وربما يمنعها من الاستمرار في هذا الموضوع الشائك فهي تدرك قدر تردده وخوفه من الخوض في مثل هذه التحقيقات الشائكة التي تجلب له وللصحيفة الكثير من المشاكل التي يرى انه في غنى عنها،ولماذا تأخذ رأيه فقد حصلت على موافقته على المبدأ في إجراء التحقيق وليس لزاما عليها أن تخبره عن الاتجاه الذي تود أن تسلكه وتشرع فيه،استيقظت حنان مبكرا بعد أن أخذت قرارها بالبدء في تحقيقها،. وشعرت بنوع من النشاط والهمة لم تألفه منذ وفاة والدتها ومرورها بأزمة نفسية

جعلت الإحباط يسيطر على أعمالها وأفكارها، و هذه عادتها عندما تشرع في كتابة تحقيق من التحقيقات التي ترى فيها قيمة موضوعية واجتماعية كبيرة، فسرعان ما تمتلئ طاقة وتشحذ همتها وتسابق الريح في محاولة الوصول إلى الحقائق الكاملة قبل طرح تحقيقها كقنبلة موقوتة سرعان ما تنفجر وتحصد معها ضحايا من الفاسدين والمفسدين،سارعت حنان تستدعي طاقم العمل من الصحفيين الشبان اللذين سوف يكونوا لها أذرع لجمع أكبر قدر من الحقائق والدلائل مما يساعدها على تجميع معلومات تتيح لها إكمال التحقيق والدخول إلى أدغال هذا العالم الغريب الذي يعمل في الخفاء كخفافيش الظلام التي لاتراها وإنما تشعر بوجودها وأثارخرابها دون سابق إنذار،بدأت حنان اجتماعها وهى تتفرس وجوه طاقم العمل، وتحدثت بصوت منخفض وواثق في كلمات موجزة ونافذة وشرحت لهم طبيعة عملهم في الفترة القادمة ونوعية الأخبار المطلوبة من كل منهم بعد أن أوضحت لهم رؤوس المواضيع عن التحقيق الذي سوف يكون هدفهم،وأعطت الجميع أوامرها أن يتم ذلك في سرية تامة حتى يستطيعوا أن يكملوا تحقيقهم ويفاجئوا به الجميع دون أن يسرق احد منهم هذه الفكرة ويخطف منهم السبق،تفرست حنان الوجوه مرة أخرى بعد أن أفاضت في شرح طبيعة التحقيق الذين هم بصدد القيام بتغطيته وجمع أخباره والغوص في دهاليزه للوصول إلى كل معلومة يمكن أن تفيد في تجميعه واكتماله، وقبل أن تُكون انطباعها عن ردة فعل المجموعة التي سوف تعمل معها فاجأها احد الصحفيين بمداخلة استشعرت منها اعتراضه على هذا التحقيق وتذمره من المشاركة فيه، فقد صاح بها بطريقة استفزازية لم تألفها سابقا منه:

- عندما اجتمعنا في اللقاء السابق لم يكن هذا موضوعنا، لماذا ننحرف عن التحقيق الأصلي بعد أن قطعنا فيه شوطا كبيرا وكدنا ننتهي منه،

- نعم يا صالح أنا من كلفتكم بالتحقيق الأول وهذا ليس انحراف عن المسار بل تعديل لأمور جدت ورأيت ضرورة البحث فيها.

- ولكن في حدود علمي لم يجد جديد في هذا الأمر وجميع وسائل الإعلام تتناول الموضوع من زوايا معينة كنا قد اتفقنا عليها سابقا ولم تشذ صحيفة بالخروج عنها كثيرا.

- نعم يا صالح ولهذا أردت أن يكون تحقيقنا جديدا يتيح لنا النفاذ إلى عالم مختلف وأبعادا غير التي اعتادها الناس في هذا الأمر.

- ولكنك تبحثين في موضوع بعيد تماما عن الموضوع الأصلي وتحاولين الربط بين عالمين غريبين عن بعضهما كل الغرابة ولا يكاد يربط بينهما رابط.

- هذا هو موضوعنا وما نود الوصول إليه، هل يوجد رابط بين الموضوعين أم أنهما كما تقول مختلفين عن بعضهما البعض وكل منهما يسير في اتجاه يخالف الآخر.

- ولكن هذا الأمر ربما يعرضنا للمتاعب التي نحن في غنى عنها، فلماذا لا نساير غيرنا ونكتب فيما يكتبون ونلقى عن رؤوسنا هذا العبيء الثقيل الذي لن يأتي لنا إلا بمزيد من المتاعب والخصومات.

- إن الصحافة يا صالح مهنة البحث عن المتاعب وواجبنا أن نسعى بكل ما لدينا لإظهار الحقيقة للقاري ء وتوضيح ما غاب عنه، ولو أن كل صحفي فكر كما تفكر لما تقدمنا قيد أنملة وجلسنا جميعا في بيوتنا نكتب قشور الأخبار من المعلومات المتاحة أمامنا وما كلفنا أنفسنا المتاعب والجري وراء الحقيقة.

- ولكن هل يعلم رئيس التحرير عن هذا التحقيق الذي،.

ارتفع صوت حنان مقاطعا:

- أنا هنا الذي أدير الأمور، ولا اسمح لك بالتدخل في ما لايعنيك، أنت تعمل مع فريق عمل تحت إمرتي وعليك تنفيذ ما اطلبه منك وما عليك سوى الانصياع للأوامر الصادرة إليك أو إعلان انسحابك من الفريق ، لقد ناقشتك وصبرت عليك في المناقشة ظننا مني انك تود أن تلم بجوانب التحقيق حتى تستطيع استكمال عملك في الاتجاه السليم ، أما كونك تتدخل فيما لا يعنيك وتحاول دحض العمل وإثناء زملائك على الاستمرار فيه فهذا الأمر يلقي بظلاله على أفكارك وهدفك من المناقشة وهو ما لا أوافق عليه ولن اسمح لك به.

سرت بعض الهمهمة بين الحضور، وحاول البعض التدخل لتهدئة الأمور، فهم لم يعتادوا حنان بهذه العصبية من قبل ،، وخشي عليها البعض من فرط عصبيتها، وفجأة صاحت بصوت حازم وقاطع:

- صالح يمكنك أن تُعد نفسك من اليوم خارج فريق العمل ، هذا قرار لا رجعة فيه، لك أن ترحل عن هذا الاجتماع وتبلغ من أردت عما دار فيه سواء رئيس التحرير أو غيرة ممن تحب أن تبلغهم، فارقنا الآن.

بدا الخجل على صالح واحمر وجهه ،وتلعثمت الكلمات في فمه، فلم يستطع الـرد أو التفـوه بكلمـة تعقيبـا على اتهـام حنـان، وقـام يلملـم أوراقـه ويغـادر الاجتمـاع، بينمـا الدهشـة والعجـب تتملك زملاءه وهـم لا يـدرون مـاذا يحـدث ومـاذا في جعبـة حنـان،نظرت إلـيهم حنـان نظرة فاحصـة متسـائلة ، وبـادرتهم بقولها:

- هل من أحد له تعقيب أو يرى مثل رؤية صالح ويود أن لا يكمل معنا هذا التحقيـق، مـن أراد الانسـحاب فليقلهـا مـن الآن فلـيس لـدي مـانع أن اعمـل منفردة في هذا الموضوع، ولكني وددت أن تشاركوني النجاح وتكونوا على إيمان كامل بالفكرة حتى يمكننا جميعا تحقيق ما نصبوا إليه .

استمع الجميع إلى حنان وأراد البعض أن يشرح وجهة نظر صالح ملتمسا له العذر نافيا عنه محاولة عرقلة العمل، غير أن حنان أشارت إليهم أن يصمتوا، فتجربتها في الحياة ومع البشر أكسبتها خبرة تستطيع بها أن تتبين بعض الأشياء التي ربمـا تغيـب عـن الآخـرين، ولـم تشـأ حنـان أن تزيـد في هـذا الموضـوع كثيرا،وكـررت سـؤالها للمـرة الثانيـة، هـل مـن معترض على العمـل أو لديـه أي تساؤلات ؟

أجابها الجميع باستعدادهم للعمل معها كما اعتادوا سابقا في تحقيقات كثيرة، بل واظهروا من الحماسة ما أثلج صدرها وجعلها تستبشر خير، أنهت حنان اجتماعها بعد أن تمنت لهم التوفيق، وغادر الجميع المكتب، وبقيت حنان تدير كلمات صالح في رأسها محاولة الوصول إلى هدفه ومبتغاه، استرجعت في دقائق قصيرة مواقفه السابقة في الصحيفة وبعض كتاباته لمحاولة أن تصل إلى

أفكاره التي يتبناها عليها تفسر موقفه اليوم ومحاولته عرقله التحقيق ودفاعه المستميت عن هذا الموقف، غير أنها سرعان ما أبعدت صالح عن تفكيرها وانغمست في إنهاء أعمالها المتراكمة من مقالات وأخبار بعيدة عن هذا التحقيق الذي اخذ من وقتها الكثير وشغل فكرها عن أحداث أخرى كثيرة يموج بها المجتمع وتستحق أن تتناولها بالكتابة والتحليل.

تلقت حنان اتصالا هاتفيا من شقيقتها صفاء من العراق تسألها فيه عن أخر المستجدات وتطالبها بضرورة العمل لاسترجاع تحويشة العمر التي ضاعت وابتلعتها شركة توظيف الأموال الوهمية،. وأخبرتها أن زوجها يمر بحالة نفسية سيئة بعدما فقد أمواله التي قضي سنوات طويلة بعيدا عن وطنه وهو يجمعها ثم تضيع منه في لمح البصر بعد أن تعشم في زيادتها ومضاعفتها في زمن قياسي،ظلت صفاء تندب حظها وتشكو حالها إلى حنان،وكأن حنان هى المسئولة عن ضياع أموالهم وعليها أن تعيدها إليهم كي تهدئ نفوسهم ويهئ بالهم،لم تعرف حنان بماذا تجيبها، إن الأمر اكبر من إمكانياتها، والدولة تدخلت بكامل أجهزتها ولم تعد الأمور ميسره لأحد لاسترجاع أمواله أو حتى معرفة الطريقة المثلى في مثل هذه الحالات للوقوف على الحقيقة وأتباع الطريق السليم،غير أنها لم تجد ما تقوله لها بعد أن استشعرت حالها البائس وكلماتها التي تقطر حزنا سوى بعض الكلمات التي تطمئنها بها وتصبرها على بلاءها، وأخبرتها أنها تعمل جاهدة لمحاولة استرجاع هذه الأموال وكشف حقيقة هذه الشركات،أنهت صفاء المكالمة، وبقيت حنان شاردة بعض الوقت، ماذا لو علمت صفاء أن شقيقتها تسير في طريق بعيد تماما عن الطريق الذي تبتغيه، وان أموالهم التي وضعوها في هذه الشركة أصبحت في حكم المفقودة

ولا يمكن التنبوء بعودتها ثانية،تذكرت حنان يوم أن جاءتها صفاء مع زوجها وكانا في إجازة صيفية واخبروها بقرارهم باستثمار أموالهم في هذه الشركة، وتذكرت أيضا معارضتها بشدة لهذا القرار ومحاولتها منعهما بكافة الطرق ونصحهما بِسَلك طريق آخر غير هذا الطريق غير أنهما أصرا على موقفهما ولم يلقوا بالاً لنصيحتها وفعلوا ما أرادوا، وها هم يحصدون ناتج زرعهم أحزان وآلام، ثم يطالبوني بإعادة هذه الأموال وأنا قاصرة اليد، ليتني استطيع ولكن ماذا افعل إن الأمور تفوق قدراتي، وليست المسائل قاصرة عليهم فقط فهناك آلاف الأسر أضيرت مثلما أضيروا، وكل بيت فيه حكاية ورواية وأحزان ودموع، إن المسألة تخص المجتمع المصري بكامله وليست قاصرة على عدد من الأفراد،ألهب الفكر الحماس في نفس حنان فشرعت بالبحث في مكتبتها عن الكتب التي سبق وقرأتها وحاولت أن تستعيد قراءة بعضها حتى تقف على أبعاد ما هي بصدده، فقد طرأت لها فكرة أرادت تنفيذها والبدء فيها،. فقد هداها فكرها بضرورة التمهيد ببعض المقالات للتحقيق الذي هى بصدد القيام به،،. وأرادت أن تفسح المجال وتعطي للقارئ نبذه ولو صغيرة عن تاريخ الإرهاب في المنطقة وحوادثه المتكررة وأهدافه المعلنة وغير المعلنة التي يسعى إليها ويكرث أعضائه وعملائه نحو تحقيقها بكل همة ونشاط،

كان قد مضى على اجتماعها بمجموعة العمل ما يقارب أربعة أيام حينما شرعت في كتابة بعض المقالات عن الحركات الإرهابية ودورها في المنطقة، وحاولت أن لا تغوص كثيرا فكل ما يعنيها أن تعطي للقارئ فكرة بسيطة تتيح له فهم أبعاد الموضوع المزمع نشره حتى لا يكون فقاعة ليس لها جذور ربما لا يتقبلها البعض أو يندهش لها البعض الآخر،وقد كان و نشرت أربعة مقالات

رأت بعدها أن الأمور أصبحت مهيأة لنشر تحقيقها حال الانتهاء منه،دعت حنان فريق العمل لاجتماع عاجل في نهاية الأسبوع للوقوف على ما جمعوه من معلومات وما توصلوا إليه حتى يمكنها تجميع المادة الصحفية وكتابة التحقيق الذي رأت أن الأرضية مهيأة تماما لنشرة.

أصيبت حنان بخيبة أمل بعد أن اطلعت على نتائج عملهم خلال الفترة الماضية وما استطاعوا جمعه، فبعد أن تصفحت تقاريرهم على عجالة لم تخلص منها بشيء، وأيقنت أنهم جميعا ساروا فيما سار فيه زميلهم محمود قبل ذلك، فلم يأتوا بجديد يمكنه أن يغطي التحقيق الذي تود كتابته، والمعلومات التي جمعوها لم تتجاوز الأخبار المذاعة والمقروءة التي يعلمها كل الناس ولن تضيف إليهم جديد،أطلقت حنان زفيرا طويلا، ونظرت إليهم جميعا نظرة من خاب أمله، وقالت لهم:

- ما هذا يا سادة ، انتم لم تأتوا بجديد، ماذا حدث لكم، ألم تستوعبوا حديثي في لقاءنا السابق وما طلبته منكم:

أجابت ليلى إحدى الصحفيات الشابات:

-لقد فعلنا ما بوسعنا، وتناقشنا كثيرا قبل أن نحضر هذا الاجتماع، وتوقعنا كل تعليقاتك على حصاد عملنا، ولكن لكِ أن تعلمي أننا لم نقصر في شيء، فقد حاولنا، وحاول كل منا أن يجد شيئا يفيد في كتابة التحقيق ولكن لم نجد شيئا جديدا، فهذه القضية تسير في اتجاه واحد وجميع من يكتب عنها لا يجد منفذ سوى هذا الاتجاه وهو حالة النصب والاحتيال على البسطاء من الناس

باسم الدين والتمسح في الجلباب والذقن الطويل وخداع الناس ونهب أموالهم تحت مسمى الاستثمار، تأكدي أننا حاولنا وبذلنا جهدنا للحصول على المعلومات التي تبتغيها والتي كلفنا بها ولكن للأسف لم نجد مصدر يفيدنا أو يساعدنا في ذلك، وأغلقت جميع الأبواب في وجوهنا، نحن لم نقصر ولكن هذا هو المتاح وان كنتِ تعلمين بعض الطرق التي يمكن أن نسير فيها للحصول على تلك المعلومات وتمكنا من تحقيق ما نصبوا إليه فنحن معك وسوف نعاود الكرة مرة أخرى.

- نعم يا ليلى لابد من معاودة الكرة والوصول إلى ثغرة تفيدنا في بحثنا هذا، أنى على يقين من صدق حدسي في هذه النقطة، وان هذه الشركات ما هى إلا ستار لهذه الجماعات الإرهابية التي تعيس في الأرض فسادا بأموال هؤلاء البسطاء،دعونا نعيد الكَرة مرة أخرى بعد إعادة ترتيب أوراقنا،فقد استطعت العثور على بعض المعلومات التي ربما تكون مفتاحا هاما في هذه القضية، وسوف أطلعكم عليها وأخبركم ببعض المصادر التي تعينكم في الوصول إلى ما نريد،. فأنا لم أقف مكتوفة الأيدي منذ أن انهينا اجتماعنا السابق،وقد سعيت لدى أصدقاء عديدين واستطعت الحصول على معلومات خطيرة في هذه القضية ربما تقلب الأمور رأسا على عقب،سوف احتفظ الآن بهذه الأسرار ولكنى سوف اكشف لكم عما يعينكم في عملكم، على وعد أن تحاولوا بأسرع ما يمكن الانتهاء من جمع ما نريده من بيانات، فالعمل قد عَلمنا أن الأسرار إذا تجاوزت صاحبها فلن تستطيع السيطرة عليها،ومن أعطى سرا لصحفي فلن يمنعه مانع من أن يبوح به لآخر، لذلك فعليكم أن تعلموا أننا نسابق الزمن للانتهاء من هذا التحقيق ولو تأخرنا كثيرا عن الأيام القادمة ربما لا نستطيع

نشره إطلاقا لان غيرنا سيكون قد سبقنا ونشره بعدما تكون مادته الصحفية قد انتشرت وبدأت تلوكها الألسن وتتداولها الأيدي.

سادت المجموعة حالة من الوجوم وهم يستمعون إلى المعلومات التي قررت حنان البوح بها إليهم واحتفظت بباقي المعلومات التي رأت الإبقاء عليها لحين النشر، ويبدوا أن فريق العمل قد فوجئ بهذه المعلومات الهامة والخطيرة والتي لم تتطرق إلى أذهانهم من قبل،لدرجة أن البعض فتح فاه متعجبا من هول هذه الأخبار التي ربما لم يتوقعها احد وكانت ابعد ما يكون عن خيالهم، غير أنهم أدركوا بعد استماعهم لهذه المعلومات أنهم قصروا بحق في عملهم ولم يقوموا بما يجب القيام به وإلا كيف تغيب هذه المعلومات الهامة عنهم وهم من خرجوا للبحث والتقصي .

أدركت حنان أنها أصابت الهدف،وكعادتها نظرت إليهم طويلا، وتحدثت بصوتها الهادئ الذي لا يخلو من قوة وعزم، وطالبتهم بالعمل جميعا في ضوء هذه المعلومات على أن تبدأ خطواتهم من حيث انتهت معرفتهم، على أن يوافوها بالأخبار المطلوبة والمعلومات التي تمكنها من إنهاء تحقيقها في أسرع وقت ممكن،

انتصبت حنان واقفة منهية هذا الاجتماع القصير وتمنت للمجموعة التوفيق، وجلست على مكتبها تحتسي فنجان القهوة الذي أحضره لها ساعي المكتب، وأخذت تستمتع بمذاقه اللذيذ وتتأمل بخاره المتصاعد .

" ١٣ "

كان نجاح صخر في المهمة التي كلف بها في ليبيا المفتاح الحقيقي للانطلاقة الكبيرة وحوزته على ثقة زعماء المافيا الكبار في ألمانيا، فبعد هذه العملية أصبحت كلمته مطاعة وأصبح محور ارتكاز للتنظيم في عدة عمليات تالية قادها جميعها بنجاح منقطع النظير كان كفيلا أن يضعه على القمة ويرتفع بمكانته إلى أعلى الأماكن في ترتيب زعامات وقيادات المافيا في هذا البلد الغربي،

اشتاق صخر لزيارة مصر ولقاء عائلته، فقد مضي وقتا طويل منذ أن توفيت والدته لم يذهب إلى بلده ويلتقي بأهله وأصدقائه ، لذلك عقد العزم على السفر واعد عدته بعد اتفاق مع زعماء التنظيم اللذين تعرف إلى بعضهم واستطاع أن يكتسب ثقتهم خلال الفترة السابقة بل ويصبح واحدا منهم له مالهم وعليه ما عليهم،تأهب صخر للسفر و قضاء إجازة استرخاء في القاهرة، وجد فيها فرصة لمحاولة تغيير الأجواء والعودة إلى نفسه وذكرياته بعض الشيء والوقوف على أخر المستجدات هناك...

كان صخر قد أوعز إلى زعمائه بإمكانية فتح سوق للسلاح في مصر وزيادة عمليات التهريب عن طريق بعض الثغرات التي يمكنه أن يستغلها والتي أمكنه التعرف على بعض منها عندما كان يعمل في سلاح الحدود ومن خلال المهمات التي وكلت إليه لمنع وصول شحنات الأسلحة والمخدرات من دخول البلاد، وكم من مرة أحبط عمليات من هذا النوع..

حلقت الطائرة في السماء في طريقها إلى مطار القاهرة، وغلب الفكر رأس صخر، وأخذه إلى إخوته حنان وأحمد وصفاء وسحر،ولام نفسه كثيرا على

ابتعاده عنهم طيلة هذه المدة وتركهم يواجهون مصاعب الحياة بمفردهم بعد أن تخلى عن دوره الأساسي في رعايتهم والحفاظ على مصالحهم،وشعر بتأنيب ضمير لم يألفه من قبل منذ أن انخرط في هذه العصابة التي لا تعترف بمثل هذه العلاقات الإنسانية والمشاعر الأخوية، فجأة خطر على باله صديقه أيمن، ذلك الصديق الوفي الذي ارتبط معه بعلاقة وطيدة منذ أن شبا سويا في حارة الملاعين حتى التحقا معا بالجيش ثم فرقتهما الأيام، وتذكر فضل صديقة عليه فيما هو عليه الآن فلولا مساعيه ومساعدته في السفر لكان لا يزال يعمل بالحارة ويتنقل من عمل إلى آخر بعد إثبات فشله في كل عمل يلتحق به،قرر صخر أن يتصل بصديقه أيمن فور وصوله إلى القاهرة ويعيد معه ذكريات أيامهم السابقة وحياة عاشوها سويا تعد من اسعد أوقاتهم،كان أول ما فكر فيه طارق عند وصوله إلى القاهرة زيارة شقيقته حنان التي ارتبط بها برباط خفي يتجاوز علاقة الأشقاء إلى علاقة أعمق وابعد من ذلك بكثير.

وما أن حطت الطائرة ارض المطار حتى استقل طارق سيارة واتجه مباشرة إلى بيت حنان في القاهرة وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء، وما أن فتحت الباب وفوجئت بقدومه حتى أخذته بالأحضان وذرفت دموع الفرح لرؤيته بعد أن كادت أن تفقد الأمل في لقائه مرة أخرى بعد أن طالت غيبته وانقطعت اتصالاته إلا في بعض المرات القليلة التي كان يتذكرهم فيها ويحاول من خلالها الاطمئنان عليهم،.

كاد الدمع يفر من عين طارق مع حرارة لقاء حنان وتأثرها الشديد غير انه تماسك في اللحظات الأخيرة وحاول أن يحتفظ بصلابته ولا يظهر ضعفه أمام

شـقيقته حتى وان كـان ضـعـف محبـه واشـتياق،تبادل طـارق السـلام مـع زوج أخته وأبنهما وجلسوا معا ساعات طويلة يستعيدوا ذكريات أيام مضت، سعد طارق كثيرا بهذا اللقاء الأسرى الذي افتقده كثيرا وكادت الأيام أن تنسيه مثل هـذه اللقـاءات العائليـة المفعمـة بالحب والحنين،خلص طـارق بشـقيقته حنـان وأراد أن يطمئن عليها وعلى عملها خاصة بعدما علم عنها بعض الأخبار التي أقلقتـه مـن خـلال مكالماتـه مـع شـقيقهم احمـد،وحاول أن يقـف علـى أخـر المستجدات والمتاعب التي تتعرض لها عله يستطيع أن يسدد لها نصيحة تعينها على تدارك هذه المصاعب،غير ان حنان لم ترد أن تشغل شقيقها بمشاكل ترى أنها متكررة وليست ذات قيمة خاصة وانه جاء في زيارة قصيرة وسرعان ما سـوف يغـادر مرة أخـرى فلا داعي أن تحملـه مشـاكلها ويكفيـه غربتـه ومـا قـد يلاقيه من متاعب في عمله، فجميعنا نعمل والجميع يعاني ويقاسي في عمله من مشاكل ومتاعب قد يتعرض لها،لكن طارق أصر أن يقف على أخر المستجدات خاصة وانه علم أنها تتلقى بعض التهديدات من أشخاص لا تعرفهم ولا تربطها بهـم معرفـة شخصـية غير أنهـم ربمـا أضـيروا مـن كتاباتهـا ضـدهم ومحاولاتهـا كشـف ألاعيبهم،لم يكن طارق يـدرك أن من يقـوم بتهديد شـقيقته حنـان أفـراد من جماعـات إرهابيـة بعـدما تجاسـرت وحاولـت الـدخول إلى جحـورهم وكشـف سـترهم وذلـك بعـد التحقيـق الـذي قامـت بـه وفـتح عليهـا نيران جهـنم مـن كل حـدب وصـوب ولازالـت حتى الآن وبعـد مـرور فترة كبيرة مـن الـوقـت تقاسـي مـن تبعاته بعدما تحولت القضية إلى تحدي مباشر بينها وبين هذه الجماعات بعدما دخلت معتركهم وأصبحت عـدوة لهـم تحـاول كشـفهم وتعريـه ألاعيبهم وإرهـابهم المستتر،استمع صخر إلى حـديث حنـان وهـو لا يكـاد يصـدق سـمعه، فقـد كـان

يعلم أنها في متاعب تخص عملها ولكنه لم يدرك أنها في خطر حقيقي إلا بعد أن استمع لها وعلم من هم خصومها، فقد وقعت مع من لايرحم،ولن يتركوها لحالها بعدما تعرضت لهم ، فهو يعلم عن هذه الجماعات ويعرف الكثير عن أفكارهم وأساليبهم ، وهؤلاء الإرهابيين لن يتركوا شقيقته تنعم بحياتها وحريتها بعدما وضعت أصابعها في جحورهم وهاجمتهم وكشفت سترهم...

يا الله، ماذا عليه أن يفعل الآن، فلن يهنئ بالعيش بعد أن استمع إلى كل تلك الأحداث من حنان، وماذا يفيد الحديث الآن، فالمسألة قد تطورت كثيرا وخرجت عن الحدود، والأخطر من ذلك أن حنان إلى الآن لا تقدر حجم المخاطر المحدقة بها وتتعامل مع الموضوع ببساطة وكأنها في خصام وعداء مع جماعات مسالمة يمكنهم أن يتقبلوا مخالفة الرأي بصدر رحب ويكون أخرهم ردا مكتوبا أو اللجوء إلى القانون يفصل بينهم ، أنها تجهل أن من تتعامل معهم قتلة ومأجورين لا يهمهم سوى مصلحتهم ولا يعيرون أي شيء آخر اهتمام، ولا يعنيهم من يقف أمامهم ويناصبهم العداء، فالسلاح هو وسيلتهم للتفاهم،. والدماء هي لغتهم التي يتحدثون بها..

غادر طارق منزل شقيقته في صباح اليوم التالي متوجها إلى أخيه احمد في المحافظة القريبة من محافظتهم حيث يسكن مع شقيقتهم الصغرى سحر بعد أن تركت البيت في حارة الملاعين عقب وفاة والدتهم وذهبت للعيش مع شقيقها احمد في البيت الكبير الذي اشتراه من الأموال التي يرسلها له،قبل أن يغادر طارق شقة حنان عكف على توصيتها وشدد عليها بضرورة الحذر أكثر من ذلك والتمهل في خطواتها وعدم التهور في عداء هذه الطائفة التي تتخذ الموت

والدماء وسيلة للنقاش والعداء، فقد جبلوا على معادة من يختلف معهم في الرأي فقانونهم أما معنا أو علينا، وأوصى حنان بضرورة الحذر الشديد ويكفيها ما كتبته عنهم والتهديدات التي تلقتها سواء منهم أو من أتباعهم، وقبل مغادرته واعدها بضرورة الجلوس سويا والمناقشة المستفيضة في الأحداث التي استجدت معها وفحوى المكالمات التي تلقتها من هؤلاء المتأسلمين الذين يناصبون الحضارة العداء ولا يرتضون سوى أفكارهم المتشددة والمتطرفة طريقا لهم ومنهاج، ربتت حنان بعطف على أيدي شقيقها طارق وابتسمت تلك الابتسامة الواثقة وطلبت منه عدم شغل باله بهذه الأمور الصغيرة التي اعتادتها منذ أعوام كثيرة مع كل تحقيق تقوم بكتابته.

ركب طارق القطار متوجها إلى أحمد وسحر للاطمئنان عليهم ومتابعة مشاريعه التي كلف أحمد بها و كذلك الأراضي والعقارات التي تم شراؤها بناء على طلبه، وكى يطمئن على سير شركة السياحة التي طلب منه إقامتها والاهتمام بتنميتها حتى تكون مركزا ومستقرا له عندما يفكر في العودة إلى مصر وترك حياة الغربة والحياة الصعبة التي يحياها،استقبل احمد شقيقه طارق بكثير من الحفاوة والإكبار، وجلس معه الساعات الطوال يفند له المصاريف التي تكبدها في شراء ما طلبه منه، وكان قد اعد ميزانية خط فيها الوارد إليه من شقيقه وخصم منه المصاريف وقيمة ما اشتراه وما تم الاحتفاظ به في البنك، اطمئن طارق على سير الأمور، وتأكد أن ثقته في شقيقه كانت في محلها وانه قام بالمطلوب منه خير قيام،قضى طارق يومين كاملين في معية أحمد وسحر،أطمئن فيه على أحوالهم وأثلج صدره النجاح الكبير الذي لمسه في أعمال احمد ومحافظته على الأموال المرسلة وتنميتها بالطريقة المثلى،سعد طارق كثيرا

بنتيجة هذا اللقاء وبالجو الأسري الذي أحاطوه به،غير أن ما كان يشغل باله حقا شقيقتهم حنان، فهو لم يشاء أن يبث الخوف في قلبها من هؤلاء الإرهابيين اللذين يناصبونها العداء، وحاول أن يبسط لها الأمور بقدر الإمكان، ولكنه يعلم علم اليقين بما خَبره عن هذه الفئة أن شقيقته في خطر داهم، والأدهى من ذلك أنها لاتعي ذلك وتبسط الأمور وتتعامل معهم وكأنهم مجموعة مستثمرين استطاعت أن تعري كذبهم وخداعهم وغاية ما تتوقعه منهم أن يشكوها إلى رئيس التحرير أو يرسلوا للجريدة تكذيبا يتضمن نقاء سريرتهم ونظافة أيديهم،كلما أراد طارق أن يبعد هذا الفكر عن رأسه ويحاول إيهام نفسه انه ربما كان على خطأ في حكمه على الأمور وان معاملاته مع هذه الجماعات قد ولدت لديه هذا الإحساس بالخطورة المزعومة وأن الأمور ربما تكون ابسط من ذلك بكثير،.وجد فكره يأبى عليه تصديق ذلك ويعاوده خوفه الشديد على حنان وتمتلئ رأسه بالأفكار السوداء.

غادر طارق بيت أخيه بعد أن أوصاه على إخوته وخاصة حنان وطلب منه أن يكون دائما قريبا منها ويشعرها بوجوده بجانبها، وان يحاول معرفة المشاكل التي تحيط بها وإيصالها إليه أول بأول حتى يمكنه متابعتها والوقوف بجانبها عند اللزوم،طمأن احمد شقيقه طارق ووعده بتنفيذ تعليماته على الرغم من المسئوليات والمشاغل الكثيرة التي ينوء كتفه بحملها ،وان يتواصل بصورة مستمرة مع حنان ويحاول أن يكون بجانبها خاصة في الفترة القادمة.

ذهب طارق إلى حارة الملاعين لملاقاة أهلها وأصدقاءه القدامى، وكان يبغي من هذه الزيارة رؤية صديقة أيمن والتعرف على أحواله، فما عاد احد يهمه أمره

في هذه الحارة بعد أن ابتعد عنها كل هذه السنوات ومات فيها من مات وولد من ولد وشب شباب وتزوجت فتيات وتغير الكثير من معالمها ومبانيها بعد أن سافر من سافر من أبناءها وضخوا من الأموال ما مكن أسرهم من تشييد المباني العالية وهدم البيوت القديمة إما لتوسيعها وتعليتها أو أقامه بيوت أخرى محلها.

أسرع طارق إلى بيت صديقه للسؤال عنه والاطمئنان على أحواله، وهو بيت ليس بعيد عن بيتهم وقد علم انه لم يتركه وينتقل إلى مكان أخر، فهو بيت والده وقد استطاع أيمن أن يوسع مبانيه ويشيد لنفسه شقة واسعة سكن بها مع أولاده ومازال يسكنها حتى الآن،تمنى طارق أن يجد أيمن في البيت فهو يعلم أن إجازات الجيش قصيرة واغلب الأوقات يكون في الخدمة في كتيبته،

أبطىء طارق من خطواته بعدما اقترب كثيرا من بيت صديقه وكأنما كان يخشي أن يفاجأ بعدم وجوده ويعود أدراجه خائب الرجاء،دق طارق بيده الباب الحديدي الكبير الذي يغلق مدخل المنزل، وانتظر بعض الوقت، ولما لم يجيبه احد ضغط الجرس مرة ومرات ، وما هى إلا لحظات حتى سمع صوت صبي يجيبه بصوت مرتفع:

- من الطارق.

- أنا عمك طارق..

- من يكون عم طارق.

- من أنت أولا.

- أنا إبراهيم ابن الضابط أيمن.

- نعم يا إبراهيم أنا عمك طارق صديق والدك،هل هو موجود.

- نعم يا عمي،ولكنه ذهب لشراء بعض الأشياء وهو على وصول.

- إذاً اخبره أن عمك طارق صديقه في الجيش منذ زمن قد زاره و سوف أحضر مرة أخرى علني أجده.

- تفضل يا عمى انتظره حتى يحضر فهو لن يتأخر.

- بل سوف احضر في وقت أخر، ولكن لي سؤال هل تعلم متى تنتهي إجازته ويعود إلى الجيش ؟.

- سمعته يخبر جدي انه سوف يسافر بعد الغد.

- شكرا يا إبراهيم، سأعود مرة أخرى..

وبينما يلتفت ليعود أدراجه للخلف، إذا بصديقه أيمن يقف وراءه وقد عرفه من هيئته وجسده الضخم الذي لم يغيره الزمان،

وما أن التفت ورآه حتى ارتمى في حضنه وتشابكا بعضا من الوقت في عناق حار أذاب معه غربة سنين طوال وداوى عذاب الشوق إلى اللقاء، صعد طارق مع أيمن إلى شقته وهما ممسكان بأيدهما سويا، فقد كانت تربطهما صداقة حقيقية، وتجمعهما حياة وذكريات وأسرار ومواقف جمعت بينهما ووحدت بين

عقلهما ووجدانهما، تحدث الرجلان طويلا وتناولا ذكرياتهما وأيام حياتهما الماضية، وتكلم طارق وسرد الكثير عن أيام الغربة وصعوبة الحياة بلا صديق أو قريب، وتطرق في حديثه إلى كل شيء عدا طبيعة عمله الذي يقوم به، وادعى كذبا انه يعمل في شركة حراسة لتأمين الشركات والبنوك الكبيرة وانه قد وجد ضالته في هذا العمل الذي أتاح له الحصول على راتب كبير ووجد فيه نفسه وأرضى جزءا كبيرا من غروره،كان طارق قد اعد هذه الكذبة ورتبها تأهبا لأي سؤال مفاجئ عن طبيعة عمله فهو لا يستطيع أن يخبر أحدا حتى وان كان من اقرب الناس إليه بعمله في مافيا تهريب الأسلحة،.غير انه شعر بوخز الضمير وهو يكذب على صديق طفولته ويدعي عملا غير الذي يعمله، فقد أجاب نفس الإجابة على إخوته عندما سألوه عن عمله الذي يدر عليه كل هذه الأموال ولم يشعر إطلاقا بهذا الشعور الذي يخالجه وهو يجيب صديقه كاذبا، كم كان يتمنى أن يذكر له الحقيقة ويناقش معه الفكرة ويتحدث عن متاعبه وما يلاقيه من مخاطر ويستمع إليه عله يجيبه برأي يريحه أو ينصحه نصيحة تكون فيها فائدة أو حتى يلومه على هذا العمل ويطلب منه العدول عنه والالتحاق بعمل آخر أو حتى العودة نهائيا إلى مصر وترك هذا الطريق الخطر الذي لا يعلم نهايته إلا الله،تمنى طارق أن يتحدث في ذلك كله مع صديق عمره غير انه لم يستطع أن يفتح فاه بكلمة واحدة، وفضل أن يكذب عليه ويدعى عمل مخالف لما يعمله ويقوم به .

أخذهم الحديث طويلا وتحدثا معا في أشياء كثيرة في الماضي والحاضر، وفي خضم الحديث علم طارق أن أيمن تم ترقيته منذ فترة قريبه إلى رتبة نقيب بعد أن قضى فترة كبيرة في رتبة ملازم أول، وتحدث أيمن لصديقه عن شعوره

بالنقص من تخطي زملاءه له في الترقية لا لشيء إلا لأنهم خريجو الكليات العسكرية ويعدوا من الضباط العاملين، وفي الجيش التفرقة كبيرة بين المتطوع والضابط العامل الذي يعد الجيش بيتا له حيث يحصل على جميع مستحقاته وحقوقه غير منقوصة، في حين ينظر إلى الضابط المتطوع نظرة دونية في كل شيء بداية من الترقيات التي تتأخر كثيرا وربما يحال الضابط إلى الاستيداع وهو في رتبة نقيب ويكون قد مر به العمر بعكس ضباط الحربية اللذين يستمر الكثير منهم في الخدمة حتى الحصول على رتبة لواء، ووووو

واستمر أيمن في حديثه المتذمر بعض الوقت حتى جاءت لحظة انتبه فيها صخر للحديث واسترق السمع جيدا وطلب من أيمن أن يعيد مرة أخرى ما قاله منذ برهة، وكان الحديث الذي أراد صخر الاستماع إليه جيدا هو المكان الذي يخدم به أيمن، فقد كانت معلومات طارق انه يعمل بالقرب من المدينة في احدى الكتائب ويبعد عن العمران عدة كيلو مترات، ولكنه فوجئ الآن أن كتيبته قد انتقلت للعمل على الحدود في مكان قريب من مكان خدمته السابق قبل تركه الجيش، هنا لمعت عين صخر لمعان من عثر على كنز، وها هو يفتح له الأبواب دون أن يسعى إليه، فقد تبلورت فكرة خبيثة في رأسه طرح على إثرها الصداقة جانبا وتوارى طارق الصديق القديم خلف صخر زعيم المافيا المتمرس الذي تجرى الزعامة في دمه ويسعى للنجاح ونيل الفرص واحدة تلو الأخرى حتى يصل إلى المكان الذي يبتغيه ويسعى إليه داخل هذا التنظيم ،فما أن عرف مكان عمل صديقه القديم حتى سارع باستغلال الفرصة وطلب منه أن يرافقه في سفره إلى الكتيبة على الحدود وتعلل باشتياقه إلى الذكريات القديمة .ورغبته في زيارة كتيبته التي خدم بها مدة كبيرة من الزمن ولقاء

أصدقاءه اللذين زاملهم قديما وتربطه بهم علاقات حب ومودة،رحب أيمن بهذه الزيارة ورأى فيها تسلية له في مشواره الطويل وفرصة لقضاء بعض الوقت سويا ومناسبة يتعرف فيها على أصدقاء جدد في إحدى الكتائب التي خدمت مدة طويلة على الحدود ولدى أفرادها ذكريات وخبرات ربما يستمع إليهم ويستفيد منهم خاصة وان كتيبتهم قد انتقلت منذ مدة قصيرة وهو حديث عهدا بهذا المجال،غير أن صخر رأى شيئا أخر غير الذي رآه أيمن، فقد وجد في صديقه فرصة ساقها إليه القدر ليطلع على احدث المستجدات على ارض الواقع ويدرس بنظرته الخبيرة انسب أماكن تهريب الأسلحة ، وربما استطاع أن يتعرف على بعض الجنود ضعاف النفوس ممن يمكن أن يتعاونوا معه ويقوموا بتسهيل مهامهم نظير بعض الأموال القليلة التي يتقاضونها نظير خدماتهم،سافر الصديقان كلاً منهما يحمل في رأسه هدفا من هذه الرحلة التي جمعتهما، غير أن صخر كان قد شحذ همته واستعد بجميع حواسه للاستفادة من هذه الرحلة بقدر الإمكان وان لا يترك فرصة صغيرة أو كبيرة حتى يستغلها ويوظفها لخدمة أعماله التي باتت تشكل كل حياته وبدا يدين لها بالكثير،وقد كان لصخر ما أراد واستطاع خلال يومين قضاهم مع صديقه أيمن على الحدود أن يزور العديد من الأصدقاء ويتحدث مع عدد كبير من صف الضباط والجنود ويطلعوه على بعض عملياتهم السابقة وذكرياتهم مع المهربين وكيفية مقاومتهم والتغلب عليهم .ووووووو،

تمكن صخر من التعرف على نقاط الضعف والقوة على حدود هذه المنطقة، وكان الجميع يتحدث بثقة لا يداخلها ريب فهو صديق قديم وعمل معهم في هذا السلاح فترة طويلة وكان له أيادي بيضاء مازال يتناقل الكثير من زملاءه

والجنود الروايات والحكايات التي سمعوها عن بطولاته وانجازاته ومدى الرعب الذي كان يسببه لهؤلاء المهربين على مدى سنين طوال،انتهت زيارة صخر للحدود وعاد إلى القاهرة سالما غانما محملا بكم كبير من المعلومات التي وجد فيها ضالته وتأكد من أنها سوف تساعده كثيرا في الأيام القادمة و تتيح له الفرصة للقيام بعمليات ناجحة عبر الحدود المصرية،ويستطيع الجزم الآن بقدرته على تهريب كميات كبيرة من الأسلحة عبر المنافذ التي تمكن من دراسة مخارجها ودواخلها جيدا وتوصل إلى نقاط الضعف التي يستطيع عن طريقا تنفيذ العمليات التي سوف يعمل على إقناع التنظيم بها في الأيام القليلة القادمة حتى يستغل الفرصة التي أتيحت له قبل أن يتغير شيء في الخطط التي رسمها على ارض الواقع فيضيع الجهد الذي بذله والمعلومات التي استطاع أن يحصل عليها من أحاديثه الكثيرة التي أدارها بحنكة كبيرة للوصول إلى مبتغاه لإنجاح مهامه،قبل أن يسافر صخر متوجها إلى ألمانيا تلقى اتصال هام من احد زعماء المافيا الكبار يطلب منه الجنوح إلى العاصمة العراقية بغداد، وأخبره في هذا الاتصال بوجهته التي يجب أن يتجه إليها حيث مكان إحدى العمليات الكبيرة التي تقوم بها المافيا لتهريب شحنة كبيرة من الأسلحة عبر الحدود العراقية وربما تحتاج إلى مساعدته لان رجلهم الذي اسند إليه تنفيذ تلك العملية يبدو انه قد لاقى بعض الصعاب وبحاجة لمن يقف بجانبه و يساعده لإتمام هذه الصفقة بعد ما اشتدت المعارك هناك بين الطوائف المتناحرة ودارت رحى الحروب العرقية بين الفصائل المختلفة، وأخبره بضرورة البقاء عدة أيام بعد إتمام الصفقة لمحاولة فهم طبيعة البلد ولقاء عدد من رجال العشائر والفصائل للتعرف عليهم بمساعدة رجال العصابة المتواجدين

حاليا في العراق لتنفيذ العملية الموكولة لهم وذلك تمهيدا لإتمام عدة صفقات مع هذه الجماعات حيث أن العراق يعد أحد الأسواق الهامة لمافيا السلاح هذه الأيام ويموج بحركات نشطة من الصراعات القائمة بين العديد من المذاهب والفصائل المتناحرة ، وبناءا على هذا الاتصال غادر صخر القاهرة متوجها إلى مطار بغداد الدولي في رحلة لم تكن في الحسبان ولم يحسب لها حسابات .

" ١٤"

وجد طارق في هذه الرحلة فرصة قد واتته لزيارة شقيقته صفاء التي استقر بها الحال هى وزوجها وابنهم هيثم في العاصمة بغداد حيث يعمل زوجها منذ عدة سنوات ولم تتيح لهم الظروف أن يلتقوا سويا بعدما باعدت بينهم المسافات وأحوال المعيشة فجعلت كلا منهم في طريق يصارع الحياة وتصارعه لتحقيق أمانيه في عيشة رغدة بعيدا عن الحياة في ارض الوطن الذي أغلق أبواب رزقه في وجوه الكثير من أبناءه وجعل منهم طيورا مهاجرة تحط في كل دولة بعض الوقت تلتقط منها ما تقدمه لها وسرعان ما تطير إلى بلد آخر حتى يستقر بها الحال في مكان يأويها وتستطيع الحياة على أرضه في أمن وسلام،وصلت الطائرة إلى مطار بغداد الدولي، ووجد صخر أحد رجال المافيا ينتظره خارج المطار ويأخذه بسرعة مبتعدا به عن شوارع المدينة المزدحمة،وينتقل به إلى مكان متاخم لبعض القرى والأماكن الريفية،

بادر الرجل صخر بالقول:

- اسمي أفلاطون، وأنا مندوب المافيا في العراق، وأقيم هنا منذ عدة سنوات، ولى معرفة بالكثير من الجماعات التي نمدها بالسلاح من الفصائل المتصارعة، وكذلك بعض الجماعات الإرهابية التي تقاتل لغرض في نفسها أو لمذهب تعتنقه، فهذا لايهمنا كثيرا، وأردت أن انقل إليك أن وجودي هنا أصبح فيه خطرا كبيرا على تجارتنا وعلى شخصي، فيبدو أن استمراري هنا لمدة طويلة،ومعرفتي بهذا الكم الكبير من هذه الجماعات قد جعل لي صيت كبير أخشى أن يكون صداه وصل إلى السلطات حيث أني استشعرت بعض الريبة

خلال الأيام الماضية، ولذلك طلبت من زعمائنا في أوربا ضرورة مغادرة العراق نهائيا وتعيين بديل لي في هذه المنطقة يكون مندوب المافيا في تجارة الأسلحة ويكون على علم ببواطن الأمور ومجريات الأحداث في هذا السوق الواعد، ويبدو أنه قد استقر الرأي عليك لتكون رجلنا في هذه المنطقة،وقد طلب مني أن أطلعك على خبايا السوق العراقي،وأعرفك على بعض رجالنا اللذين نتعاون معهم وهم بمثابة حلقة الوصل بيننا وبين العشائر والفصائل.

بادرته بالسؤال:

- ولكني لا أعرف شيئا إطلاقا عن العراق ولم يسبق لي زيارتها من قبل،أليس هذا عائق كبير لي في العمل هنا، وربما يأخذ مني وقتا طويلا حتى اعتاد على طرقها وشعابها واستطيع مباشرة الأعمال بها.

- على العكس تماما، فربما كان هذا هو نفس السبب الذي تم اختيارك على أساسه، فأنت وجه جديد على المجتمع العراقي،ولم يسبق لك الحضور إلى هنا، وبالتالي فأنت بعيدا عن كل شك يمكن أن يداعب السلطات،ثم لا تنسى أن لك شقيقة تقيم هنا في العراق منذ عدة أعوام، وهذا سبب كاف لإبعاد الشبهة عنك، فأنت هنا لزيارة شقيقتك والاطمئنان عليها، وليس لأي غرض آخر، ويمكنك أن تأتي وتذهب وتنفذ بعض العمليات دون أن تثير الشك والريبة.

- أهه، وهل تعلمون أيضا بوجود شقيقتي هنا.

- صخر، ماذا دهاك، معلوماتي عنك انك رجل قديم في المافيا، بل احد قادتها، كيف بك تسأل سؤال ساذجا كهذا السؤال، ألا تعلم عن المافيا أنها تعلم كل الأمور الظاهرة والخافية عن رجالها..

- نعم،نعم، لا تؤاخذني . فقط دهشت عندما تحدثت عن شقيقتي كأحد الأسباب التي دعمت ترشيحي للعمل هنا .

- لا عليك من هذا، دعنا الآن من هذه السفسطة ولنتحدث حديث عمل..

- نعم نعم، لقد علمت أن هناك إحدى العمليات أخفقتم في تنفيذها وبحاجة إلى دعم حتى يمكن الانتهاء منها وتسليم الأسلحة لطالبيها.

-نعم هو كما قلت، ولكنه ليس إخفاق، فكما قلت لك أن وجودي أصبح محاط بالريبة والشك، وأخشى الظهور علانية حتى لا أصبح في مرمى بصر السلطات، وشحنة الأسلحة التي تحوى العديد من القنابل اليدوية والأسلحة الأوتوماتك مازالت عالقة على الحدود وبحاجة لمن يستطيع نقلها إلى داخل البلاد وتسليمها لجماعة إرهابية تتخذ من الدين ستارا لأعمالها.

- ولكن كيف لي أن أقوم بإدخال هذه الشحنة و مازلت لا اعلم شيئا عن منافذ الحدود والطرق التي يمكننا النفاذ منها.

لا عليك فالخطة موضوعة مسبقا، والطريق الذي سوف تتبعه الشحنة معلوما لنا وتم تأمينه تماما والتأكد من انه الطريق الأمثل، غير أن الأمور بحاجة لوجه جديد يستطيع المرور بهذه الشحنة والتعامل مع عملائنا ممن تم

استقطابهم وتجنيدهم لحسابنا على هذه المنافذ، وكذلك التعامل مع طالبي الشحنة، وقد تم الاتفاق معهم وإبلاغهم بجميع المستجدات، فلا تخشى شيئا، فأنت في هذه العملية لست إلا وجه جديد عن السلطات التي تحاول أن تضيق علينا السبل بعدما زاد نشاط تجارة السلاح وأغرقت الأسلحة الأسواق.

-نعم فهمت قصدك، لا عليك سوف يكون كل شيء على ما يرام.

إن التعليمات التي تلقيتها تقول انك سوف تمكث الليل هنا نتدارس سويا هذه العملية المؤجلة، وأطلعك على تفاصيلها كاملة، وفي الصباح يتم الاتصال ببعض رجالنا ممن سوف يساعدوك في التنفيذ وتيسير الأمور، ثم تنطلق بصحبة احدهم إلى حيث يجب أن تكون مع السيارات التي تحمل الشحنة لتقوم باستكمال الخطة وتنجز المطلوب منك.

-وماذا بعد انجاز المطلوب وتسليم الشحنة . هل لديك أوامر بشيء أخر،

لا تتعجل الأمور.

-أردت فقط أن اعرف خطواتي حتى أكون على علم وارتب أفكاري.

-فليكن، بعد انجاز هذه المهمة يمكنك الذهاب إلى بيت شقيقتك والجلوس معهم لمدة يومين كاملين حتى تبدو الزيارة وكأنها الهدف من قدومك للعراق، وبعد ذلك نتقابل مرة أخرى حتى أطلعك على كل ما في جعبتي عن هذه المنطقة واهم المهربين بها، ورجالنا اللذين يعاوننا،ثم اعهد بك إلى احد رجالنا يستكمل معك المشوار على ارض الواقع حتى تتمكن من دراسة طبوغرافية

البلد وتستطيع التعامل بعد ذلك على بينة وتقوم بتنفيذ العمليات التي سوف توكل إليك تباعا، فأنا في نهاية الأسبوع سوف أغادر نهائيا وتكون أنت البديل هنا،وان كانت المعلومات القليلة التي أتيحت لي انك لن تستقر بالعراق بل انك سوف تكون منفذ للعمليات في رحلات خاطفة وتعود أدراجك إلى مكانك وعملك الأصلي في ألمانيا، على أن تعاود مع كل عملية كبيرة.

-فليكن ولنبدأ في تدارس المعلومات عن عمليتنا حتى ننجز ما جئنا لأجله، ونرى بعدها الخطوة القادمة، فأنا مشتاق لرؤية شقيقتي وعائلتها للاطمئنان عليهم في هذا الجو الدموي الذي تعيشه العراق ونسمع كل يوم عن ضحاياه،قضى الرجلان الليل بأكمله يعدان الخطة ويراجعان بنودها ويتفقان ويختلفان حتى أدركهما التعب بعد أن كانا قد استقرا على الطريقة المثلى التي يتم بها التنفيذ وتضمن لهذه الصفقة المرور بسلام.

وبقدر ما كان أفلاطون منطلقا في الحديث واخذ بيده زمام الأمور، فما أن افرغ ما في جعبته من معلومات ، واطلع صخر على بنود الخطة كاملة، حتى توارى تماما، واخذ ينظر إلى صخر باندهاش وتعجب بعدما رأى منه حنكة في التخطيط ورؤية صائبة للأمور، حتى أن صخر قام بتغيير أكثر من نصف الخطة الموضوعة،و امسك بالقيادة في يده،بعدما أصحبت العملية تخصه وتقع على عاتقه.

جلس أفلاطون يستمع إلى محاضرة من صخر على كيفية التحرك، والثغرات التي من الممكن الوقوع بها،والوقت الأمثل لتنفيذ تلك الصفقة، وعدد الرجال اللذين سوف يساعدونه،وتحول أفلاطون فجأة إلى نادل مهمته الاستماع وعمل

القهوة وتدخين السجائر، حتى تم الانتهاء تماما من وضع خطتهما الجديدة وباتت في انتظار التنفيذ.

ومع بزوغ الصباح بدأ أفلاطون في إجراء الاتصال برجاله والتنسيق معهم والاطمئنان أن كل شيء على ما يرام كما خطط له ،وقبل الظهر بقليل جاءت سيارة صغيرة بها رجل قصير القامة لا يكاد يظهر من ملامحه سوى وجهه المستدير وصلعة لامعة وتلك النظارة السوداء التي تغطي نصف وجهه،وقف الرجل بسيارته أمام باب المنزل ينتظر صخر ليقله معه إلى حيث يبدأ أولى خطواته في تنفيذ هذه العملية،ركب صخر السيارة بعد أن ودع أفلاطون، وانطلقت بهما مسرعة إلى المكان المتفق عليه، طار خبر نجاح العملية وإتمام الصفقة إلى زعماء المافيا في مساء اليوم التالي، وقد لاقى ذلك استحسانا كبيرا لديهم وتأكدوا أن ثقتهم في صخر كانت في محلها، وكانت فرحتهم شديدة أن وجدوا من يقوم بعملياتهم في تلك المناطق الملتهبة والتي تعد سوقا رائجا لهم ولتجارتهم، حتى أنهم باتوا يخططون لنقل معظم أعمالهم وتجارتهم إلى هذه المناطق التي تشتعل فيها الخصومات والتنافس بين الفصائل والتناحر بين الطوائف بعضها البعض، علاوة على انتشار العمليات الإرهابية وتعدد مسميات القائمين عليها واللذين يبدو أنهم اخذين في ازدياد مع ما يجتاح البلدان العربية من فقر وتخلف وأمية دينية وثقافية تسمح لأصحاب الفكر المتطرف أن يسودوا ويكون لهم من الأتباع ما يحمل فكرهم ويعمل على تنفيذ مخططاتهم في تكفير البلاد والعباد والنيل من الدول ومؤسساتها،.

كان صخر قد أتم عمليته بنجاح بعدما رسم لها الخطة كاملة، واستطاع بما له من خبرة في هذا المجال من اجتياز الحدود والدخول إلى الأراضي العراقية، وعن طريق بعض أعوانه تم تسليم الشحنة بنجاح، ومع انتصاف الليل كان قد انتهى تماما من تنفيذ ما أوكل إليه وعاد سالما هو ومن معه دون أن يتعرض لهم احد أو يمنعهم مانع،استقل صخر إحدى الحافلات العمومية واتجه إلى العنوان الذي تقطن فيه شقيقته وزوجها.

لم تستغرق الحافلة وقتا طويلا فقد كان منزلهم في منطقة قريبة من وسط البلد حيت توجد المنطقة الصناعية التي يعمل زوجها في أحد مصانعها، ويأخذ العمل منه معظم وقته، فلا يعود إلا وقد جن الليل ليتناول غذاءه ويخلد إلى نوم عميق يستيقظ منه صباح اليوم التالي ليتجهز ويغادر المنزل إلى العمل مرة أخرى وهكذا يستمر به الحال يوما بعد يوم في حياة هى البؤس بعينه، ولكن ماذا عساه أن يفعل غير ذلك، فهو لم يجد عملا يقوم به أفضل من ذلك، وكغيره من اللذين خرجوا بحثا عن الرزق يجد في بعض الدنانير القليلة التي يجمعها ثروة تعينه على حياة الفقر التي يعيشها في مصر، وملاذا آمنا وأملا في حياة ثرية تنتظره عند عودته إلى بلده بعد أن ينهى عمله في العراق،والذي يبدو انه لن ينهيه أبدا، فمثله مثل كل من هاجر لأجل العمل،تأخذه الغربة وتسرقه الأيام ليجد في النهاية عمره قد أفناه في جمع اليسير من المال وضاع معه شبابه وحياته وآماله التي كان يصبو إليها ويتطلع إلى تحقيقها، فها هى الأيام تمرق والعمر يمر ويضيع معه ما تبقى من أحلام وأمال.

كان هذا ما علمه طارق من شقيقته صفاء وهى تسرد له معاناة الغربة وما يلاقونه من عذاب يومي في تعاملهم في هذه الحياة الموحشة التي لا ينتمون إليها ولا تنتمي إليهم، غير أن الحاجة هى التي دفعتهم إليها دفعا،وهم في سبيل الخروج من شظف العيش غادروا بلادهم واختاروا الغربة وطن بديل يشعرون بقسوتها كل لحظة يعيشونها .

أدرك طارق من حديث صفاء ومن أحوالهم وحياتهم الصعبة لماذا كان جزعها على الأموال التي فقدوها في شركة الأموال في مصر، وأيقن أن حزنهم على ضياع تحويشة العمر لم يأتي من فراغ، فليس من الإنصاف أن يكد الإنسان ويشقى في سبيل أن يجد قوت أولاده ثم فجأة يأتي من يستولى على تلك الأموال ويحرمه منها،حقا إن ما نقلته له حنان عن مدى الحزن والجزع الذي أصاب شقيقتهم صفاء على فقدان أموالهم لم يكن مبالغا فيه، بل إن الحزن الذي يراه الآن واضحا في عينيها لهو أكبر بكثير مما تخيلته حنان،قدر صخر هذا الحزن الدفين واستطاع أن يتفهمه، فلو أن هذا الموقف قد حدث معه لما ترك أصحاب هذه الشركات يهنئون بالحياة بعدها أبدا، وما كان يشعر بالراحة إلا بعد إزاحتهم من على ظهر الدنيا وجعلهم يندمون اشد الندم على ما اقترفت يداهم بحق هؤلاء التعساء اللذين ساقتهم الظروف للوقوع في شباكهم.

عاد طارق بسرعة إلى نفسه،ونظر إلى شقيقته باسماً، وأراد مداعبتها ببعض الكلمات بعدما رأى الدموع تكاد تملئ عينيها وهى تحدثه عن حال زوجها بعد ضياع أمواله وشقاء عمره.

-ماذا أعددتِ لنا غداء اليوم، لقد اشتقت إلى الأكلات المصرية، ويا سلام لو كانت أكلة "محشى" كرنب ومعها بعض اللحوم المحمرة، والفاصوليا والملوخية.

-لقد اشتقت إلى هذا الجو البعيد عن حياة الغربة .

-لا عليك طارق سوف أقوم بتجهيز كل ما تشتهيه وليس عليك سوى أن تطلب وسوف يجاب طلبك على الفور، ليتك كنت معنا دائما فنحن هنا لا يزورنا أحد ولا نزور احد، وعمل نعيم زوجي لا يتيح لنا الخروج كثيرا فهو يأتي مجهدا، ويوم راحته يقضيه في النوم كى يستريح جسده ويستطيع مواصلة العمل الأسبوع التالي، ليتك تقضي معنا إجازة طويلة، فأنا بحاجة أن أتحدث مع احد وأبثه همى ومعاناتي . وأنت لي نعم الأخ بل أعدك في مقام أبي منذ وفاته ، ليتك يا أخي تنقل عملك في العراق وتقيم هنا بجوارنا ونسعد بوجودك معنا.

-ليت ذلك ممكنا يا صفاء ولكن عملي لا يتيح لي ذلك، ولكني أعدك أنى سأزوركم بين الحين والأخر، والأيام القادمة سوف نلتقي كثيرا، فلا داعي لهذا الإحساس المرير الذي يتملكك من الغربة ومعاناتها،وتأكدي أن الأمور سوف تسير على ما يرام.

-نعم يا طارق، هل رأيت ماذا تفعل بنا الغربة، أن ابني هيثم لم يعرفك عندما فتح لك الباب، بل انه خافك وجاءني مهرولاً يخبرني أن غريبا بالباب ... إلى هذا الحد أصبحت الحياة موحشة أن الطفل لا يعرف خاله الذي هو بمثابة والده، ويعيش كل منهما في قارة غير القارة وحياة غير الحياة.

-نعم يا صفاء معك الحق، ولكن أين هيثم ذلك الولد الشقي أريد أن العب معه واجلس إليه أطول فترة ممكنة فأنا اشتاق إليه كثيرا فمنذ أن كان طفل صغير لم أراه،وهاهو يقترب من السادسة من عمره، لقد مرت السنين سريعة،أريد أن اشبع منه ومن ضحكاته،وأسعد بوجوده بجانبي، - لقد ذهب إلى مدرسته وهو على وشك العودة في خلال ساعة من الوقت،أكون قد أعددت لك الغداء.

دخل طارق ليستريح بعض الوقت ويبدو انه قد غافله النوم قليلا، وما يدري إلا وصفاء توقظه لتناول الغداء، وتخبره بعودة هيثم من المدرسة وأن مائدة الطعام تم تجهيزها، تناول طارق غداءه وأكل بشهية مفتوحة وكأنه كان في صيام طويل افطر منه اليوم على هذه الوجبة المحببة إلى نفسه ومع هذه الصحبة القريبة إلى قلبه، وكأنما عادت به الأيام إلى سنين مضت حيث جو الأسرة وعبق الحب يخيم على المكان ويملئ الوجدان بمشاعر كادت أن تُنسى مع جفاف الأيام وتصحرها بعيدا عن الأهل والخلان.

أعدت صفاء الشاي لأخيها وجلسا سويا يتذكران أيامهما الماضية والحياة التي عاشوها سويا مع أخواتهم حنان وسحر واحمد، وقبل تلك الأيام عندما كانوا صغار في حضن أمهم وأبيهم ...تحدثا طويلا واستعادا ذكريات ضحكا لها كثيرا.

امسك طارق يد هيثم وقبلها وقال له:

-هل تعلم من أكون يا هيثم ؟،

-نعم أنت خالي.

-ولماذا تملكك الخوف وأنت تفتح الباب في الصباح.

-لأني لم أراك من قبل ولم أكن أعرفك .

-وماذا تعرف عني يا عم هيثم.

-أعرف انك خالي، وان أمي تحبك جدا وتحكى عنك كثيرا .

-وماذا تقول لك أمك عني.

-تقول انك عملت ضابط بالجيش، وانك رجل قوى، وتعمل في بلد بعيد عن هنا وناجح في عملك .

-هل تحب أن تكون ناجح في عملك مثلي.

-ولكنى لا اعرف ما هو عملك، وعندما سألت والدتي لم تجيبني، ربما هى الأخرى لا تعلم.

-لا عليك يا هيثم عندما تكبر سوف أعلمك كل شيء،وسوف تعرف الكثير عن أمور الحياة، وسوف يكون لنا لقاءات كثيرة أطلعك فيها على أشياء كثيرة،وأعلمك كيف تكسب الحياة وتأخذها في صفك، ولا تجعلها لك عدوة فتنقلب عليك وتكدر عليك صفوك.

-أنا لا افهم كلامك يا خالي، ما ذا تقصد بهذا القول ؟.

.لا شيء، لا شيء، دع كل شيء في حينه، وسوف تراني كثيرا الأيام القادمة، وسوف نقضى سويا أحلى الأوقات نلعب فيها ونلهو.

-ولكن يا خالي أنت تضحك وتلهو، فلماذا تقول عنك أمي انك جادا وعابس دائما.

انفجر طارق ضاحكا وقد علت ضحكاته حتى أن صفاء أتت مسرعة من المطبخ على إثرها تستطلع الخبر الذي أغرق طارق في الضحك إلى هذا الحد.

-يا صفاء هل أخبرتي هيثم أن خاله عابس الوجه ولا يضحك أبدا.

ضحكت صفاء مع ضحكات طارق، وقالت له:

- هذا الولد عفريت وكنت احكي له كثيرا عنك، وكان يطلب أن أصفك له.

-لا عليك يا هيثم إن خالك يضحك مثلما يضحك الناس، ويبكي مثلهم، ويحب بدليل أنى احبك جدا جدا جدا.

-وأنا أيضا احبك يا خالي جدا جدا.

فتح طارق ذراعيه وارتمى بينهما هيثم في حضن أبوي لم يشعر بمذاقه طارق قبل هذا اليوم، اخذ يضم هيثم إلى صدره ويقبله في حنان وعطف، ثم ادخل يده في جيبه واخرج مبلغا من المال دسه في يد هيثم وقال له:

- اشتري بهذا المبلغ العاب تلهو بها مع أصدقاءك.

قضى طارق يومين مع أسرة شقيقته، تحدث قليلا مع زوجها نعيم في مساء أول يوم له في الزيارة بعد عودته من العمل ، وهاله ما لمسه من إجهاد بادي على وجهه حتى انه كاد أن يستغرق في النوم وهو يتحدث معه،ولم يشأ طارق

أن يشق عليه بالسهر، فتبادل معه حديثا قصير اطمئن به على أحواله وعمله في المصنع، وتحدث معه في رؤوس بعض المواضيع بخصوص حياتهم في العراق وأفكاره الخاصة بالمستقبل، غير انه وجد رؤية زوج شقيقته غير واضحة في كثير من الأمور شأنه شأن الكثير من المغتربين الذين يتركون حياتهم تُسيرها الأهواء وفق ما تشاء، وكان أهم ما لاحظه على نعيم حزنه الشديد على الأموال التي فقدها في مصر خاصة وانه علم انه قد استدان ببعضها وحرر على نفسه إيصالات أمانه بهذه المبالغ ويخشى مطالبة الدائنين له وعاقبة الأمور ، لم يشأ طارق أن يشق على نعيم بأسئلة كثيرة، غير انه طالبه بعدم إجهاد نفسه زيادة عن اللزوم وضرورة الاعتناء بصحته لأنها الأهم من كل أموال العالم ، حتى إذا تطلب الأمر ترك عمله إلى عمل آخر غير هذا الذي يمتص حياته وصحته، وتمنى له الخير، وتركه يذهب لينام حتى يمكنه مواصلة العمل في اليوم التالي ، أراد طارق أن يرى العراق جيدا ويتعرف على شوارعها ومبانيها، وفي نفس الوقت فضل أن يظهر مع شقيقته في المدينة حتى يرسخ فكرة زياراته للعراق بهدف زيارة شقيقته وأسرتها،لذلك طلب من صفاء أن يخرجا معا في الصباح ليزورا معالم البلد، ووجدتها صفاء فرصة لها هى وهيثم لقضاء يوما في نزهة ربما لا تتاح لهما مع ظروف زوجها وعمله المستمر،وقد كان وغادروا جميعا المنزل بعد أن اتفق طارق مع سائق إحدى سيارات الأجرة أن يقلهم إلى معالم بغداد حتى يمكنهم زيارة اكبر قدر من هذه المعالم في السويعات القليلة المتاحة لهم،كان يوما جميلا قضوه جميعا في تلك الزيارات التي لم تكن في الحسبان ، وقضوا يوما من المتعة والسعادة الأسرية التي أنستهم الكثير من

المتاعب التي صادفتهم وتركوا أنفسهم على سجيتها يمرحون ويلهون ومعهما هيثم يطير من الفرحة وكأنه لم يلهو من قبل ...

انتهى اليوم سريعا وحان وقت المغادرة، صافح طارق صفاء وامسك بيدها طويلا،وأوصاها كثيرا على هيثم وزوجها، وقام بتقبيل هيثم واعدا إياه بالعودة مرة أخرى قريبا وتكرار هذه النزهة الجميلة التي استمتعوا فيها جميعا، وقبل أن يغادرهم، أَسَر لصفاء ببعض كلمات جعلتها في قمة السعادة بعدما ابلغها انه ترك لها في مصر مع شقيقهم أحمد مبلغ من المال يضاهي ما فقدوه في شركة الأموال، و أوصاه بوضعه باسمهما في احد البنوك، وترك لها الخيار أن تخبر زوجها بذلك أو لا تخبره، أغرورقت عين صفاء بالدموع وهى تسمع من طارق هذا الخبر السعيد، وقامت بطبع قبلة على جبينه، وودعها طارق وغادر مسرعا ...

" ١٥"

غادر طارق بيت صفاء مودعا إياها على موعد لزيارتها مرة أخرى قريبا،وسريعا عاد إلى أحد العناوين الذي أعطاه إياه أفلاطون قبل أن يفترقا استكمالا للخطة الموضوعة،وأعد له مقابلة احد رجال التنظيم ليقوم باستكمال باقي الخطوات ويصطحبه معه للتعرف على باقي رجال المافيا بالعراق وهم بدورهم سوف يكملوا معه الرحلة كلاً حسب التعليمات الصادرة إليه والدور الذي رسم له بكل دقة ، فقد اعتادت تلك التنظيمات المحترفة أن لا تترك شيئا للظروف وأن تعد لكل أمر عدته، وكل فرد في هذه العصابة يعرف قدره ويتصرف في حدود المقدر له ولا يتجاوز الدور المرسوم له قيد أنملة، ومن يفعل ذلك فالعقاب سريع وعنيف وقد يصل إلى التصفية الجسدية والتخلص من هذا المتجاوز أذا ما ثبتت نيته على الغدر أو الخروج عن الطور ومحاولة القفز فوق الأسوار وشق عصا الطاعة .

وكل أفراد التنظيم يدركون ذلك ويعرفون أدوارهم جيدا ولا يحاول احدهم تجاوز هذا الدور، وجميعهم تم اختيارهم بعناية فائقة ممن تنطبق عليهم الشروط والمواصفات التي تتيح لهم تنفيذ المطلوب منهم دون زيادة أو انتقاص، وليس لأحد منهم الحق في الإبداع أو إعمال عقله بصورة منفردة ، حتى الزعماء من رجال العصابة يترك لهم الحرية ولكن في حدود، فليست حرية مطلقة تتيح لهم فعل ما يشاءون وقتما يريدون، بل حريتهم مقيدة بأساور وقيود تضعها المنظمة وتشرف على تنفيذها إشراف كامل ولا تتركها للظروف تتلاعب بها.

أستطاع صخر خلال هذا الأسبوع أن يلم بدقائق الأمور، ويتعرف بمشايخ القبائل ممن يربطهم بالمنظمة اتصالات وروابط قديمة تجعل منهم زبائن مستديمين لشراء السلاح، وقام بعض أعوانه بدور الوسيط في تعريفه ببعض زعماء التنظيمات الإرهابية اللذين اتخذوا من القتل وسفك الدماء وسيلة لردع البسطاء من الناس ومحاربة الحكومات بزرع القنابل والعبوات الناسفة في دور العبادة والمواصلات والأماكن المزدحمة و يذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء دون ذنباً جنوه أو خطأ ارتكبوه، ويلجأ هؤلاء القتلة لسفك الدماء البريئة بعدة فتاوى مشبوهة أعدت خصيصا لتوافق مآربهم وأغراضهم التي يخفونها تحت عباءة الدين وهم ابعد ما يكون عن تعاليمه والدين براء منهم ومن جرائمهم،جمعت عدة جلسات طويلة بين صخر وعدد من زعماء تلك المجموعات الإرهابية، وهاله ما سمع من احاديثهم ، ومدى تطرف أفكارهم، والقسوة التي تملئ قلوبهم، والدماء التي تلطخ أيديهم، كان صخر قد تنامى إلى سمعه الكثير عن الإرهاب وزعمائه وأفكارهم المغلوطة، غير انه لم تتح له الظروف من قبل الجلوس مع احد منهم وجها لوجه، وأدرك صخر أنهم ليسوا بشر يحملون في صدورهم قلوبا و مشاعر، وان الدماء تسيل بين أيديهم كالماء يجري في النهر، أصاب صخر غصة في حلقه وانقباض في قلبه وهو يتحدث مع هؤلاء الطغاة ممن لا قلب لهم ولا وطن ولا دين، وجال في فكره شقيقته حنان ومعركتها التي تديرها مع هؤلاء القتلة، ممن لا يرحمون، ولا يسمحون لأحد بمهاجمتهم أو عداوتهم، وليس لهم وسيلة للحوار سوى القتل،والقتل فقط، قُبض صدر صخر وهو يتخيل حنان بين قبضة هؤلاء القتلة، وزاد غمه وخوفه كون حنان لا تدرك حجم المأساة التي تعيشها ولا تعطي لهؤلاء القوم حقهم،

وتتحاور معهم كأنهم مجموعة من الشعراء أو الأدباء تنتقدهم فيكون ردهم عليها قصيدة هجاء أو مقال لاذع، وتساءل صخر بينه وبين نفسه،. كيف استطيع إبعاد هؤلاء القتلة عن طريقك وأجعلك تتراجعين عن مناصبتهم العداء وأنا أدرك مدى عنادكِ وتمسككِ برأيكِ حتى وإن كان فيه هلاكك.

انهي صخر هذه المقابلات وخرج منها مهموما فقد أخذته إلى مكمن ضعفه وأحبته في مصر، وخلص أخيرا إلى أنه لن يستطيع تغيير شيئا والمكتوب لابد له أن يكون، وأصر في نفسه ضرورة محادثة حنان مرة أخرى ومحاولة إثناءها عن الانجراف في هذه الهوة السحيقة ومحاولة إقناعها بنشر تحقيقاتها عن أى موضوع آخر بعيدا عن هذا الطريق الذي سوف يصل بها إلى الهلاك،نفض صخر عن نفسه هذه الأفكار التي ملكت عليه عقله وحواسه وأخذت من وقته الكثير مخافة أن تؤثر على عمله وتعوقه عن انجاز ما تبقى له في خطة العمل الموضوعة .

انهي صخر أسبوع إقامته في العراق وبقدر ما بدا سعيدا في بدايته وانتابته حالة من البهجة بتنفيذ العملية الموكلة إليه بنجاح كبير، ثم لقاءه مع صفاء شقيقته وهيثم ابنها وقضاء إجازة سريعة معهم أعادته إلى حياة الأسرة والمشاعر الإنسانية التي كاد أن ينساها في زخم تعاملاته اليومية مع عصابات المافيا والمهربين قساة القلوب منزوعي الرحمة،.إلا انه في نهاية الأسبوع بدا في حالة من الضيق والغضب، و شعور بالخطر الحقيقي على اعز ما لديه في الحياة، وبدا يضيق بهؤلاء الرجال من حوله من أكلة لحوم البشر وسفك

الـدماء، وتسـاءل مـع نفسـه ،كيـف لي وضـع يـدي في أيـديهم و ملئ ترسـانتهم بالأسلحة كي يستخدموها لقتل الأبرياء ويعيسوا في الأرض فساد .

انتـاب صخر إحساس بالندم لم يكن يخالجه قبل هذا اليوم، وبدأ عدد من الأسئلة وعلامات الاستفهام تراود فكره عن جدوى ما يفعله، وهل هذا هو ما كان يصبوا إليه، ويحلم به، لطالما عقد صفقات أسلحة كثيرة، وتمكن من تهريب شحنات كبيرة من الذخائر، غير انه لم يكن يعلم مسار هذه الأسلحة، ولم يكلف خاطره في السؤال عن من سوف يستخدمها ومن ضحاياها، ومن القاتل ومن المقتول،فقد كان عمله محصور في التسليم والتسلم، ولم يسأل لمن ولماذا، غير انه بعد أن وضع يده في يد هؤلاء القتلة وعلم وجهة هذه الأسلحة وفي أى غرض يتم استخدامها أدرك أن الطريق الذي بدأه وصار فيه إلى النهاية واستطاع أن يحقق فيه ذاته ويجمع منه الملايين ليس الطريق الذي يبتغيه وأنه قد أخطأ الوجهة، وان شباك الأمل والحياة الذي انفتح له ليس هو الشباك الذي كان يسعى إليه بل هو شباك لعنة أصابته، تضاف الى لعنات لحقت به سابقاً.

أراد صخر أن ينفض عن نفسه هذه الفكرة التي رأى أنها لن تفيده في الوقت الراهن بشيء وحاول أن يوعز إلى نفسه أن خوفه على حنان هو الذي أورثه هذه الأفكار المثبطة التي ربما تكون وبال عليه لو استمر في اعتناقها والانسياق ورائها، ورأى انه من الأسلم له أن يكمل حياته كما بدأها وينسي تلك الأفكار التي تعد صحوة ضمير يحتضر بعد فوات الأوان، أخذ صخر دشاً ساخنا، وشرب فنجان القهوة،وأخذ ينفث دخان سجائره وكأنما يطرد معه ما تبقي من

غضب ملىء صدره، ثم ارتدى ملابسه واخذ حقيبته واتجه إلى المطار منتظرا طائرته التي سوف تقله إلى ألمانيا بعدما أتم رحلته بنجاح زار فيها كلاً من مصر والعراق، واستطاع فتح أسواق للمنظمة في هذه البلدان وأصبحت في مرمى عصابات المافيا ،وهو من أهم رجالهم في تهريب شحنات الأسلحة والدخول بها عبر المنافذ التي درسها بعناية واستطاع أن يلم بمداخلها ومخارجها وعلم عن نقاط ضعفها وقوتها الكثير مما يتح له التعامل بسهولة في إنجاح العمليات التي ينوي التنظيم القيام بها في الأيام القليلة القادمة،ارتفعت الطائرة في السماء ونظر صخر إلى المدينة وبيوتها وقد بدت وكأنها مجموعة من العلب الصغيرة المتراصة بجوار بعضها البعض يتخللها بعض الخطوط الزرقاء من الأنهار وما يشتق منها، ويسود الاخضرار بعض مناطقها، بينما الصحراء تطغى على جزء كبير منها بلونها الأصفر،وسرعان ما ترتفع الطائرة وتدخل بين السحاب لتختفي العراق وكل مظاهر المدينة، ولا يرى سوى تراكم الثلوج فوق بعضها البعض وسحاب يحيط بالطائرة من كل اتجاه في مشهد خلاب يطير بالعقول أسرع مما تطير الطائرة ويحلق بالإنسان بعيدا عن ذاته ويأخذه إلى حيث المشاعر الدافئة والركن الهادئ من النفس،ويصرخ الوجدان صرخات عتاب بعدما طغت المادية على العقل والقلب ولم تترك له مجالا بل كادت أن تقتله ليقبع مكانه صخرة سوداء بلا إحساس أو مشاعر،

بينما كنت غارقا في الخيال مبتعدا عن ذاتي وعمن حولي، سمعت صرخة خفيفة بجانبي أيقظتني من أحلامي وتأملاتي، فنظرت سريعا بجانبي لأجد فتاة متوسطة العمر وقد سقط من يدها كوب العصير وسال ما به على فستانها ، وبحركة لاشعورية منها لإزاحة العصير عن ملابسها فإذا بيدها تضرب كوب

العصير ليطير في الهواء ويسقط ما تبقى به على ملابسي فيصيبني البلل، ويبدو أنها استشعرت الحرج فأطلقت تلك الصرخة التي أفقت على إثرها،نظرت إليها متجهما في ردة فعل طبيعي بعدما أحسست البلل، غير أنى عندما واجهت جمال وجهها وبراءة نظرتها وحالة الارتباك التي تعانيها أشفقت عليها، وحاولت أن اخفف عنها وقع ما حدث، ورأيت نفسي ابتسم لها وأطالبها أن تنسي الأمر وكأن شيئا لم يكن،. وطلبت من المضيفة بعض المناديل الورقية والمياه، وحاولت إزالة أثر العصير على القميص بقدر ما استطعت، وأعطيتها بعض المناديل وطلبت منها إزالة ما علق بملابسها من العصير، وسرعان ما هدأت الأمور وعادت إلى مجاريها، غير أنى وجدت في نفسي رغبة في الحديث مع تلك الفتاة التي جذبني إليها رقتها وأدبها الجم وأسلوبها الرشيق وهى تحاول الاعتذار عما بدر منها، تبادلنا بعض الحديث وأخبرتني أنها فتاة عراقية تدرس الدكتوراه في ألمانيا، وقد كانت في زيارة لعائلتها في بغداد وها هى تعاود رحلتها مرة أخرى لاستكمال دراستها المقدر لها أن تستمر أربع سنوات قضت منها عامين وباقي لها مثلهما حتى تنجز ما جاءت لأجله،.اجتاحني شعور بالراحة والطمأنينة وأنا أتحدث معها ولأول مرة اشعر بهذا الشعور تجاه فتاه، فبعد هذا العمر الذي قضيته بعيدا عن الجنس الآخر،، فجأة وجدتني مشدودا إلى تلك الفتاة بعد أن تحدثنا طويلا وشعر كل منا بالراحة تجاه الآخر حتى انه عند اقتراب الرحلة من نهايتا صرنا وكأننا أصدقاء من عهد طويل وجمعنا لقاء بعد فراق ، فباتت ضحكاتنا تجلل في أركان الطائرة، وانطلقت النكات على لساننا وسرد كل منا للآخر بعض ذكريات طفولته وشبابه .

تحدث طويلا مع ليلى وهذا هو اسمها الذي عرفته بعد ذلك،غير أنى لم أبوح لها بكل ما لدي، فقد أدركت أن في حياتي أشياء اخجل من ذكرها، وأشياء أخرى لا استطيع قولها،. وكأن هذا يحدث لي للمرة الأولى ولم ألحظه سابقا ولم يدر بخلدي إلا الآن وأنا أحاول أن أكون كتابا مفتوح أمام ليلى تقرأ منه ما تشاء، غير أنى وجدت انه لابد لي من أن ألقي ببعض أوراق هذا الكتاب جانبا بعيدا عن أعين القراء،وخاصة ليلى.

تبادلنا أرقام هواتفنا واتفقنا على الاتصال فيما بيننا لاطمئنان كلا منا على الآخر، وعلمت منها عنوان السكن الذي تنزل به وواعدتها بضرورة لقاءنا سويا وطالبتها بضرورة الاتصال إذا شعرت بالحاجة أو إذا صادفتها المصاعب.

هبطت بنا الطائرة أرض المطار. وأصررت على توصيلها إلى حيث تسكن، ثم توجهت بعد ذلك إلى مكان إقامتي، عدت إلى ألمانيا بوجه غير الذي ذهبت به، بل عدت إنسان غير الذي كان، ووجدت نفسي أفكر كثيرا في ليلى، بل أن التفكير بها أخذ كل مأخذ وبدأت اشعر بحاجتي إليها، فقد أيقَظت داخلي مشاعر وأحاسيس كنت ظننت أنها قد ماتت ودفنت منذ وقت طويل، ولكن ها هى تنتفض مطالبة بحقها في الحياة،وتلومني على هذا العمر الذي ذهب هباءا بعيدا عن هذا الجمال والخيال ودقات القلوب وهياج الوجدان،أدركت منذ هذا اليوم أن علاقتي مع ليلى ليست علاقة وقتية وتنتهي، بل هى علاقة سوف تستمر وتثمر مع الأيام، غير انه أصابتني رعشة عندما خطر على فكري طبيعة عملي وزعماء المافيا، وماذا سوف يكون رأيهم وردة فعلهم على علاقة كهذه،من البديهي أن يَعدُوها معوقة للعمل ويحاولوا القضاء عليها في مهدها

بكل ما أوتوا من حيل ، وأعلم أن جعبتهم ممتلئة بهذه الحيل التي لا تنضب ولا تنتهي، وربما تذهب ليلى ضحية لهم ولألاعيبهم القذرة التي سبق وسمعت الكثير عنها،

حاولت أن ابتعد بليلى عن طريقهم واخفي تلك العلاقة عن أعينهم، وحرصت كل الحرص في اللقاءات التي جمعتني بها أن نكون بمنأى عن نظراتهم،. وعلى الرغم من ذلك كنت أتلفت حولي من الخوف الذي أخذ يسيطر علي حياتي بعدما كان لا يجد له طريق بها، يبدو أن الحب يصيب المرء بالجبن ويجعل الخوف مسيطر على أفعاله في محاولة منه لحماية من يحب خاصة أذا استشعر الخطر ،فهذا حبي لحنان شقيقتي أصابني بالخوف سابقا وجعلني أكره هذا العمل الذي ساقني إلى وضع يدي في أيدي القتلة المأجورين،.وها هى ليلى بعدما استشعرت حبها يملئ كياني، اشعر مرة أخرى بالضعف والخوف من أن ينكشف أمرنا ونصبح لقمة صائغة لزعماء التنظيم لا أدري كيف يكون رد فعلهم تجاهها،شغلت بحياتي مع ليلى خاصة بعد أن زاد قربنا بعضا البعض وأصبحت جزءا هاما في حياتي لا استطيع التخلي عنه، ولا أبعادها يوما عن خيالي،

مرت الأيام سريعة وتجاوز عمر علاقتنا ستة أشهر كانت كفيلة بأن يشعر كل منا بعمق حاجته للأخر ومدى ارتباطه به بعدما وحدت الأيام بيننا وأصبح طريقنا واحدا وهدفنا مشترك، ولم يعد هناك مهربا من اعتراف كل منا للآخر بالحب الذي يتملكه ويملئ عليه حياته،حاولت خلال هذه الفترة أن أوازن حياتي، فكنت أباشر الأعمال الموكولة لي، واحضر مع أفراد التنظيم اجتماعاتهم

وأتابع تنفيذ تعليماتهم، وكانت تلك الفترة مرحلة تخطيط لبعض العمليات الهامة المزمع القيام بها والتي تعد لها العصابة عدتها وتجهز لها حتى يحين موعد التنفيذ الذي بات وشيك،.ومن ناحية أخرى كنت أواعد ليلى وألتقي بها واحرص كل الحرص على الابتعاد بها عن طريق هذه العصابة حتى استطيع أن أجد طريقة لاحقا ابتعد بها نهائيا عن هذا العالم الموبوء.

استمر الحال هكذا حتى تم الانتهاء من وضع الخطط وباتت العمليات جميعها محل التنفيذ، وكنت من القادة اللذين أوكل إليهم تنفيذ أكثر من عملية في عدة بلدان عربية منها مصر والعراق وبعض البلدان القريبة، وقدر لهذه العمليات حوالي شهرين اقضيهما بعيدا عن ألمانيا متنقلا بين هذه البلدان حتى أتمم إدخال الأسلحة عبر منافذها .

"١٦"

دخلت حنان عش الدبابير منذ أن نشرت تحقيقها الصحفي الذي ربطت فيه بين نشاط شركات الأموال المشبوهة وتمويل الجماعات الإرهابية واتخاذ هذه الشركات لها ستارا يبعدها عن ملاحقة أجهزة الدولة ويضيف إليها أعضاء جدد ويزيد عدد المدافعين عنها من البسطاء الذين خدعوا في هذه الشركات وأودعوا أموالهم بها ودارت في عجلتهم وأصبحت جزء من كيان ضخم تستغله تنظيمات إرهابية تعمل على تقويض أركان الدولة والعبث بمقدرات الشعوب.

لم تكن حنان تدري أن قدميها سوف تنزلق إلى هذا الطريق وهى تشرع في كتابة التحقيق غير أن المعلومات التي ساقتها إليها الصدفة جعلتها تحاول أن تقتفي أثرها وبالتالي دخلت هذا المعترك الذي لم تسعى إليه ولم تحاول طرقه قبل ذلك، غير أنها وجدت نفسها منساقة إلى تكملة المشوار ومحاولة كشف الحقائق خاصة بعدما انبرت بعض الأقلام التي تهاجمها وتحاول أن تفند مزاعمها حول هذا الموضوع، وهو ما أزعجها وحاولت أن تدافع عن وجهة نظرها والمعلومات التي تحصلت عليها وما تحمله من اتهامات صريحة لهذه الشركات بالتواطؤ مع الإرهاب الديني والتنظيمات الإرهابية التي باتت تنتشر في جميع الدول العربية كخلايا سرطانية تصيب الأماكن الحيوية وتسعى للانتشار في باقي الجسد في محاولة للسيطرة عليه وإخضاعه لتوجهاتها وأهدافها،.

وجدت حنان نفسها تسير بلا هوادة في طريق المواجهة الصريحة مع هذه الجماعات وتدخل معهم في نفق مظلم بعدما وجهوا لها تهديدات صريحة بالامتناع عن مهاجمتهم ونشر تكذيب حول ما تم نشره سابقا والاعتراف بأنها

أخطأت تقدير الأمور ونشرت معلومات مغلوطة،. وهو ما رفضته تماما وأثار حنقها وأصرت على التحدي واستكمال المشوار الذي بدأته خاصة وأنها اعتادت على المواجهات الساخنة في مقالات سابقة ولم تثنيها أي تهديدات أو ضغوط ،. والكل يعرف عنها ذلك وربما كان هذا من أسباب نجاحها ووصولها إلى أعلى المراتب في مهنة البحث عن المتاعب حتى أن زملائها لقبوها بالشخصية الفولاذية التي لا تقهر، وعلى هذا لم تغير حنان من طبيعتها وقررت عدم التراجع عن موقفها مهما كان الثمن والتهديدات التي تتلقاها ، وربما هذا هو ما أثار شقيقها طارق عندما علم بتهديد هذه الجماعات لشقيقته حنان،. وحاول أن يثنيها عن موقفها قي زيارته السابقة لمصر،. فهو يدرك ما تتمتع به شقيقته من شخصية عنيدة لا تقبل التراجع أو الاستسلام،. وفي نفس الوقت يعلم الكثير عن هؤلاء الإرهابيين وما يستطيعون فعله، لذلك حاول بكل ما لديه من قوة إثنائها عما في رأسها والابتعاد بها عن طريق المواجهة مع هؤلاء الدمويين،. غير أنها استخفت بحديثه ولم تستمع إلى نصحه وركبها العناد واستمرت في طريقها لمحاولة كشف هذه الجماعات للرأي العام وتعرية أفكارهم وأهدافهم المعلنة وغير المعلنة وكشف الطرق التي تتبعها للوصول إلى غايتها دون أن يقف في طريقهم حائل،.

قررت حنان طلب الدعم من رئيس تحرير الصحيفة في معركتها التي وجدت نفسها تخوضها بمفردها بعد أن تحولت من مجرد تحقيق صحفي عن نشاط شركات الأموال إلى معركة ضارية بينها وبين هذه الجماعات وبؤرها الفاسدة،. وقد استتبع ذلك كتابة بعض المقالات المنفردة التي تقوم بها بين الحين والآخر محاولة الرد على بعض المقالات التي تهاجمها وتدعي كذبها وهو ما حفزها أكثر

لمحاولة الرد بموضوعية وطرح المزيد من المعلومات التي كانت تستقيها من عدة مصادر، خاصة بعد أن استشعر الكثير من المواطنين ضراوة المعركة فأصبحوا عونا لها وفتحوا عن خزائن معلوماتهم يمدوها بما لديهم من معلومات حتى أصبحت جعبتها تكتنز بالكثير من المعلومات الخطيرة حول هذه الجماعات،. وهو ما جعلها تفرد الكثير من المقالات لمهاجمة هذه الجماعات مدعمة بالبيانات والأرقام والدلائل التي تعد من الخطورة بمكان لدرجة أرقت أفرادها وزعماءها وجعلت حنان تحتل الصدارة في العداء لهذه المجموعات وبات السكوت عليها وعلى كتاباتها خطر داهم لا تحتمله هذه الجماعات.

استشعرت حنان هذا الخطر من جدية التهديدات التي باتت تتلقاها وخشيت من تنفيذها على بيتها وأسرتها،.وعلى الرغم من ذلك لم تثنيها تهديداتهم عن استكمال ما بدأته من نشر مقالاتها المعادية، غير أنها رأت ضرورة طلب العون والدعم من رئيس التحرير الأستاذ حسين لمؤازرتها في مشوارها هذا،. لتبدو الأمور وكأنها سياسة صحيفة وليست عداوة شخصية، غير أن رئيس التحرير بادر حنان بقوله:

-ألا تتذكرين يا حنان يوم طلبكِ عمل تحقيق صحفي عن شركات الأموال والفساد الذي يتخللها، يومها نصحتك بالابتعاد عن هذا الموضوع، ولم أكن متحمسا إطلاقا للدخول فيه،. بل وطالبتك صراحة بتركه والكتابة في موضوع غيره ،. غير انك أصررتِ على موقفك ولم تعيري رأيي أهمية، ووافقتك يومها مرغما لمعرفتي بطبيعة شخصيتك العنيدة وثقتي أنك سوف تنفذين ما في رأسك وتضربين عرض الحائط بأي رأى يخالف رأيك.

-ما كنت أخشاه قد حدث وزلت قدمك إلى طريق وعر، أدرك تماما انك لم تقصدي هذا أو تسعي إليه، غير أني قد ألمحت لكِ ذلك وحاولت تحذيرك مغبة الانزلاق إلى هذا الطريق، غير انك كابرتِ وأخذتي على عاتقك الاستمرار في هذا الطريق والوصول إلى نهايته.

-نعم يا أستاذ حسين، لقد أظهرت لي يومها عدم حماستك لكتابة التحقيق، ولكنك لم تصارحني بمخاوفك هذه التي تحدثني عنها.

-نعم لم أحادثك صراحة ولكنى ألمحت لك واعتمدت على فطنتك وذكاءك.

.نعم ولكن هذه الأمور لا تحتمل التلميح وكان الأمر يفرض عليك مصارحتي بمخاوفك كاملة،حتى أتمكن من تقييم الأمور التقييم الصحيح.

-لم يكن بوسعي مصارحتك بشيء لست متأكد منه تماما، ولكن بحدسي الصحفي أدركت انكِ لن تقفي عند حدود شركات الأموال الإسلامية وقضيتها على الساحة، وأدركت انه بطبعك الفضولي هذا سوف تتبحرين وتتعدين هذه الحدود وتصلين إلى ما وصلتي إليه الآن.

-ولكن إحقاقا للحق لم أكن أتخيل تصاعد الأمور إلى هذا الحد الذي وصلت إليه والحرب الشرسة بينك وبين هذه الجماعات .

-ولكنك لم تُنبهني في الوقت المناسب لاتخاذ موقف ومحاولة التوقف قبل الخوض في هذا الخضم الخطر.

-لقد أدركت بعد أن تجمع لديك هذا الكم من المعلومات التي دفع بها إليك الكثير من جمهورك أنك لن تتوقفي وسوف يدفعك حسك الصحفي إلى الاستمرار حتى النهاية.

-أستاذ حسين، أخشى أن أقول لك أن زيادة توزيع الصحيفة والأرباح الكثيرة التي دخلت خزينتك ربما يكون السبب الذي دفعك للتخلي عني وأنت تراني أهوى في هذه الهاوية دون أن تحاول التدخل وفرملة هذا الوضع الذي كاد يصل إلى ما لايحمد عقباه.

-اسمعي، حنان، ربما يكون معك الحق في قولك هذا، ولكن تأكدي أن هذا ليس هو السبب الوحيد، فقد اجتمعت عده أسباب جعلت الأمور تسير سيرتها دون أن يحاول احد إيقافها، ربما كان نجاح الصحيفة وزيادة معدل توزيعها بعد هذه المقالات أحد الأسباب ولكن لا يمكنك نكران نصيحتي لكِ وعدم حماسي لهذا الأمر من بدايته، فقد اخترتِ الطريق وعليكِ تحمل النتيجة.

-نعم، ولكن ماذا بعد أن تعقدت الأمور وأصبحت أتلقى تهديدات صريحة تخصني وتخص عائلتي،. ما موقف الصحيفة من هذا، أريد أن يستشعر هؤلاء الأوغاد أن هذه سياسة عامة للصحيفة وليست عداوة شخصية بيني وبينهم حتى يتفرق الدم على القبائل ولا أصبح صيدا سهلا لهم.

-تأكدي حنان أننا جميعا نقف بجانبك، ولكن ماذا يمكننا فعله في هذا الأمر.

-يمكنك أن تكتب عدة مقالات تؤازرني وتهاجم فيها هذه الفئة الضالة،. أو أن تشرك معي بعض الزملاء في كتابة بعض التحقيقات الصغيرة التي تتناول هذه القضية .

-اسمعيني جيدا حنان، أنا لن انزلق معك في هذا المنزلق، فقد كنت صريحا معك منذ البداية، فلا تحاولي الآن أن تورطيني معك، وأقولها لكِ صريحة، يكفي أنى أنشر مقالاتك وهذا في حد ذاته يعني موافقتي عليها، ولكن أكثر من ذلك لا تحمليني فوق طاقتي، وأرجوا أن لا تفهميني خطأ، فأنا معكِ قلباً وقالب، ولكن لن أدخل معك في هذا المعترك الخطر، فأنا أدرك الأبعاد جيدا، واخشي النتائج، وأقولها لك صراحة، إن استطعتِ التوقف الآن توقفي، وأنا أدرك جيدا انك لن تستمعي إلي هذه النصيحة وسوف تستمرين إلى النهاية، فقد تورطي مع هذه الجماعات ولا داعي أن تورطي غيرك معها.

-لم أكن ادري أستاذ حسين خوفك من هذه الجماعات إلى هذا الحد.

-المسألة ليست خوف بقدر ما هى إدراك للحقائق وخطورة هذه الجماعات على ارض الواقع.

-نعم ولكننا تعلمنا أن الصحافة سلطة رابعة و تفرض على كل صاحب ضمير حي أن لا يقف مكتوف الأيدي أمام أى فساد في المجتمع، وتلزمنا بتوضيح الأمور للعامة وكشف المستور حتى وان كان في ذلك ضرر يصيبنا، فنحن كالمحارب في الميدان، نحارب الفساد ولا نخشى ردة فعله، فسلاحنا القلم وليس لنا سواه في معاركنا التي نخوضها حتى وان تسلح عدونا بأعتى أنواع الأسلحة .

-إن ما تقولينه صحيح، ولكن لكل منا حساباته، فالأمور ليست مطلقة على أعنتها، بل يجب أن نغلب المصالح الشخصية أحيانا في بعض الأمور، ولا ننزلق إلى ما يجعلنا في مرمى النيران ويضعنا أمام خيارات لايمكننا مجابهتها ،

ولكن هذا منطق غريب لا يتماشي مع الصحافة الحرة وتوجهاتها وما تعلمناه في المدارس الصحفية.

-لك أن تعلمي يا حنان أننا نحارب معاركنا بمفردنا، فليس معنا قوة تحمينا، ولا رادع يقف في خندقنا، فلسنا رجال شرطة مزودين بما ما يحميهم من قوات وعتاد وعيون، ولسنا جهات سيادية تملك الأمر والنهي، بل نحن أفراد ضعفاء وأهداف سهلة المنال، ويجب علينا وضع ذلك في الحسبان في كل كتاباتنا وتحقيقاتنا على صفحات الجرائد، فسلاحنا الذي نملكه كما قلتِ هو القلم وليس لنا سواه سلاح، والقلم ميدانه صفحات الصحيفة وفقط، وبعيدا عنها فهو لا يحمي صاحبه ولا يخيف احد،. ونحن في كتاباتنا نحاول دائما أن نحافظ على هذا القلم أن ينكسر أو يبتعد عن ميدانه وهو صفحات الصحف التي يخط عليها أفكارنا،. فنحن لسنا سوى أقلام رصاص لا تتساوى مع من يملكون طلقات الرصاص وأكثر من ذلك،. ويجب عليكِ أن تضعي ذلك في الحسبان عندما تخوضين معركتك،وتأكدي انه لن يحميكِ أو يدعمك وقوف قلم أخر بجانبك، فكلاهما أقلام رصاص سهل كسرها.

-إن هذا المنطق الذي اسمعه منك غريب تماما على قناعتي الصحفية، ولم أخذ الصحافة يوما من هذا المنطق المغلوط، وأكاد أشم في حديثك حجة للتخلي عني والهروب من المسئولية التي يفرضها عليك واجبك الصحفي،

وتحـاول أن تضـع لهـذا الهـروب سـتارا يُجمـل موقفـك ويجعـل منـك بطلا وعالما ببـواطن الأمـور أمـام نفسـك والآخـرين،. وأنـت تـدرك تماما انـك لاتقـول الحـق وتبتعد بهذه السخافات عن الحقيقة.

-حنـان، بمـا إننـا وصلنـا إلى هـذا الحـد في المناقشـة فمـن الأفضـل أن ننهيهـا، فـلا اعتقد أن وجودك هنا لمناقشة الصحافة ودورها في المجتمع، ولا أنا في موقف يسمح لي بسماع محاضرات عن هذا الدور، فكل منا له قناعاته، ولنحتفظ بهـذه القناعـات لأنفسـنا ونناقش الأمـور بموضـوعية أكثـر ولا داعـي لهـذه السفسطة النظرية التي لاتفك معضلة ولا تعطي إجابة.

-نعـم معـك حـق، مـاذا عـن الطلـب الـذي طلبتـه منـك كـرئيس تحريـر لهـذه الصحيفة ومسئول عن العاملين بها.

-كمـا قلـت لـك، عـن نفسـي لـن أشـاركك الكتابـة في هـذا الموضـوع، ومعـك أصدقائك من الصحفيين إذا استطعتِ إقناع احد منهم فليس لدي مانع. --- ولكن اشك في ذلك فجميعهم يخشون على أنفسهم ويعملون بالمنطق الذي رفضتِ الاستماع إليه، ولكن حاولي ولن أقف ضد محاولاتك، بل سأدعمها واقف معك إلى النهاية، وفي هذا دليل على مؤازرتي لكِ والوقوف بجانبك.

نظرت إليه حنان نظرة هى نفسها لم تستطع تفسيرها، هل هى نظرة خيبة أمل؟، أم نظرة تعجب، أم نظرة استنكار،أم نظرة سقوط، بل كانت نظرة تحوى كل ذلك معا، غادرت حنان مكتب رئيس التحرير وأخذت حقيبتها وغادرت الصحيفة إلى بيتها، وفي طريقها إلى البيت ترجلت على كورنيش النيل

بعض الوقت ووقفت طويلا تنظر إلى مياه النيل الجارية تحمل عبق التاريخ وتؤكد استمرار هذا التدفق والحياة على ارض مصر بما تحمله من خير لأولادها البسطاء في كل مكان على هذه البقعة الطيبة.أخذت مياه النيل الصافية أفكارها بعيدا وهى تستعيد حديثها مع رئيس التحرير، وتحاول أن تجمع الأحداث التي مرت بها في الفترة السابقة،والتهديدات التي لاحقتها من هذه الجماعات الدموية، وحديثها مع شقيقها طارق قبل أن يسافر ويغادرها، وأدركت الآن الخوف الذي كان يعتريه وهو يحذرها من الاستمرار في هذا الطريق، فقد أيقنت انه كان على حق في حديثه معها وخوفه عليها، وأيقنت أيضا أنها باتت وحيدة تحارب معركتها بمفردها أمام جحافل الجهل والظلام، وليس معها سلاح ولا عتاد سوى قلمها كما قال رئيس التحرير محاولاً الدفاع عن نفسه في تخليه عنها،ولكن ماذا عساها أن تفعل الآن، إنها لم تعتاد الانسحاب من معاركها التي خاضتها على مدار عملها الصحفي الذي استمر سنين طويلة، وكم خاضت معارك صحفية ضارية ولم تتراجع أو تنسحب من الميدان، وكان لها الغلبة في كثير من هذه المعارك الطاحنة،ولكن هذه المرة الأمور اختلفت، فالمعارك السابقة كانت تدار بالأقلام والأفكار على صفحات الصحف، ولكن هذه المعركة يبدوا أنها تدار على ارض الواقع بأسلحة لم تعتادها ولم يدر بمخيلتها أن تتعرض لها، وهى غير مؤهلة لهذا النوع من المعارك الذي يخالف ما اعتادت عليه،ولكن ماذا تفعل الآن؟، فقد ألغت فكرة الانسحاب من المعركة تماما، ولكن يجب أن تكون هناك وسيلة ما لتخفيف هذا الاحتقان الدائر بينها وبين هذه الجماعات، وإذا كانت هذه معركتها بمفردها فلتحاول إيجاد مخرج من هذا المأزق الذي أوقعت نفسها فيه، فكرت

حنان كثيرا واهتدت أخيرا إلى وسيلة وجدت فيها حلا لمشكلتها حتى وان كان حل مؤقت يتح لها بعض الوقت لترتيب أفكارها ومعرفة الأرض التي تقف عليها حتى لا تؤخذ غدر، ولتكون على بينة بقوة أعداءها وما يمكنهم فعله معها و تهديداتهم لها التي باتت تُنغص عليها حياتها وتدخل الرهبة في قلبها خاصة بعدما طالت اعز ما لديها،زادت قناعتها بضرورة أخذ هدنة في كتاباتها والتخفيف من هجومها عليهم،بل ربما الخوض في قضية أخرى والكتابة فيها، فربما كان في ذلك حل وسط بين الانسحاب الكامل وهو الشيء الذي يأبى ضميرها الصحفي أن تفعله وتتخلى عن قضية بدأتها ولا بد أن تنهيها .. أو الاستمرار في الهجوم الحاد والنتائج المترتبة عليه والتي لا يعلمها إلا الله،، فربما يوحي لهم ذلك بتراجعها عن موقفها أو ترك معركتهم والالتفات إلى غيرهم في قضية أخرى.

" ١٧"

بـدأ العـد التنـازلي لتنفيـذ عمليـات التنظـيم على ارض الواقـع، وشـهدت هـذه الفترة المزيـد مـن الاجتماعـات والترتيبـات التي تطلبتهـا المرحلـة القادمـة، وحـدث الكثير من الشد والجذب بين عدد من القادة الموكل إليهم تنفيذ هذه العمليات لما كانوا يبدونه من بعض الملاحظات التي كان يستجاب لبعضها ويتم التغافل عن البعض الآخر ربما لعدم قناعة الزعماء بالاسباب التي يسوقونها.

حانـت اللحظـة الفاصـلة التي اكتملـت فيهـا الأمـور وبـات كل شيء معـد تمامـا للقيـام بهـذه العمليـات والانتهاء منها في الأوقـات التي تـم تحديـدها مسـبقا بعـد التنسـيق مـع العمـلاء في هـذه المناطق،أخـذت هـذه الاجتماعـات جـزءا كبـيرا مـن الوقـت ابتعـدت فيـه بعـض الشيء عـن ليلي واللقـاء معهـا، وربمـا سـبب لهـا هـذا نوعـا مـن الإزعـاج واعتقـدت أنـى أحـاول التهـرب منهـا ومـن لقاءاتهـا، و بـدوري لـم استطع إخبارها بالسبب الحقيقي الذي حال بيني وبينها، فلم يكن من المعقول مصارحتها أننا نعد العدة للقيام بتهريب شحنات سلاح، ولذلك كنت اعمد إلى أن أسُـوق بعـض الحجـج في كل مـرة غير أنـه في كثير مـن الأحيـان لـم أجـد مـن الحجج ما يُمكنني من إقناعها بها ،،خاصة أن الاجتماعات تكررت كثيرا ولذلك باتـت جميـع الحجـج واهيـة وباهتـة،،. وقـد أثـر ذلـك كثيرا على ليلي و علاقتنـا سـويا،

على قـدر انشـغالي بهـذه الأمـور الجـادة التي لا تحتمـل أي أعـذار أو تخلـف عـن مواعيـد اللقـاءات والاجتماعـات، بقـدر مـا حاولـت كثيرا أن أحـافظ على بعـض اللقـاءات التي تجمعني معهـا حتى لا تظـن بي الظنـون وتعمـد إلى مجافـاتي أو

تشطح محاولة إنهاء علاقتنا بعد أن أصبحت لا استطيع الاستغناء عنها ولا العيش بدونها، فقد شعرت معها وللمرة الأولى في حياتي بمدى حاجتي إلى الحب واشتعال القلب بنار الأشواق، وهى مشاعر كنت غافلا عنها وربما لا أعي ماذا تعني حتى أدركت ليلى ووجدتني واقعا في غرامها وكأنها نسمة هواء بارد جاءت تلطف لهيب حر صيف أخذ يضرب وجهي وجسدي بقوة،ويبدو أن غيابي عن بعض الاجتماعات قد أثار ريبة زعماء المافيا وتوجسهم فأخذوا يبحثون عن السبب، واعتقد أنهم توصلوا إلى بعض الخيوط التي قادتهم إلى علاقتي مع ليلى وارتباطي بها،لم يفاتحني أحد في هذا الموضوع ولم يعلق أى منهم أو يطالبني بشيء تجاه هذه العلاقة، غير أنى استشعرت ذلك من بعض النظرات التي كان يرشقني بها البعض وبعض التلميحات التي يمكنني فهم مغزاها، غير أنهم في نهاية الأمر لم يصرحوا بشيء، وفي المقابل لم أقدم أعذارا أو أبدي أسف، وتغافل كل منا عن مكنون الآخر، وكأننا نغمي أعيننا و نسير مبتعدين حتى لا يصدم بعضنا البعض،زاد توجسي وخوفي على ليلى كثيرا بعد هذه التلميحات التي استطعت قراءتها جيدا،وخاصة أنى أعلم الكثير عن قصص مماثلة لأعضاء في التنظيم وكيف كانت النتائج المأساوية التي حدثت معهم أو مع من يرتبطون بهم خاصة إذا استشعرت المافيا أي أثر سلبي على أعمالها جراء تلك العلاقات ،حاولت مرارا وتكرارا إبعاد ليلى عن هذا الجو الموبوء بطريق غير مباشر، وكنت احذرها كثيرا وأطالبها بالابتعاد عن كل شيء ترتابه ولا تعطي الأمان لغريب في تعاملاتها اليومية،وكانت ليلى تنظر نحوي نظرة بلهاء وهى لا تكاد تفقه شيئا، فهي لا تدرك عن أى شيء أحدثها ومن أى غريب احذرها، وأنا نفسي لم أكن اعلم شيء عن الأخطار التي من الممكن أن تصيبها ، ولم يكن

بمقدوري التصريح لها بشيء مما يعتمل في صدري ويجعل خوفي عليها متغلغلا في نفسي وقلبي،أتممنا استعداداتنا وأخبرت ليلى بغيابي عنها بعض الأيام لانجاز عمل هام يستدعي السفر خارج ألمانيا، واتفقنا على التحدث سويا عبر الهاتف للاطمئنان عليها حتى تنتهي المهمة وبعد عودتي نجلس سويا نناقش مستقبلنا ونحاول وضع النقاط فوق الحروف ونخط العناوين العريضة لحياتنا القادمة،

أقلتني الطائرة إلى ليبيا حيث العملية الأولى المكلف بها، وكنت قد نزلت في طرابلس قبل ذلك ولدي فكرة كافية بزعماء العشائر هناك، التقيت برجالي الذين كانوا بانتظاري وقد أعدو العدة وأتموا ما اتفقنا عليه من تجهيزات وشحن الأسلحة المطلوب تهريبها عبر الحدود وتسليمها لعدد من زعماء تلك العشائر التي تباهي بعضها البعض بكم الأسلحة والذخائر التي بحوزتها حتى أنها تتفوق في تسليحها في بعض الأحيان على بعض فصائل الجيش هناك،مكثت في ليبيا عدة أيام استطعت خلالها أن انتهي من العمليات المكلف بها، وأنجزتها بنجاح تام دون أى خسائر مادية أو بشرية ، وهذا راجع للتخطيط الجيد الذي تم القيام به،وتغلغل رجالنا وشراء بعض الذمم لبعض المسئولين خاصة على الحدود ممن لهم اليد العليا في تحريك بعض الأمور،أسرعت باستكمال باقي المهام والانتقال إلى الحدود المصرية لمحاولة نقل شحنة أسلحة كبيرة طُلبت من التنظيم وتم ترشيحي للقيام بهذه المهمة لخبرتي الكبيرة بنقاط الحدود التي تعد منافذ لإدخال هذه الشحنة التي تعد من اكبر الشحنات التي تزمع المنظمة تهريبها منذ عدة سنوات،مع الاقتراب من الحدود المصرية أخذ قلبي يدق بشدة، فعلى الرغم من دراستي لطبوغرافية الأرض، والمعلومات الغزيرة التي تجمعت لدي عند زيارتي السابقة لصديقي أيمن، وخبرة خدمتي في هذه

المنطقة التي أتاحت لي معرفة الكثير عن خطط التهريب وطرق مقاومتها، مما أتاح لي الفرصة لامتلاك كم من المعلومات يجعلني أقف على ارض صلبة، غير أن ما كان يشغل بالي ويجعل دقات قلبي تتسارع شيء أخر غير الخوف من فشل العملية،فقد تذكرت مع الاقتراب من نقاط الحدود الأيام التي قضيتها في هذه الأماكن أحارب عصابات التهريب واقف لهم بالمرصاد، وكيف استطعت خلال هذه الفترة القبض على العديد من رجال هذه العصابات وإحباط الكثير من عملياتهم حتى أن الجميع كان يخشى مجرد ذكر اسمي ويحسب له ألف حساب، و كم من مرة حاولت هذه الجماعات اغتيالي والقصاص مني ، وكادت مرة أو اثنتين النجاح في هدفها لولا وجود العديد من الرجال حولي استطاعوا إحباط مخططاتهم في اللحظات الأخيرة،انتابني شعور غريب، كيف تبدلت الحياة بصورة كاملة في بضع سنين وانعكس دوري من شرطي إلى لص، بعد أن كنت بطلا أطارد هؤلاء الخارجين عن القانون ،أصبحت واحدا منهم بل زعيما من أهم زعمائهم، وها أنا أقوم بتنفيذ مهمة خسيسة ضد بلدي،الوطن الذي تربيت على أرضه وشربت ماءه وأكلت من خيره، هذه الأرض التي شهدت مراحل طفولتي بكل ما تحمله من براءة، وما تلاها من مراحل حياتي المختلفة من الصبا والشباب حتى التحقت بالجيش، وأصدقائي الذين عشت معهم فترة طويلة، وعائلتي وأشقائي ووالدي ووالدتي رحمهما الله،ذكريات طويلة طافت في خاطري بينما أتقدم واقترب للوصول إلى المنافذ والنقاط التي تواعدت مع رجالي بالالتقاء عندها لبدء تنفيذ العملية،.

كان اشد ما يحزنني علمي بوجهة هذه الأسلحة ، هذا الكم الهائل من الذخائر والمفرقعات،ليتها كانت ذاهبة إلى بعض القبائل أو المجرمين ممن اعتادوا

الإجرام وأصبحت الجريمة تسري في دمائهم.. المصيبة الكبرى أنها ذاهبة إلى من هم اشد إجراما وقسوة وخطرا من كل هذه الفئات، فقد عقدت اتفاق مع زعمائهم من المتشددين والمتطرفين، اللذين لا يجدون في القتل إلا وسيلة للوصول إلى مآربهم، و يقتلون بدم بارد ولا يهمهم من تكون الضحية رجلا أو امرأة أو طفل.. فالجميع عندهم سواسية ما يهمهم هو الدفاع عن معتقداتهم الخاطئة التي يجدونها طريقهم إلى الجنة ، ويُكفرون كل من عاداهم ولم يقف في خندقهم، وفي حدود معلوماتي أنهم يعدون العدة لضربات متتالية موجعة للنظام في مصر، وان ضرباتهم تلك سوف تطول الصغير والكبير، فعملياتهم الإرهابية تهدف إلى زعزعة الاستقرار وضرب الاقتصاد في مقتل حتى يتم إضعاف الدولة ومحاولة الوثوب على عنقها ولَيِه حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططهم الكبير الذي نادوا به منذ زمنا ولم يخفوه وهو إقامة الخلافة الإسلامية على طريقتهم وبأفكارهم المريضة وتحويل الدول العربية إلى ولايات تتبع هذه الخلافة، وهم في سبيل هدفهم هذا تعاونوا مع مختلف الجماعات المتطرفة على مستوى العالم وتصافحت أيديهم للوصول إلى هدفهم بأي وسيلة، ووجدوا في سبيل ذلك الكثير من الدول التي تدعمهم لمصلحة سياسية، أو أن هذه الدول اعتلاها قاده يحملون نفس الفكر المتطرف .

وفي خضم هذه الأفكار التي تداعت على رأسي خطر على بالي شقيقتي حنان، أليست هى من تقف في وجه هذا الطاغوت؟، ألم يرسلوا إليها تهديداتهم القذرة، ويحاولوا أن يخرسوا لسانها ويكسروا قلمها ويثنوها عن مهاجمتهم ويرهبوها لإبعادها عن طريقهم، في أى خندق تقف يا طارق، لقد اخترت

الوقوف في الخندق المعادي لبلدك وأهلك وأحباءك وأصدقاءك، و ما المقابل الذي تبتغيه، وهل حققت بذلك آمالك وطموحاتك ووصلت إلى مآربك،

أخَذت الأفكار تتأرجح في رأسي كالبندول الذي يندفع من أقصى اليمين الى أقصى اليسار، وسرعان ما يعاود حركته العكسية،لايكاد يثبت في مكانه أو يستقر به الحال، يبدو أني قد خسرت كل شيء، وهاأنا اخسر نفسي بالمقابل،ولكن ماذا عساى افعل الآن، أنى زعيم من زعماء تلك العصابة، وقد غصت في أعماقها، وان أردت التراجع فلا سبيل أمامي الآن لهذا التراجع، فأنا لن استطيع تركهم، وهم في المقابل لن يسمحوا بهذا الشيء أن يحدث،يا الله،ما هذه الأفكار السوداوية التي تجتاحني، ولماذا هذه المرة أجدني في هذا المستنقع من الأفكار المتزاحمة، وهذه النوبة من صحيان الضمير، هل لأن هذه العملية على ارض وطني مصر التي تربيت على أرضها، والتي أدركت الآن مدى حبي لهذا الوطن ومدى تغلغله في نفسي، أم أن الخوف كله من الجماعات الإرهابية التي باتت تهدد أبناء هذا الوطن، وتجمع السلاح والعتاد للقيام بعملياتها القذرة، وأقوم بمساعدتها والوقوف بجانبها ومد يد العون لها،

أقترب صخر كثيرا من الحدود المصرية وبدأ في تجميع رجاله والأسلحة التي بحوزتهم استعدادا للدخول بها عبر الحدود إلى الأراضي المصرية، وأراد أن ينفض عن نفسه هذه الأفكار التي تملكته منذ اقترابه من أراضي بلده حتى يمكنه التفكير جيدا ومحاولة التعامل مع ما سوف يستجد أمامهم، وكى يتمكن من اجتياز الحدود وفق الخطة المرسومة دون التعرض لأخطار من أى نوعا ما،.وقد كان له ما أراد وتمكن مع رجاله من تسليم الأسلحة التي بحوزتهم إلى

زعماء هذه الجماعات واطمئنوا على سلامة وإتمام مهمتهم كاملة، وتم الاتفاق في توريد كميات أخرى حتى يكتمل لهم ما أرادوا من الحصول على أسلحة تمكنهم من القيام بمخططهم المزمع القيام بقه خلال الفترة القادمة،.

تم إنهاء الاتفاق ووضع صخر يده في أيديهم للمرة الثانية بعد أن صار احد أنصارهم شاء ذلك أم أبى، بل أحد أهم موردي السلاح لهم ومعين لهم على فعل ما يريدون القيام به من عمليات إرهابية وقتل ونشر الفوضى في ربوع البلاد،الوقت لم يسعف صخر الذهاب إلى قلب القاهرة، فقد كانت الترتيبات التي تم وضعها لتنفيذ العمليات تستوجب عليه الانتقال فورا والعودة إلى ليبيا، والانطلاق من هناك إلى مكان العملية التالية المكلف بالقيام بها، وبقدر شغفه لزيارة أشقائه في مصر وخاصة حنان للاطمئنان على أحوالها غير انه لم يستطع ذلك وهو ما ترك أثره عليه وأصابه ببعض الحنق والعصبية التي بدت واضحة عليه في معاملاته مع بعض رجاله،خاصة إذا أضفنا إلى ذلك هذا الشعور الذي تملكه على الحدود المصرية،. غير انه كرجل محترف استطاع التغلب على انفعالاته والمضي قدما في انجاز باقي المهام المكلف بها،وبينما هو في فترة استرخاء بعد انجاز عدة عمليات رغب في الاطمئنان على أشقائه وصديقته ليلي وإزالة الوحشة التي يشعر بها وهذه القبضة التي تملك صدره وتجعله ضائقا بالحياة وبالعالم من حوله،.

رغب في البداية الاطمئنان على ليلي، فقد شعر بمدى حاجته إليها، وكانت الفترة الماضية كفيلة بتيقنه بمدى حبه لها وعدم قدرته عن الاستغناء عنها، وكان له ما أراد وحاول الاتصال بها، غير أنها لم تجيب، حاول أكثر من مرة،

وفي كل مرة لم يكن يأتيه سوى صوت طنين جرس الهاتف ولم يجيب احد على اتصالاته،.توقع طارق انه ربما تكون خارج المنزل أو في إحدى الزيارات ولم يعطي للأمر بالاً، وقرر معاودة الاتصال في وقت لاحق علها تكون قد أنجزت مشاويرها وعادت إلى المنزل،ولما لم يجد من ليلى رد، حاول الاتصال بشقيقته صفاء في العراق للاطمئنان عليهم، فقد شعر بالشوق الشديد لابنها هيثم، هذا الطفل الجميل الذي تعلق به قلبه وصار في معزة الابن بالنسبة له، يهفو إليه كثيرا ولا يمل من الحديث معه، وكم من مرة ومرات تحدث معه في الهاتف وكان يتمني أن لا ينتهي من المكالمة،فقد تملكه شعور بوجود هيثم في حياته بانتمائه إلى عائلة وأسرة يخاف عليهم ويحبهم،ويهفو قلبه للشوق إلى سماع صوتهم ورؤيتهم،حاول طارق الاتصال بشقيقته غير أن أحدا لم يجيب، وهو ما زاد شعوره بالضيق فكم هو بحاجة إلى من يشعر معهم بالدفيء الأسري ويخرجوا به من هذا الشعور الغامض الذي يجتاحه وصار يؤرق نومه ويصيبه بانفلات الأعصاب و يشعره بالانزعاج،

حاول طارق مرة أخرى وأعاد الاتصال مرة ثانية بشقيقته علها تجيب هذه المرة، وقد كان له ما أراد، غير أن زوج شقيقته كان هو المجيب على اتصاله، وقبل أن يبادره بالسؤال عن أحواله وأحوال شقيقته ، نما إلى سمعه بكاء ونحيب وحالة من الهرج والمرج تسود البيت،.

أصاب طارق الانزعاج الشديد وصاح في زوج أخته يطالبه بتفسير ما يحدث ويسأله عن شقيقته صفاء،.وجاءته الإجابة التي لم يكن يتوقعها يوما من الأيام ولم تخطر له على بال،.فقد أخبره زوج أخته أن هيثم قد قتل مع عدد كبير من

زملاءه في المدرسة بعبوة ناسفة تم زرعها أصابت الحافلة التي تقلهم وهم عائدون بالأمس من مدرستهم، وانفجرت الحافلة وقتل بها من قتل وجرح من جرح، وكان هيثم ممن لقوا مصرعهم في هذا العمل الجبان ، و أمه صفاء ترقد في حالة ذهول وحولها الجيران يهدئون من روعها وهي غائبة عنهم وعن العالم من حولها وتهذي بكلمات غير مفهومة،.. ووووو

لم يسمع طارق شيء آخر مما قاله زوج أخته، وانهمر الدمع غزيرا من عينيه، وضاق صدره بكل شيء حوله، وترك المكان وسار وحيدا حتى انزوى في احد الأركان الهادئة وأجهش في بكاء مرير،

لم يدري طارق كم من الوقت مر عليه وهو في هذا الحال، غير انه أدرك تماما أن الحياة تغيرت معه وأن الأتي لن يكون كما سبق على الإطلاق،بقدر القسوة التي عرف بها صخر والدماء الكثيرة التي شاهدها والقتلى اللذين ماتوا على يديه و أمام عينيه في العمليات التي كان يقوم بها، لم يعرف للموت معنى إلا عندما سمع عن وفاة هيثم، فقد فاق الحزن عليه كل تصور ، حتى انه ترك رجاله وسار وحيدا مبتعدا عن المكان المتفق عليه مخالفا بذلك التعليمات التي تم الاتفاق عليها، فقد غلبه الحزن وأراد الانفراد بنفسه بعيدا عن هذا العالم القاسي الذي خلى من القلوب الرحيمة بل والمشاعر أيضا، جلس طارق على أحد الكافيهات في ركن بعيد عن الرواد، وجعل يستعيد ذكرياته مع هيثم، حديثه معه، أمانيه،أحلامه،. ردود أفعاله، ضحكاته وبكاءه ، ،وأطلق لنفسه العنان يتخيل لحظات موته،كيف لقى مصرعه وكيف أصيب وفي أى جزء من جسده الصغير أصابته شظايا هذه المفرقعات الدنيئة،.وكيف تلقاها هو

وزملاءه وهم بهذا الكم من البراءة والطفولة التي لا تحمل حقدا أو غلاً لأحد، بل أنهم لا يدركون معنى الموت ولا يعرفون لماذا ماتوا ومن وراء موتهم،.

كم تمنى طارق أن يقبض بيده على من زرع لهم الموت وحصد أرواحهم الطاهرة، لو أن الأمر بيده لمزق جسده إرباً وألقى بها لكلاب الطرقات تأكل منا حتى تشبع، ولكن من يا ترى له مصلحة في موت هؤلاء الأطفال، وهل كان المقصود حافلة المدارس تلك أم أن الهدف كان اكبر من ذلك بكثير،انه يعلم أن التناحر على أشده في العراق بين الطوائف والعقائد المختلفة، حتى أنهم قاموا بتسليم أسلحة لعدد كبير جدا من رجالات هذه الفصائل وغيرها من،،،،!!

ماذا، يا للهول،نحن اللذين سلمناهم الأسلحة وأمددناهم بتلك الذخائر، نعم نعم، أعضاء من المافيا كانوا قد أمدوا تلك الفصائل بالأسلحة منذ برهة صغيرة، وقد سلمتهم بيدي أيضا شحنات كبيرة من هذه الأسلحة الفتاكة، ولم أسأل نفسي يومها لماذا وضد من وفي أى وقت سوف يستخدمونها، بل أنه لم يخطر لي على بال عدد القتلى اللذين سوف يتساقطون بهذه الأسلحة، وكان كل ما يعنيني أن أتمم الصفقة وأنجز العملية بأسرع ما يمكن وأُسلم الأسلحة وأغادر المكان إلى مكان آخر ازرع فيه القتل والدمار واروي أرضه بالدماء.

إن يدي ملطخة بدماء هيثم، وجميع الأطفال اللذين قضوا نحبهم معه، أنا الذي قتلت هيثم ابن أختي الذي أحببته واتخذته ابنا لي.

ماذا دهاني حتى أسير في هذا الطريق، واقتل بيدي أطفال أبرياء، وفي كل مكان أنفذ فيه إحدى عملياتنا، اترك ورائي قتلى وجرحى من الأبرياء ممن ليس لهم جمل ولا ناقة في هذه الصراعات الدنيئة التي يقوم بها خارجون عن القانون، ويحصلون على السلاح بطرق مريبة ويدفعون النفيس والغالي ليحصدوا به أرواح الأبرياء، لم أدرك أن تجارة السلاح تختلف عن أى تجارة أخرى سوى الآن، بعد أن حصد السلاح أزكى الأرواح وأطهرها، أرواح أطفال لم يشبوا بعد عن الطوق و لم يعرفوا من الدنيا سوى الضحك واللهو، ولم يخبروا وجهها الآخر، ولكن هاهو الوجه القبيح يظهر لهم بغتة ليقضي على آمالهم وطموحاتهم ويقتل فيهم الفرحة بل وينتزع أرواحهم انتزاعا.

قام طارق متثاقل بعد وقت قضاه على هذا "الكافيه" لايدري طال أم قصر، غير انه غادره بعد منتصف الليل بوقت كبير حتى أن الشوارع المحيطة به بدت خالية من المارة إلا من بعض السيارات المارقة التي تلمحها وهى تكاد تطير من فوق الأرض ربما لتلحق وقتها بعد أن شعر أصحابها أن الليل قارب على الانتهاء،ذهب صخر إلى مكان المبيت، وقد فرغ عقله من كل فكر، ولم يعد قادر على اتخاذ قرار أو التفكير في أى شيء، وبقدر حاجته وطلبه للنوم كان النوم ابعد ما يكون عنه، وظلت عينيه محدقة في الظلام، وشلل يخيم على عقله،، فقط هو مستلقي بعينين مفتوحتين، وقلب ينبض إن دل على شيء فإنما يدل على بقاءه حيا وهو في هذه الحالة التي يرثى لها.

أنجز صخر جميع العمليات التي كلف بها وقام بها خير قيام،. واستعد للعودة مرة أخرى إلى ألمانيا، فقد كانت التعليمات التي لديه أن يعود فور الانتهاء من أخر عملياته ولا يحاول زيارة أى بلد آخر حتى لا يجلب لنفسه الشبهات، ولكي يستطيع التقاط الأنفاس هو ورجاله بعد رحلة عناء استمرت أكثر من شهر، كان فيها زعماء المافيا يضعون أيديهم على قلوبهم في كل يوما يمر ومع كل عملية يقوم بها صخر أو أحد رجالهم في بلد من البلدان المكلفين بتهريب السلاح إليها،وبقدر سعادة زعماء المافيا بالانجازات الكبيرة التي تحققت، بقدر التعاسة التي عاشها صخر خلال هذه الفترة والتي بدأت بفيض المشاعر السلبية التي اجتاحته على الحدود المصرية، وانتهت بخبر مقتل ابن شقيقته هيثم وإسالة دماء أطفال أبرياء في موجة إرهاب غادرة ليس لهم فيها ناقة ولا جمل،وقد زاد من بؤس صخر عدم تلقيه رد من ليلى على اتصالاته، وانقطاع أخبارها عنه، وهو الأمر الذي انزعج له في البداية، ثم بدا يثير الريبة في نفسه بعد أن طالت فترة غيابها وعدم الرد على اتصالاته، ولكنه كان لا يزال يحمل في قلبه أمل أن تكون ظنونه مجرد شكوك ولا يكون للعصابة يدا في ذلك،.

خَلد صخر إلى نفسه قليلا وتعجب على حاله، فهاهو قد وصل إلى ما كان يبتغيه واستطاع أن يحصد النجاح الذي سعى إليه طويلا، وقد حقق ذاته وسارت به آماله وطموحاته إلى ابعد المدى، وبالتأكيد العمليات الناجحة التي أنجزها سوف تزيده قوة وترفع قدره بين زعماء المافيا ويحسب له ألف حساب، فأي نجاح آخر يطلبه بعد أن حصد النجاح والمال والقوة والنفوذ،. ولكن ماله لا يشعر للنجاح بطعم ولا يجد له رونقا ؟،.هل نجاحه منقوص ؟، أم انه نجاح

مغلوط، أم انه ليس بنجاح من الأصل ؟،. فمنذ أشهر قليلة كان يشعر بطعم آخر للنجاح، وكان سعيدا بحياته، ويخطط ويعد العدة للاستمرار والتوغل في نسيج هذه العصابة حتى الوصول إلى قمتها والتربع فوق المكان الذي يبتغيه ويرتضيه،هل موت هيثم أثار فيه كل هذه الأفكار السلبية وأسقطه من قمة الجبل التي كان يعتليها إلى أعماق الهاوية ؟،. أم أن خوفه على محبوبته ليلى واستشعاره الخطر على حياتها هو ما افقده لذة النجاح ؟،أم أن هذه المشاعر المتضاربة والمتباينة التي انطلقت سهامها تدق قلبه على الحدود المصرية أوردته حالة البؤس تلك وجعلت الضياع طريقا له، وصل صخر إلى ألمانيا وحاول كعادته أن ينفض عن نفسه هذه الأفكار التي تأخذه من نفسه وتبعده عن واقع الحياة التي يعيشها والتي تتطلب اليقظة التامة والتعامل بكل ذكاء وحرص، فالعمل مع هذه العصابات الكبيرة يتطلب الحذر الشديد واليقظة الكاملة وعمل حساب لكل كلمة تقال أو خطوة تتخذ،انشغل صخر بعد عودته بعدة لقاءات مع قادة التنظيم، عبروا له فيها عن تقدير التنظيم له، وأشادوا بعمله، وقضى عدة أيام في احتفالات صاخبة في أماكن اللهو والملاهي الليلية التي حرص عدد من أعضاء التنظيم على دعوته إليها عله يستريح من ضغط العمل والشد العصبي الذي عاشه الفترة الماضية،كانت هذه الأجواء في الماضي كفيلة أن تنقله إلى عالم من السعادة والبهجة عاش محروما منه فترة طويلة، غير انه وجد نفسه وسط هذا الزخم والجلبة التي تحيط به يشعر بالوحدة القاتلة وكأن كل من حوله فراغ وصحراء شاسعة لا يوجد بها أنيس أو ونيس، وبدأ ينتابه شعور بالاشتياق إلى رؤية محبوبته ليلى، وكان حتى هذه اللحظة وبعد مرور أكثر من أسبوع لم يحاول زيارة بيتها خوفا من تتبع رجال العصابة

لخطواته، خاصة وهم يحيطونه في كل مكان منذ عودته من رحلته، غير أن إحساسا غريبا بدا يتملكه ويقبض صدره ويجعله يعقد العزم على زيارتها ضاربا عرض الحائط بكل المحاذير التي كان يخشاها، فقد شعر بالضياع وهو بعيدا عنها وانه آخذ في التبرنح ولن يمد له أحد يد الغوث، انتهز صخر إحدى الفرص التي لاحت له بعيدا عن الأعين واستقل القطار واتجه إلى حيث تقيم ليلى للاطمئنان عليها ومتابعة أخبارها ومحاولة تكذيب هذا الشعور البغيض الذي تملكه وأظلم حياته، وقد حاول أن يبث الطمأنينة في نفسه باختلاق الأسباب التي منعتها من الرد على اتصالاته ، واختلق الكثير من المبررات كي يبعث الأمل في نفسه ويبعد عنها وسوسة الشيطان وشك وريبه تملكتها عبر الأيام الماضية،

بينما القطار يقطع المسافة متوجها إلى المدينة التي تقطنها ليلى تملك صخر وهو في طريقه إليها شعوران متضادان كادا أن يفتكا به ويمزقان قلبه قبل أن يلقاها،فمع شوقه إليها وحبه الجارف وفرحته التي لا تعادلها فرحة على اقترابه من لقاءها والأنس بوجودها، كان ينتابه الخوف بل ويتملكه الرعب من أن لا يجدها أو يسمع عنها ما يسيئه ويملئ قلبه حزنا وغما،. فقد كان كمن يقدم إحدى رجليه ويؤخر الأخرى، فهو يريد أن يصل في أسرع وقت، و يخشى من الوصول والمفاجأة التي تنتظره، غير أنه في كل الأحوال الوقت يمر، والمسافة بينهما تقصر، والقطار على وشك الوصول، وما يخبئه له القدر سرعان ما سوف يفاجئه به،وصل صخر إلى سكن ليلى ووضع يده على الجرس يدقه، غير انه لم يجيبه أحد، حاول مرة ومرات، وفي كل مرة لا حياة لمن تنادي ويعود إليه صدى رنين الجرس بغير أن يجيبه مجيب،وبينما يقف على الباب لا يدري

عن الخطوة المقبلة شيء،ولايدري ماذا يفعل،إذا بشقة جارتها يفتح بابها وتخرج منها صديقة لها كان قد رآها في عدة صور تجمعهما، وحدثته ليلى عنها حديثا عابرا أدرك من فحواه أن صداقة كبيرة تربطهما وزمالة طويلة بينهما في مجال دراستهما،. وقد استطاع صخر التعرف عليها من لون شعرها المميز وإعاقة خفيفة في يدها كانت قد أخبرته بها ليلي في معرض حديثها عن هذه الصديقة،ما أن رآها صخر حتى تنفس الصعداء وأدرك أن رحلته لم تذهب هباء، وانه من المؤكد أن تلك الصديقة تعلم كل شيء عن ليلي ولديها الخبر اليقين، وربما أمكنها أن تدله على مكانها الآن فيذهب إليها أيا كان هذا المكان، حياها صخر ببعض الكلمات القليلة وسألها على ليلي بعد أن اخبرها انه صديق لها ويحمل لها رسالة، غير انه فوجئ بها وهى تجيبه أنها تعرفه جيدا من حديث ليلى معها ووصفها له، وعبرت له عن سعادتها لرؤيته، غير أنها فاجأته بمفاجأة غير متوقعة جعلت قلبه يدق بشده ويتساقط العرق من جبينه رغم برودة الجو والصقيع الذي تعيشه المدينة،فقد بادرته بالسؤال عن ليلى؟ قبل أن يبدأ حديثه، ولماذا لم تحضر للدراسة منذ أكثر من شهر ولم تأتي للسكن؟.

نظر إليها نظرة بلهاء،وأراد أن يجيب غير انه لم يستطع أن يفصح عما يجول في خاطره،أجاب سؤالها بسؤال عن الظروف التي جعلتها تختفي هذه المدة الطويلة،تعجبت لسؤاله وأجابته:

- ألست أنت الذي واعدتها وكنت معها في أخر مرة خرجت من هنا.

نظر صخر إليها نفس النظرة البلهاء قائلا:

-كيف حدث هذا وماذا تعلمين عن هذا اللقاء.

-كان لقاءها الأخير معي ، كانت فرحة وأخبرتني أنها ذاهبة إلى المدينة التي تقطن بها، بعد دعوتك لها لقضاء يومين هناك للتنزه والاتفاق على بعض الأشياء الهامة.

-هل أخبرتكِ أني من تحدثت معها في هذا الشأن؟

-لقد أخبرتني أن إحدى الفتيات تحدثت إليها وأخبرتها انك طلبت منها أن تحادثها وتخبرها انك تعد لها مفاجأة سارة وتود الاحتفال معها بها وانك سوف تنتظرها، وضربت لها موعدا، وحددت لها المكان، حتى أن ليلى اندهشت بعض الشيء لأنك لم تحادثها بنفسك، خاصة انك كنت قد أوعزت إليها انك في سفر وعندما تعود سوف تخطرها بذلك، فظنت انك تحدثت مع هذه الفتاه التي أخبرتها أنها تعمل في إدارة احد الفنادق وانك قد حجزت غرفتين لقضاء يومين بالفندق، وهو ما طمأنها بعض الشيء، وأخبرتني انه ربما كانت المفاجأة التي تعدها لها هو طلبك الزواج منها،وهذا ما اعتقدته بعدما طالت غيبتها وقاربت على الشهر، ولكن لماذا أراك مندهشا من حديثي وكأني أخبرك عن شيء لا تعرفه؟.

- لم يشأ صخر أن يخبرها بشيء عن هواجسه، قدم لها اعتذاره على إزعاجها ، وتركها وانصرف، بينما هى تحاول الاستفسار عن موعد عودتها، وإذا كان الزواج قد تم بينهما أم لا.. غير أن صخر كان في حال غير الحال، ودنيا غير الدنيا، بعدما أدرك أن ليلى قد ذهبت بلا عودة، وان التنظيم وراء هذه المكالمة

الغامضة التي أبعدت ليلى تماما عن الملعب، وهذا ما أرادته العصابة وسعت إليه، فهذا الأسلوب يدركه تماما وسمع الكثير عن الحوادث المماثلة التي تلجأ إليها العصابة لإبعاد أي شخص يحاول أن يأخذ وقت أو يشغل احد أفراد التنظيم خاصة إن كان من زعماءه أو ممن يعد ركنا من أركان التنظيم، سار صخر في الشارع لا يلوي على شيء، وتضاربت الأفكار في عقله فلم يستطع التمييز أيهما صحيح وأيهما خاطئ، وضاع الطريق بين قدميه، ولم يلهمه تفكيره أي مؤشر يهديه إلى الطريق السليم الواجب إتباعه، راودته أسئلة كثيرة لم يعرف لها إجابة، فقد أدرك تماما أن العصابة هى من قامت بذلك، ولكن ما مصير ليلى، هل قتلت؟هل اختطفت؟ هل تم مساومتها للابتعاد عنه وترك البلد ودراستها مقابل بعض المال،أو ربما تم تهديدها بالقضاء عليها أو على احد أفراد أسرتها؟ أسئلة كثيرة بدأت تلوح في الأفق و تظهر أمامه كضوء البرق الذي يسطع فجأة ثم يختفي دون أن يترك وراءه دليل أو علامة، كاد عقله أن يشت من الفكر ولم يجد ما يريحه ويزيح عنه هذا الهم، فليس له صديق في هذا البلد يفضي إليه بما يحمله من آلام وأحزان ويتشاور معه في الأمر، ربما كان عنده الحل أو المشورة التي تفيده وتخرجه من هذا المأزق، فكل معارفه هنا من أفراد المافيا ولا يمكن بحال من الأحوال أن يلجئ لأحدهم طالباً العون والمشورة، فجميعهم شبكة واحدة وفكر واحد وسوف يصل حديثه قبل أن يستكمله إلى المعنيين بالأمر في التنظيم ولا يعلم عواقبه، اخذ صخر يترنح وهو يسير في الطرقات على غير هدي بعد أن أنهكه التعب ولم يصل إلى إجابة على أي من أسئلته التي تدور في ذهنه،، عاوده انقباض صدره وشعر بالحزن يتملكه ويملئ قلبه بعدما شعر بالعجز عن فعل أي شيء، أنهكه الفكر ولم

يستطع أن يتوصل إلى نتيجة تساعده على معرفة مصير ليلى، هل لازالت حية؟،أم أنها ماتت وانتهى أمرها وأمره،عند هذه النقطة ، لم يتمالك صخر نفسه وخارت قواه، جلس على أريكة بأحد الأرصفة،واضعا يديه على وجهه وأجهش في بكاء مرير،مضى على صخر أكثر من أسبوع وحاله لم يتغير، فلم يستطيع الخروج من الحالة النفسية التي تملكته وتركته جسدا بلا عقل، وكانت الأفكار في رأسه تدور وتأخذ كل الاتجاهات لينتهي به الحال على لاشيء، مثله مثل الساقية الدوارة التي يدور بها الثور حتى تخور قواه ولايجد نتيجة عمله المضني غير الجفاف ، ويظل يدور ويدور عسى أن يجد بعض الماء الذي يروي ظمأه أو يعينه على الحياة حتى يسقط في نهاية المشوار وقد تملكه التعب وأدرك انه هالك لا محالة،فالذي أعمى صخر وجعله يشعر بالضياع عدم مقدرته على اتخاذ قرارا ما في أهم قضية تخصه ، وهو الذي اعتاد اتخاذ أعتى القرارات وخوض معترك الحياة ، يجد نفسه مكبلاً بأغلال حريرية تقيده وتمنعه من محاولة الفكاك أو الحركة .

فقد توقع بل أيقن أن عصابة المافيا وراء اختفاء ليلى، وأنهم آثروا إبعادها عن طريقه، ولكن كيف له بمواجهتهم ؟، وما الطريقة التي يستطيع بها إنقاذ محبوبته من بين أيديهم إن كانت مازالت على قيد الحياة، أعياه الفكر كثيرا وغلبته الحيل التي ساقها مع نفسه في محاولة إيجاد طريقة ما للحديث مع احد المسئولين في تلك العصابة الدموية في محاولة للوقوف على أخر أخبار ليلى وتقصي الحقائق حول اختفائها المفاجئ بهذه الحيلة الشيطانية .

توالـت الأيـام وجمـع صخر وزعمـاء المافيـا عـدة اجتماعـات طـال وقـت بعضـها وقصر وقت البعض الأخر، وتحدثوا طويلا في أحداث سابقة والعمليات اللاحقة وغير ذلـك الكثير ، غير أن أحـدا منهم لـم يفصح بحـديث يخـص ليلى، وكلمـا تغيرت نبرة الأحاديث توقع صخر أن يبوح أحدهم بشيء أو يفاتحه أي منهم في هذا الخصـوص، غير أنهم كانوا وكأن شيئاً لـم يكـن ،وكأنهم لا يعلمـون شيء عـن هـذا الموضـوع وهـم منـه بـراء، بـراءة الـذئب مـن دم ابـن يعقـوب، كثيرا مـا نظرت في وجوههم علني استطيع قراءة أى شيء، أو أجد حديثا للعيون خرست عنه الألسنة، غير أنى لم أجد لهذا الحديث مكان، كأنهم شخوص صنعوا من جماد، وتيبست وجوههم كما تبلدت مشاعرهم ،.

أدركت تماما أن ليلى قـد اختفـت مـن حيـاتي وان عـودتها شـبه مسـتحيلة، وأن اختفائها ضريبة علاقتها بشخص يعمل في المافيا، وربما وهذا على الأرجح قد ذهبت بلا رجعة،وها أنـا أيضـا ادفـع ضريبة انتمـائي لتلـك الجماعـات الدمويـة، فهاهو هيثم قد ذهب بلا عودة، وليلي اختفت هى الأخرى، ولا ادري ما تخبئه لي الأيـام القادمـة جـراء انضـمامي لتلـك العصـابة الدوليـة التي انخرطـت فيهـا ولـم أفيق إلا بعد أن أصبحت احد تروسها الذي يدور بدورانها ويتوقف مع ثباتها .

في إحـدى الأمسـيات البـاردة جاءتـه مكالمـة هاتفيـة مـن مصـر ألهبـت النيران في صـدره وأعـادت إليـه توجسـاته القديمـة وخوفـه على شـقيقته،. فقـد حادثتـه حنان واستطاع أن يميز اضطراب صوتها ويستشعر في نبراته الرعب، وهو ما لم يعتاده في شخصية حنان طوال حياتها الماضية حتى وهى في اشد الأمور تعقيدا وأكثرها كربا،لذلك هاله منها هذا الخوف الذي يجتاحها، وتلك المكالمة التي لم

يعتادها منها، فقد كان هو من يتحدث دوما إليها ويحاول أن يطمئن عليها، ولم تحادثه إلا مرات قليلة وفي ظروف شديدة الصعوبة،.

حاول صخر أن يتماسك بعض الشيء ويطمئن على أحوال حنان، غير أن ما كان يخشاه يبدو انه قد حدث، فقد أخبرته أنها تشعر بالخوف الشديد بعد أن تحول العداء بينها وبين هذه الجماعات الدموية إلى عداء صريح، وجاءتها تهديدات صريحة بالقتل والتصفية، خاصة بعد المقالات شديدة اللهجة التي هاجمتهم فيها الفترة الماضية في محاولة لكشفهم أمام الرأي العام، وفضح ألاعيبهم ومحاولاتهم القفز على السلطة تحت عباءة الدين،وذلك في محاولة أخيرة منها للرد على أكاذيبهم ومحاولتهم تشويه تاريخها الصحفي والزج بها في مهاترات وقضايا غريبة عليها لمحاولة الانتقام منها وإخضاعها لأهوائهم،

حاول صخر أن يستوضح من حنان عما جد في هذا الأمر خاصة وأنها اتفقت معه على الهدنة وواعدته أنها لن تعاود الكتابة في هذا الموضوع مرة أخرى،

أجابته حنان ويكاد صوتها يختنق من البكاء:

-لقد استمعت إلى نصيحتك وابتعدت عن مهاجمتهم، و تعمدت الكتابة في مواضيع أخرى بعيدة عن ملعبهم حتى تصلهم رسالة أنهم أصبحوا بعيدين عن اهتماماتي وقد أخرجتهم من جعبتي .

-وماذا حدث يا حنان بعد ذلك حتى يتطور الأمر إلى ما نحن فيه الآن-.

-ما حدث أنهم استمروا في تهديداتهم ، ووصل بهم الأمر إلى مقاضاتي على بعض المقالات التي نشرتها ضدهم وكانت تفضح بعض تصرفاتهم بالحقائق والأرقام،، وقام عدد من محاميهم برفع عدة قضايا في محاولة منهم لتشويه سمعتي الصحفية وربما الزج بي إلى السجن.

-هل حدث هذا على الرغم من إثبات حسن نيتك والبعد عن مهاجمتهم؟.

-نعم يا طارق، وهو ما وضعني في موقف لا أحسد عليه أمام زملائي من ناحية، ومن ناحية أخرى أساء لوضعي المهني أمام جمهوري من القراء، وهذا ما لم استطيع تحمله ورفضت أن أتحول من صاحبة حق إلى متهمة، ولذلك قررت العودة لمهاجمتهم مرة أخرى، وحاولت جمع اكبر كم من المستندات التي تعزز موقفي وتثبت أن الحق معي فيما كتبت وان هذه الفئة ضالة وتريد أن تلوي الحقائق وتقلب الأوضاع،وهو ما أثار حفيظتهم وأخرجهم عن طورهم وافقدهم رشدهم، وتجاوزوا موضوعية الرد بتفنيد هذه المعلومات والدفاع عن أنفسهم، ويبدو أنهم قد اختاروا الطريق الأسهل والذي يحترفونه جيدا وقرروا تصفيتي والتخلص مني، وهذا ما تضمنته رسائلهم الأخيرة التي باتت صريحة وجادة ولا يوجد بها مواربة،. وقد استشعرت صدقهم هذه المرة في تنفيذ تهديداتهم، وهو ما جعلني اتصل بك اليوم ربما أجد عندك الحل لهذه المشكلة أو ترشدني برأي ربما يكون فيه الصواب،.وإن كنت اعلم انه من الصعوبة بمكان وأنت بعيدا عني كل هذا البعد، غير أنى أحببت أن أئنس بصوتك واستمد بعض القوة علني اهتدي إلي الحل واستطيع اتخاذ قرارا في هذا الشأن.

-حـدثيني حنـان عـن موقـف الصحيفة وزملائـك مـن هـذه التهديـدات التي تتعرضين لها .

-جميعهم يفتعلـون مسـاندتي وتشجيعي، غير أن الجميـع يـدرك حجـم الخطـر ويحاول أن ينأى بنفسه بعيدا عن هذا المعترك الذي يتجاوز إمكانيتهم، حتى أن رئيس التحرير لا يداري الشماتة كلما تحدثت معه ودائما يُذكرني بحديثه معي في بداية طلب الإذن بكتابة التحقيق الأول الخاص بشركات الأموال، وتحذيره من أن تزل قدمي في هذا الموضوع، وكأنما يحاول أن يخلص يده من هذا الأمر ولسان حاله يقول قد اخترتِ فلتتحملي النتائج ولا داعي أن تأخذينا معك في نفس الخندق،وحتى لا أكون متجنية فقد اختلطت الأمور في رأسي فلست أدري حقيقة موقفه بالضبط .

-نعم يا حنان أتذكر مقولته تلك، وقد نقلتها لي وكنتِ يومها ثائرة و في شك من أمره،. ولكنك لم تدركي مقصده في حينه، ولكن هذا لا يعطيه الحق في التنصل من مسئوليته تجاهك ومناصرتك في هذه الظروف.

-المسألة يا طارق ليست في المناصرة من عدمها، نحن نتحدث عن تهديد بالقتل، فماذا يفعل لحمايتي من هذا التهديد إن عُقد العزم على تنفيذه، إنها ليست قضية يقف معي فيها ويقوم محامي الصحيفة بالدفاع عني، بل إن الأمر اكبر من ذلك بكثير، ويتجاوز المساندة والمساعدة إلى ابعد من ذلك، فقد بات الأمر جد خطير.

صمت طارق برهة، وقال لشقيقته:

-حنان لا تخافي من شيء وتماسكي،وسوف أحاول إيجاد احد الحلول للخروج من هذا المأزق، وسأتصل بك غدا أو بعد الغد على الأكثر علني أكون قد توصلت إلى حل ينهي هذا الخلاف ويزيح عنك المخاطر.

أنهى صخر المكالمة وقد اشتعل جسده بأكمله ولم يستطيع الجلوس أو الوقوف أو النوم، كيف له أن يستريح وشقيقته توأم روحه مهددة بالموت في أي لحظة من جماعات لا تعرف للدم حرمة أو ثمن. ماذا عساه أن يفعل الآن؟، هل يتحدث إلى أحد من الزعماء ربما أمكن للمافيا التدخل في هذا الأمر واستخدام نفوذهم لدى تلك الجماعات وإنهاء هذا الخلاف،ولكنه يعلم جيدا أن قانون المافيا يمنع التدخل في الأمور الشخصية، ويبتعد التنظيم تماما عن المصالح في علاقته مع العملاء اللذين يتعامل معهم، وإذا أضفنا إلى ذلك أن الجماعات الموجودة في مصر ربما تكون بعيدة بعض الشيء عن العلاقات المباشرة مع قادة المافيا في المانيا وهو ما يجعل الأمور أكثر تعقيدا،وذلك على افتراض أن هناك من يحاول التدخل وإيجاد الحل .

نعم نعم ولكن ماذا عن رجال المافيا في ايطاليا جميعهم أصدقاء لي ولهم بعض العلاقات المباشرة مع هذه الجماعات بحكم ارتباطهم بزعمائهم والتعامل معهم مباشرة في عملياتهم المشتركة،نعم نعم، هذا هو الرأي الأمثل، أصدقائي في ايطاليا هم الأجدى في هذا الأمر وربما استطاعوا أن يقدموا لي هذه الخدمة بمطالبة رجالهم في مصر من زعماء هذه الجماعات البعد التام عن حنان وعدم التعرض لها، ويمكنه أن يقدم لهم المقابل أو الضمان الذي يريدونه.

استقر صخر على هذا الرأي ووجد فيه الخلاص من هذه المشكلة المزمنة التي بدأت منذ عدة سنوات ويخشى الآن أن تتوج بكارثة تطيح بشقيقته وتجني ثمارها فقدان عمرها وحياتها،جلس صخر يعيد ترتيب أوراقة ويحاول أن يسترجع معلوماته عن زملائه في ايطاليا والعمليات التي قاموا بها لمحاولة الوصول إلى الأصلح في هذا الأمر الذي يستطيع تنفيذ ما يطلبه منه على وجه السرعة ويكون له من النفوذ والقوة ما يخوله ذلك.

بينما صخر يحاول استجماع أفكاره في هذا الشأن، جاءه مرسال سريع يطلب منه الحضور إلى اجتماع طارئ في التو واللحظة لتقرير شيئا ما،أسرع صخر يُلبي نداء الرسول، وجد ثلاثة من زعماء المافيا مجتمعون، وما أن رأوه حتى طلبوا منه الجلوس، وبادره احدهم بلا مقدمات طالباً منه الاستعداد للسفر إلى مصر في غضون يوما على الأكثر لمحاولة إنقاذ إحدى عمليات التهريب التي تجد صعوبة شديدة في إتمامها نظرا ليقظة رجال الحدود وعدم قدرة رجال المنظمة على اختراقهم والوصول إلى هدفهم، ويُخشى من تعرض العملية للفشل وخسارة ملايين الدولارات، بالإضافة إلى خسارة عدد كبير من الرجال لكونهم محاصرين في احد الجبال الوعرة التي لم يستطيعوا اجتيازها وتسليم الشحنة،وفي حال محاولتهم العودة، فالطريق غير مأمون العواقب، و قائدهم فقد القدرة على السيطرة وطلب دعما فوريا، وهو ما جعل المنظمة تكلفه بالسفر فورا ومحاولة إتمام هذه الصفقة، فهو أجدر واقدر من يستطيع ذلك لمعرفته بالمناطق الحدودية في مصر، وعلاقته بالكثير من رجال الحدود هناك، أسقط في يد صخر، وشعر بالغضب والضيق، ليس هذا هو الوقت المناسب، لقد كان في سبيله للاتصال بزملائه في ايطاليا لإنقاذ شقيقته،.ماذا يفعل الآن

والأمر قد خرج من يده، وعليه أن يباشر من الآن التعليمات ويتخذ أموره لمحاولة فهم طبيعة العملية المكلف بها ودراستها دراسة مستفيضة حتى يقوم بها على أكمل وجه ولا يقع في خطأ يطيح به ويتسبب في فشل العملية، وهذا يعني انشغاله التام خلال الفترة القادمة وتأجيل التفكير في محاولة إنقاذ حنان إلى ما بعد الانتهاء من هذه العملية التي ربما تستغرق أسبوعا أو أكثر، وهو لا يدري ماذا يمكن أن يحدث لشقيقته خلال هذا المدة ،جالت هذه الأفكار في خاطره وهو جالس يتلقى التعليمات والشرح، وكان يبدو مكتئبا وغير متحمس ، وهو ما جعل احد الزعماء يتوجه إليه بسؤال استنكار ،عن كونه يشعر بعدم الرضا عن هذه العملية، أو يجد في نفسه ما يمنعه أو يعيقه عن تنفيذها،وهو ما أنكره صخر تماما، وأكد على استعداده التام لتنفيذ العملية، غير انه يلزمه بعض الوقت للاطلاع على تفاصيلها .

انتهى الاجتماع وغادر صخر المكان وهو يشعر انه يجر أذيال الخيبة، فمجرد الاعتراض أو الرفض لم يستطع أن يبوح به على الرغم من أن مستقبل وحياة حنان في خطر ويكاد أن يفقد أعز ما لديه، ومع ذلك لم يستطع أن يُعبر عما يجيش في صدره ويقول لا، ويصرخ بها،. يالها من حياة سخرة،وعبودية ليس بعدها عبودية.

جلس صخر على أريكة في إحدى المتنزهات القريبة، واخذ الهواء البارد يصفع وجهه بقوة، بينما يحاول أن يستجمع أفكاره ويجد مخرجا من هذا المأزق،.وفجأة انفرجت أساريره وعلت البسمة وجهه، وضرب كفاً بكف، فقد

وجد الحل لهذه المعضلة، بل أيقن أن السماء قد ساقت إليه حل تلك المشكلة دون جهد منه أوسعي يسعاه.

إن الأقدار قد ساقت له هذه العملية والسفر إلى مصر، وهناك سوف يلتقي بمعارفه وأصدقاءه من رجال هذه الجماعات اللذين وضع يده في أيديهم، وهم كثيرين، ومما لاشك فيه أنهم سوف يستمعون إليه ويعملون على تنفيذ طلباته، فهو عنصر هام لهم ويهمهم أن لا يخسروه، فهو ممددهم بالسلاح ركيزة تخطيطهم ووسيلة تنفيذ أغراضهم،حقا انه حل لم أكن أحلم به، ومهما أوتيت من حيلة لم أكن لأجد خيرا من هذا، وما يمكن أن يقوم به زملائي في ايطاليا أقوم به بنفسي خير قيام، وعلاقاتي لا تقل بل تزيد عن علاقة الآخرين بهذه الجماعات داخل مصر وخارجها،أجرى صخر مكالمة مختصرة مع شقيقته حنان أخبرها فيها انه قادم إلى مصر ومعه الحل الشامل لمشكلتها ولن يتركها ويغادر إلا بعد أن ينهي هذه المشكلة تماما ويضع حدا لها،. وهو ما جعل حنان تخرج عن طورها وترسل له قبلاتها عبر الهاتف وكأنها كانت في انتظار أن يأتيها الحل من شقيقها بعد أن أعيتها الحيل وكاد الاستسلام أن يكون البديل أمامه.

أخيرا تنفس صخر الصعداء، فها هى مشكلة حنان قاربت عن الانتهاء تماما وسوف يزول هذا الكابوس الذي بات يرافقه ليل نهار منذ مكالمتها الأخيرة، تأهب صخر للسفر إلى القاهرة وكله حماسة للقيام بهذه العملية التي سوف تقربه من عتق رقبة شقيقته، وكانت رحلة من الرحلات القليلة التي شعر فيها بالراحة والسعادة، فقد انتابه إحساس انه في رحلة ترفيهية يقضي فيها بعض الأيام للتنزه وتغيير الأجواء واستعادة حريته التي فقدها، وها هو يباشر مهامه

العائلية التي كان قد نسيها تماما في خضم الأحداث المتلاحقة التي باعدت بينه وبين أسرته وعائلته فترة طويلة،اتجه صخر مباشرة إلى الحدود المصرية حيث مكان رجاله وشحنة الأسلحة،وتأهب لوضع الخطة المناسبة للعبور بها إلى داخل البلاد، وفي طريقه عمد إلى شراء بعض الصحف وهى عادة قد تعودها منذ فترة طويلة منذ أن بدأت حنان في الكتابة وبدا اسمها يلمع بين الكتاب والصحفيين ، وقد اعتاد قراءة بعض المقالات السريعة أو تصفح بعض العناوين، وبينما هو جالس بجوار سائق السيارة التي تقله إلى موقع رجاله، أخذ يتصفح بعض الأخبار السريعة،. وفجأة شعر بقلبه يسقط بين قدميه، وتفور الدماء في رأسه، وتدور به الدنيا، أخذ يفرك عينية ويعيد قراءة اسود خبر قرأه في حياته، فقد وجد صورة لجثة مدرجة في دماءها، وخبرا ينعي شقيقته حنان إلى قراءها بعد أن امتدت إليها يد الإرهاب واخترقت رصاصات الغدر رأسها الصغير لترديها شهيدة الواجب والكلمة، دارت الدنيا بطارق ولم يتمالك نفسه و كاد أن يغمى عليه من هول الصدمة،وارتفعت يده في حركة لا إرادية تلطم وجهه وانسابت الدموع غزيرة من عينيه، لاحظ السائق الحالة التي عليها صخر فسأله عما به وماذا أصابه، غير أن صخر أمره أن يتوقف بعض الوقت وابتعد عن السيارة وتوغل في الصحراء على غير هدى وهو يترنح من هول الصدمة ، واخذ يصرخ بعواء رهيب يهز الوجدان، ويملئ كفيه من رمال الصحراء الساخنة ويضعها فوق رأسه وهو لا يدري ماذا يفعل وماذا عليه أن يفعل، شاهد السائق صخر على حالته هذه فأصابه الرعب وخشى أن يتدخل أو يعاود سؤاله مرة أخرى، فهو على دراية جيدة بصخر ويخشاه كما يخشاه غيره من أفراد العصابة المعنيين بتنفيذ الأوامر دون أن يكون لهم الحق في

السؤال أو التعقيب، جلس السائق في مكانه ينتظر صخر أن يعود، وطال الوقت وكادت ساعات النهار أن تنقضي ويقبل الليل بوحشته وظلامه،خشى السائق من وعورة الصحراء وما يمكن أن يواجههم من متاعب في هذه المناطق النائية، فتشجع قليلا وذهب إلى صخر واخذ بيده وطلب منه بصوت يرتجف أن يواصلا سيرهما حتى يتم انجاز المهمة التي جاءوا من اجلها، نظر صخر إليه طويلا بعينين زائغتين ووجه عابس، وسار معه بصمت إلى السيارة، ركن رأسه على مسند المقعد، وتحركت بهما السيارة تنهب الصحراء بأقصى سرعة لتعوض وقتا طويلا ضاع منهما، لم يعد صخر في حالة تسمح له بقيادة رجاله في العملية التي هم بصددها، فقد تلاشت أمامه الرؤى و تساوت عنده الأشياء، فتساوى النجاح مع الفشل، والموت مع الحياة، وبات كل شيء عدم،ولم تعد العملية أو غيرها في بؤرة اهتمامه، غير أن هذه الحالة لم تصل لرجاله ، فقد توقعوا أن صخر في حالة نفسية سيئة من جراء رحلته الشاقة ، أو أن به بعض المتاعب التي سرعان ما تزول، تحرك صخر برجاله ومعهم شحنة الأسلحة محملة على عدة سيارات وتمكنوا من اجتياز بعض النقاط الحدودية، غير أن صخر لم يكن في حالة تسمح له بالمناورة واتخاذ الطريق الأمثل بعدما انعدمت رؤيته للأشياء ، فسار في طريقه غير مبال، وعلى الرغم من تحذير بعض رجاله من الطريق الذي يسلكه غير إنه لم يأبه بتحذيرهم ،أو يحاول توخي الحذر، وأخذ طريقه كأنما يساق إلى الموت، أصدر صخر أوامره لرجاله بمحاولة عبور إحدى النقاط الحصينة بعد أن قدر إمكانية عبورها،ونظرا لتشوش فكره فقد أساء التقدير،فما هى إلا لحظات قصيرة حتى وجدوا أنفسهم وقد أحيط بهم بقوة كبيرة من جنود حرس الحدود من كل

جانب، فأدرك على الفور انه قد سقط مع رجاله في كمين أعد لهم بإتقان ، فما كان منه إلا أن أشار لرجاله بإطلاق النار صوب أفراد الكمين ومحاولة الهروب السريع ، وقبل أن يكمل أوامره انهمر الرصاص فوق رؤوسهم، وانشقت الأرض عن أحد الضباط الذي باغته فجأة بإطلاق أربع رصاصات أصابته في مقتل، ويسقط مدرجاً في دماءه، وبلمحة من عينيه ينظر إلى قاتله فيجد صديقه أيمن يقف فوق رأسه وقد امسك بسلاحه واخذ يصدر أوامره لجنوده للسيطرة على الموقف ومحاولة إسعاف الجرحى،ثبت نظر طارق على صديقة أيمن، ولاح له كخيال كثير الحركة، يرسل إشارات،ويتحدث كثيرا،والتقت أعينهما ،ليجد كل منهما الدموع تنساب من عين صديقه، ويحاول أيمن أن يأخذ بيد طارق ، غير انه كان في طريقه للاحتضار ، وصور وذكريات تتأرجح أمام عينيه، وشبابيك الأمل التي حاول اجتيازها تغلق وتتهاوى ، ورويدا رويدا،خيم الظلام على عينيه وتجمدت الدماء المنسابة من جسده،. وسقطت قطرات ساخنة من دمع أيمن على وجه صديقه طارق، ولحظة وداع امتزج فيها الدمع بالدماء،اخذ أيمن الصحيفة التي كان يطبق عليها طارق يده وتحمل خبر مقتل حنان، وفرد أوراقها على جثته، وغادر المكان بينما رجال الإسعاف يحملون المصابين ويضعونهم داخل السيارة .

نبذة عن الكاتب

نصر سليمان محمد

"أديب وشاعر"

إصدارات للمؤلف :-

مجموعة قصصية "رصاصة الرحمة " -- دار المعارف

مجموعة قصصية "صرخة " -- الحضارة للنشر

ديوان شعر "فراق " -- دار المعارف

ديوان شعر "الجلاد والكأس " -- الحضارة للنشر

كتاب "شخابيط على لخابيط "

مجموعة مقالات للكاتب -- الحضارة للنشر

قارئنا العزيز.. إيمانًا منا بأن المنظومة لن تكتمل إلا بك، فإن دورنا في ضاد هو نشر محتوى أدبي يليق بالأدب المصري والعربي ولأن رأيك دائمًا يهمنا، ننتظر منك التواصل معنا لتقيم أعمالنا عبر موقعنا الإلكتروني أو عبر صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، من أجلك ومن أجل جيل جديد يستحق خدمات نشر أفضل.

مدير النشر: محمد حواس

نائب مدير النشر: ابتسام أبو سعدة

المشرف العام : محي الدين محمد – رجب امبابي

مسؤول العلاقات العامة والتوزيع : معجزة أحمد

الدار .. دارك

www.daadpub.com



